مختصر غاية الرفق في التربية

تربية النفس .. تربية الأسرة .. تربية المجتمع بالدين الحق

تأليف الدكتور

محمد بن إبراهيم منصور

قدم له

فضيلة الشيخ الدكتور

سيد بن حسين العفاني

توزيع

دار الخلفاء الراشدين

الإسكندرية أبو سليمان ش عمر
أمام مسجد الخلفاء الراشدين
٠١[illegible]٦٧١٤٧٦٨ - ٠١١٢٠٠٠٤٦٤٦

دار الفتح الإسلامي

الإسكندرية مصطفى كامل
بجوار مسجد الفتح الإسلامي
٠١٠٠٥٠١٣١٥١ - ٠١٠٩٤٥٥٥١٥٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مختصر غاية الرفق

في التربية

بسم الله الرحمن الرحيم

مختصر غاية الرفق في التربية

الطبعة الثالثة

١٤٣٥هـ ٢٠١٤م

رقم الإيداع

٢٠٠٧/٩٠٧٧م

دار الخلفاء الراشدين

الإدارة: ٠١٠٠٦٧١٤٧٦٨

المبيعات: ٠١١٢٠٠٠٤٦٤٦

مقدمة فضيلة الشيخ
د.سيد بن حسين العفاني

إنَّ الحَمْدَ لله، نَحْمَدُه ونَسْتَعِينُه ونَسْتَغْفِرُه ونَتُوبُ إليه، ونَعُوذُ بالله مِنْ شُرُورِ أنفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِه اللهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِل فَلَا هَادِي لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [الحشر: ١٨، ١٩].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء: ١].

وبعد:

فَإِنَّ تَزكِيَةَ النُّفُوسِ مَطْلَبٌ رَئِيسٌ فِي الدَّعْوةِ المحمَّدِيةِ، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ [الجمعة: ٢]، وقال تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٩]، ولَقَدْ أَقْسَمَ اللهُ ﷻ أَحَدَ عَشَرَ قَسَمًا مُتَتَالِيةً مَا أَتَتْ إلا فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ مِنْ كِتَابِهِ أَنَّ فَلاحَ النُّفُوسِ بِتَزْكِيَتِهَا؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا

﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [الشمس: ١ - ١٥].

بَلْ إِنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَد فَسَّر التزكيةَ بإحدى مَقَامَاتِ الإِحسَانِ؛ كَمَا جَاءَ فِي الأَثَرِ: «**ثلاثٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ فَقدْ طَعِمَ طَعْمَ الإِيمَانِ: مَنْ عَبَدَ اللهَ وَحْدَهُ، وَأَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلا الله، وَأَعْطَى زَكَاةَ مَالِهِ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ، رَافِدَةً عَلَيْهِ كلَّ عَام، وَلاَ يُعْطِي الهَرِمَةَ**[1]، **وَلا الدَّرِنَةَ**[2]، **وَلا المَرِيضَةَ، وَلا الشَّرطَ**[3] **اللئيمَةَ**[4]، **وَلَكِنْ مِنْ وَسَطِ أَمْوَالِكُمْ، فَإِنَّ الله لَمْ يَسْأَلْكُمْ خَيْرَهُ، وَلَمْ يَأْمُرْكُمْ بِشَرِّهِ**» وزَادَ فِي رِوَايَةٍ: «**وَزَكَّى نَفْسَهُ**»، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ الله وَمَا تَزْكِيَةُ النَّفْسِ؟ فَقَالَ: «**أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الله مَعَهُ حَيْثُ كَانَ**»[5] وتَزْكِيَةُ النُّفُوسِ وتحليتُها بالفَضَائل وتنقيتُها مِنَ الرَّذائل حَرِصَ عَليه الشَّارِعُ الحكيمُ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**عَلَيْكَ بِطُولِ الصَّمتِ وحُسنِ الخُلُقِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيده مَا عَمِلَ الخَلائقُ بِمِثْلِهِمَا**»[6]، وقال رسول الله ﷺ: «**أثقلُ شيءٍ فِي المِيزَانِ الخُلُق الحسن**»[7].

- **وهذا الكتابُ القيِّمُ يتناولُ مسائلَ التربيةِ والتزكيةِ**، وصاحبُه مربٍّ فاضلٍ وشيخٍ جليلٍ وداعيةٍ كريمٍ، لَهُ منزلةٌ في قلوبِ إخوانِه لاستقامتِه وعلوِّ همتِه في **الدعوةِ إلى اللهِ** ﷻ.

فأُوصيك أخي القارئ بِكُلِّ مَا يَخُطُّهُ يَرَاعُ[8] فَضِيلَةِ الشَّيخِ الدكتور: مُحَمَّدِ بْنِ

(١) الهرمة: كبيرة السن.
(٢) الدَّرِنَة: الجَرْبَاء.
(٣) الشرط: الرازالة أو الصغير القليل.
(٤) اللئيمة: البخيلة باللبن.
(٥) صحيح: صححه الألباني [«الصحيحة» (٣/ ١٠٧٢)].
(٦) حسن بشواهده: حسنه الألباني [«الصحيحة» (٤ / ١٩٤٣)].
(٧) صحيح: صححه الألباني [«الصحيحة» (٢ / ٨٩٨)].
(٨) اليراع: القلم.

إِبْرَاهِيمَ مَنْصُور.. بَارَكَ اللهُ فِيهِ وَفِي يَرَاعِهِ وَفِي خُطُوَاتِهِ وَأَهْلِهِ وَدَعْوَتِهِم، وَجَعلَهُ لِلرَّبَّانِيينَ إِمَامًا، وَثَقَّل بِهَـذا الكِتَابِ مِيزَانَهُ يَومَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُون إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلبٍ سَليمٍ.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه

د. سيد بن حسين العفاني

١٠ المحرم سنة ١٤٢٩ هـ

مقدمة الطبعة الثالثة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ.

وبعد،

ففي ظلِّ هذه الظروف التي تمرُّ بها الأمَّة من الذِّلَّة والمهانةِ، والضعفِ والهزيمةِ، وتحكُّم الأعداء وإحاطتهم بالأمة من كل جانب، وتسلطهم على مقدساتها، وعبثهم بأراضيها، بل وبعقول أبنائها، في ظل ضياع المعالم الأساسية للشخصية المسلمة، والأسرة، والمجتمع بالصورة التي كان عليها سلفنا الصالح. في ظل هذه الظروف الصعبة كثرت التساؤلات من الراغبين في الخير، الغيورين على أمتهم ودينهم.

- كيف أُعيدُ صياغة نفسي؟ وكيف يُمكنني أن أستقيم على الطريق الصحيح؛ لأوجد من نفسي تلك الشخصية النافعة التي تحمل همَّ دينها وأمَّتها؟

- كيف أوجد من نفسي هذه الشخصية التي يمكنها أن تتخلص من أغلال الشهوات، والمعاصي، والمخالفات، وتخطو كل يوم إلى الله خطوات وخطوات، الشخصية التي تزداد كل يوم بل كل لحظة إيمانًا؟

- كيف أترقى في طلب العلم النافع بطريقة سهلة وغير معقدة، وفي نفس الوقت بجدية وهمة واستمرار؟

- كيف أحدث الرباط الوثيق بين العلم والعمل؟

- كيف أبدأ طريق الطلب؟ وكيف أستزيد من العلوم الشرعية الهادفة النافعة؟ وهل يمكنني أن أصير من أهل العلم الربانيين، العاملين بالعلم، الداعين إليه؟

- كيف أتعامل مع نفسي في جميع مجالات التربية والتزكية؛ لأنطلق بها -بعون الله ﷻ- في طريق النجاة والفوز والفلاح؟

- كيف أوجه سفينة الأسرة في خضم هذه الأمواج المتلاطمة من الفتن والمغريات، وعوامل الانحراف والانحلال؟ كيف أوجه تلك السفينة إلى بر النجاة والأمان؟

- كيف أتعامل مع زوجتي وأولادي، بما يكون سببًا - بإذن الله ﷻ - في هدايتهم، وإرشادهم إلى مرضاة ربهم؟

- كيف يكون لي دور في توجيه المجتمع إلى طريق الصعود من هذه الهوة السحيقة التي حلَّت بها الأمة؟ أزمة الأخلاق، أزمة الانحراف في شتى المجالات، وأزمة التدين بصفة عامة.

- كيف يمكننا أن ندير عملية التحرك من الهبوط إلى الهاوية، ونحولها بإذن الله إلى الصعود إلى صروح العزة وعلا المجد؟

- كيف أكون داعية ناجحًا يؤثر في المجتمع، ويقوم بدور المسلم الحق في هذه الحياة، الذي عبَّر عنه ربعي بن عامر رضي الله عنه بقوله: «**الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة ربِّ العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة**».

- وفي الجملة: ما المنهج الصحيح للتغيير المنشود في الشخصيات والأسر والمجتمعات من الواقع والحال المخالف لشرع الله ﷻ إلى الواقع والحال الذي يرضي الله ﷻ، أو كيف أتحول من معول هدم - بالمعاصي والمخالفات والتقصير - إلى لبنة بناء في صرح الأسرة والمجتمع والأمة.

كل هذه التساؤلات تجد - أيها القارئ الكريم - الإجابة عليها في هذا الكتاب مع وجازته بإذن الله ﷻ.

فقد حاولتُ فيه بيان معالم سبيل النجاة وصياغتها صياغة عملية سهلة متدرجة، تأخذ بيد السالك إلى الله من أول خطوة من خطوات الالتزام والتدين وترك المعاصي، مرورًا بتربية النفس بطريقة عملية سهلة، والتدرج في تلك التربية، بعوامل التربية المختلفة، بالفرائض، والنوافل، وطلب العلم، والأخلاق، وأعمال القلوب.

ثم ينتقل إلى مرحلة التأثير في المجتمع بالدعوة إلى الله ﷻ بالحكمة والموعظة الحسنة، بالقول والعمل، بالأخلاق والسلوك، مع بيان الضوابط التي ينبغي أن يسير عليها لتكون دعوته مثمرة، وبيان ترتيب الناس في استحقاقهم للدعوة حتى لا يترك الأهم في الدعوة والمدعوين وينشغل بما دون ذلك، وذلك بالاهتمام بالأسرة اهتمامًا شديدًا والمجتمع الملاصق له، ثم الانطلاق في إقامة الدعوة بجميع صورها، بل وإيجاد من يحمل الهمّ معه ويقوم بما يقوم به.

وقد لاقى الكتاب - بفضل الله ﷻ - قبولًا واسعًا، بل وأصبح يُدَرَّسُ في كثيرٍ من الأماكن، ويُقرأ على الناس وعلى طلبة العلم، فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وأسأل الله ﷻ أن يرزقني وكل من أعان على نشره، وكل من أفاد به الإخلاص في القول والعمل، وأهيبُ بكل من قرأ منه شيئًا أو أفاد منه فائدة أن يتذكرني ووالديَّ بدعوة صالحة.

والحمد لله رب العالمين.

وكتبه

د. محمد بن إبراهيم منصور

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

مقدمة الطبعة الثانية

إنَّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيِّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

وبعد،

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

ثم أما بعد،

فهذه هي الطبعة الثانية من كتاب «**مختصر غاية الرفق في تربية النفس والأسرة والمجتمع بالدين الحقِّ**»، وقد لاقى الكتاب - بفضل الله ورحمته وكرمه - قبولًا طيِّبًا، أخبرني بذلك الكثير ممَّن بلغهم الكتاب من إخواننا من طلبة العلم والدعاة والمربين؛ فلله الحمد من قبل ومن بعد؛ ومن أجل إتمام الفائدة أضفتُ في هذه الطبعة عدَّةَ إضافاتٍ أحسب أنها مهمة ومفيدة في هذا الباب المهم «باب التربية».

وكانت هذه الإضافة كالتالي:

١- توسعتُ في باب أهمية الوقت وقيمته، وأنه رأس المال الحقيقي للعبد، وذكرت صورًا من حرص السلف على الوقت، وكيف كانوا يتعاملون

مع الأنفاس واللحظات؛ ليكون ذلك حاديًا للسالك إلى الله ﷻ بتربية نفسه، وأن يحرص على كلِّ لحظة فلا يدعها تمرُّ إلا وأودع فيها قربةً وطاعةً.

٢- في الباب الثاني الذي هو بعنوان: «أخي لا تكن مع الخاسرين» توسعتُ في موضوع صور الخسر في الدنيا والبرزخ وفي الآخرة؛ لتهيج نفس السالكين إلى البحث عن طريق النجاة من هذا الخسران الفادح وهذه المهالك المتتالية.

٣- في أبواب تربية النفس بالطاعات أضفتُ صورًا من علوِّ همَّة السلف في كل عبادة من العبادات؛ ليكون حاديًا للسالك إلى أن يجتهد في العبادة، ويحاول اللحاق بهذا الركب المبارك والتشبه بهم.

تشبهوا بالرجال إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالرجال فلاح

٤- في باب تربية النفس بالأخلاق ذكرتُ بعد كل خلق من الأخلاق دليله من الكتاب أو من السنة؛ فإن في الدليل من الترغيب والترهيب ما يحض على الامتثال ويزجر عن المخالفة.

٥- أضفتُ فصلًا في أهمِّ الآداب التي تكثر الحاجة إليها؛ وذلك لأن السَّمْت الظاهر له أثر مباشر في الباطن سلبًا وإيجابًا، وبالآداب الشرعية يستقيم السَّمت الظاهر، خاصة إذا تأدب بها العبد امتثالًا وطاعة لأمر الله ﷻ وأمر رسوله ﷺ.

- **ثم أقول للقارئ الكريم**: إن هذا الكتاب بمثابة برنامج عمليّ للتربية، وليس مجرد بحث نظري تقرؤه مرة واحدة ثم تتركه - كما نفعل مع كثير من الأبحاث والكتب، وإنما يحتاج مثل هذا الكتاب إلى أن تقرأه أكثر من مرة، وأن تقف مع كلِّ بابٍ أو فصلٍ أو عنوانٍ أو مَعْلَمٍ من مَعَالِمِ التربية وقفة مع نفسك، وتحاول التطبيق والامتثال.

ولو أنك وقفتَ مع كل معلمٍ من معالم التربية التي ذُكِرَتْ فيه أسبوعًا

تجاهد نفسك على امتثاله وإتقانه، ثم تضيف معلمًا آخر في الأسبوع التالي، وهكذا، لكان الانتفاع به أكثر والاستفادة منه أعظم. فاللهَ أسأل أن ينفع به كاتبَه، وقارئَه، ومن أعان على نشره، وأن يجعله خالصًا لوجهه سبحانه، وصلَّى الله على محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلَّم.

***

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ.

وبعد:

فقد كنتُ كتبت بحثًا مطولًا بعنوان: «**غاية الرفق في تربية النفس والأسرة والمجتمع بالدين الحق**»، بوَّبته على آيات سورة العصر.

فجعلت الباب الأول بعنوان: « أخي لا تكن مع الخاسرين »، ذكرتُ فيه تفسير قول الله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾. وبيَّنتُ كذلك أهمية الوقت، ومعنى الخسر، وصوره في الدنيا، وفي البرزخ وفي الآخرة.

ثم جعلتُ الباب الثاني بعنوان: « تربية النفس »، وذكرتُ فيه تفسير قول الله ﷻ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾. ثم بيَّنتُ أنَّ الشرط الأول من شروط النجاة من الخسر هو: تحقيق العبودية بالإيمان والعمل الصالح، ثمَّ ذكرتُ بعض الوقفات مع قضية العبودية، وذكرتُ بعض صور الخلل الواقعية فيها، ثم بيّنت صفة الشخصية التي تتحقق فيها العبودية بمعناها الشامل، ثم ذكرت معالم الطريق للوصول إلى هذه الشخصية، وهي: فعل الفرائض، تتلوها النوافل. وذكرتُ أمثلة تُبيِّن كيفية تربية النفس بالطاعات، من الصلاة، والصيام، والصدقات، والحج والعمرة، وطلب العلم ومراحله، وحسن الخلق، وأعمال القلوب.

ثم جعلتُ الباب الثالث بعنوان: «تربية الأسرة والمجتمع»، وذكرتُ فيه تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾. بيَّنتُ فيه فضل الدعوة وحقيقتها، وسمات الدعوة الربانية وأصولها، وأهدافها. وذكرت مراتب الناس في

استحقاقهم للدعوة، ثم ذكرت طريقة دعوة الزوجة وتربيتها على الحق، ثم طريقة تربية الأبناء، ثم عامة الخلق، وكيف يصل الداعي إلى فئات المجتمع بدين الله ﷻ بالرفق والحكمة والموعظة الحسنة؛ ليُظهر لهم حقيقة هذا الدين العظيم، ثم عقدت فصلًا لصناعة الرجال، وكيف يتسنى للداعي أن يوجد من يحمل معه الراية ويخلفه في حملها.

ثم جعلتُ الباب الرابع بعنوان« أخي كن مع الصابرين »، وذكرت فيه تفسير قول الله ﷻ: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾، وبيَّنتُ فيه معنى الصبر وصوره وآدابه؛ لتكتمل صورة العبودية بالإيمان، والعمل الصالح، والدعوة إلى الله، والصبر على ذلك كله.

ولما كان البحث مطولًا بعض الشيء أشار عليَّ بعض الأفاضل ـ جزاه الله خيرًا ـ أن أختصره؛ لتسهل الاستفادة منه ويقرب المطلوب، فقمتُ بعمل هذا المختصر.

فأسأل الله ﷻ أن ينفعني به، ومن قرأه، وأعان على نشره، والحمد لله رب العالمين.

كتبه

د.محمد إبراهيم منصور

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

الباب الأول

أخي لا تكن من الخاسرين

تفسير قول الله عز وجل

﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾

فصل
في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾
وبيان أهمية الوقت

قال شيخ المفسرين محمد بن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾، فقال بعضهم: هو قسم أقسم ربنا ـ تعالى ذكره ـ بالدهر، فقال: العصر هو الدهر.

ـ **ذِكْرُ مَنْ قال ذلكَ**: حدّثني عليٌّ، قال: ثنا أبو صالح، قال: ثنا معاوية عن علي عن ابن عبّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في قوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾، قال: العصر ساعة من ساعات النهار.

حدثنا ابن عبد الأعلى، قال: ثنا ابن ثور عن معمر عن الحسن، قال: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ قال هو العشِيُّ.

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إنَّ ربَّنا عَزَّوَجَلَّ أقسم بالعصر، والعصر اسم للدهر، وهو العشيُّ والليل والنهار، ولم يخصص مما شمله هذا الاسم معنى دون معنى، فكل ما لزمه هذا الاسم داخل فيما أقسم به جل ثناؤه» اهـ[1].

قال في «أيسر التفاسير»: «﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ هو قَسَمٌ أَقْسَمَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ به، والعصر هو الدَّهر كله، ليله ونهاره، صبحه ومساؤه»[2].

وَقَدْ أقْسَمَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بالعصرِ، واللهُ عَزَّوَجَلَّ يُقْسِمُ بما شاءَ من خلقِهِ، وليسَ لأحدٍ أن يقسم إلَّا به ـ سبحانه، والقَسَمُ بغير الله عَزَّوَجَلَّ شِرْكٌ؛ لقوله ﷺ: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ**

---

(١) «جامع البيان في تأويل آي القرآن بالقرآن» (١٢/ ٦٨٤)، ط. دار الكتب العلمية.
(٢) «أيسر التفاسير» (١٥٣٣).

الله فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»(١).

وإقسام الله ﷻ هنا بالعصر إشارةٌ إلى أهميته وخطورته، فما أنتَ إلَّا أنفاسٌ ولحظاتٌ، إذا مرَّ نَفَسٌ مرَّ بعضُك، وإذا مرَّتْ لحظةٌ فقدتَ لحظةً من رأسِ مالِك.

- **فالموفَّقُ** هو: الذي يسابق اللحظاتِ ويغتنم الأوقاتِ، لا يَدَعُ لحظةً تمُرُّ إلا أَوْدَعَ فيها عبادةً وَجَدَّدَ فيها إيمانَه.

- **والمغبونُ** هو: الذي باع رأس ماله بثمنٍ بخسٍ دراهم معدودةٍ، وشهواتٍ لا بدَّ ولا محالة مفقودة، وجنى على نفسِهِ أعظمَ جنايةٍ.

فالأولُ: إنما حصَّل النعيمَ الأبديَّ؛ باغتنام الأوقاتِ في الطاعاتِ والقُرباتِ.

والآخرُ: إنما خسر الدنيا والآخرةَ؛ بالانغماسِ في الشهواتِ، وتضييع الأوقاتِ والأنفاسِ واللحظاتِ، قال النبي ﷺ: «**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ؛ الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ**»(٢).

فالأوقاتُ والأنفاسُ واللحظاتُ والليلُ والنهارُ من أعظمِ نعمِ الله ﷻ على عِبادِه، قال تعالى: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ** ﴿٣٣﴾ **وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**﴾ [إبراهيم: ٣٣-٣٤]، وقال النبي ﷺ: «**لَنْ تَزُولَ قَدَمُ عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ**»(٣).

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (١٥٣١٥)، وأبو داود (٣٢٥١)، وأحمد (٢/ ٦٩)، وصححه الألباني في [«الإرواء» (٨/ ١٨٩)].

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٦٤١٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) حسن: أخرجه الترمذي (٢٤١٧)، والدارمي (٥٣٧) من حديث أبي برزة الأبسلمي، وحسنه الشيخ الألباني بشواهده في [«السلسلة الصحيحة» (٢/ ٦٦٦)].

ولذا كان السلف أحرص الناس على أوقاتهم؛ لأنهم عرفوا قيمةَ الوقتِ، فكانوا أضنَّ بأوقاتِهِم من الرجلِ الشحيحِ بمالِهِ.

قال الحسن البصري: أدركتُ أقوامًا كان أحدهم أشح على عمره منه على دَرَاهِمِه ودنانِيرِه[1].

وكانوا يقولون: من علامة المقت إضاعة الوقت.

ولذا قال رجل لأحد العلماء: قف أكلّمك، فقال: أوقف الشمس.

قال أبو الفرج الإسفراييني، يُحدِّث عن شيخه سليم الرازي: كان يحاسب نفسه على الأنفاس حسابًا عسيرًا رغم أنه لم تكن تمضي عليه لحظة بغير فائدة؛ إمَّا يقرأ أو ينسخ، ولقد قام يومًا إلى داره وعاد فإذا هو قد قرأ جزءًا، وحفي قلمُه يومًا فجعل يبريه وهو يقرأُ لئلّا يضيعَ وقتُه.

والوقت أنفس ما عنيت بحفظه وأراه أسهل ما عليك يضيع

لقد نظروا أيَّ الأوقات لا يستطيعون فيها معرفة حق أو إبلاغه، فوجدوها إمَّا وقت طعام - وأعني به لحظات مضغه وبلعه، لا الجلوس إلى الموائد - أو وقت النوم، أو وقت سمر مع الأصحاب، فهذه خسارة ثابتة لابد من حصولها، فاحتالوا لأجلها حيلًا عجيبة، وصبروا على مكابدتها صبراً مدهشًا، فانظر - رحمك الله - إلى تلك الحيل وإلى ذلك الصبر عليها.

قال أبو حاتم الرازي: أقمنا بمصر سبعة أشهر لم نأكل فيها إلا الخبز والماء، نهارًا ندور حولَ الشيوخِ وليلَنا ننسخُ ونقابلُ، فذهبنا إلى الدرسِ يومًا فوجدنا الشيخَ عليلًا فاشترينا سمكةً أعجبتنا - وكانت بطونُهُم قد يبسَتْ من الخبزِ - فلما أردنا العودَ لشيِّها رأينا الشيخَ مقبلًا إلى الدرسِ فمضينا إليه والسمكةُ معنا ثلاثة أيامٍ حتى تغيَّرت وكادت تفسدُ، فأكلناها بعد ثلاث وهي نيِّئَةٌ لم نتفرغْ لشيِّها،

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (٨)، وابن أبي الدنيا في العمر والشيب (٩١). أشح: أحرص.

ثم قال: لا يُستطاعُ العلم براحة البدن(١).

داود الطائـي: تـرك أكل الخبز بعد شـروعه في الطلـب، وكان يأكل الفتيت منه ويجرع عليه الماء، فسـألوه عن ذلك، فقال: وجدت بين أكل الخبز وسـف الفتات تلاوة خمسين آية، فقلت: أنا أحقّ بها(٢).

قال عثمـان البقلاوي: إني وقت الإفطار أحـس بروحي كأنها تخرج لأجل اشتغالي عن الذكر(٣).

وقال الخليل بن أحمد: أثقل الساعات عليَّ ساعةٌ آكل فيها.

وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي محدّثًا عن حال أبيه مع وقته، فقال: كنـت أقرأ عليه وهو يأكل، وأقرأ عليه وهو يمشـي، ويدخل الخلاء وأقرأ عليه من خارجه، ويدخل البيت في طلب الشيء وأقرأ عليه(٤).

والجـزاء من جنس العمل، كان ثمرةَ شـحِّهِ بوقتِهِ كتابُ «التفسـير» في عدَّة مجلدات، وكتاب «الجرح والتعديل» في تسـعة مجلدات، و«المسند» من ألف جزء في عددٍ كبير من المجلدات.

وأوصـى مربٍ طلابَه عندما قامـوا من عنده، فقـال: إذا خرجتم من عندي فتفرّقوا؛ لعل أحدكم يقرأ القرآن فإنكم متى اجتمعتم تحادثتم.

أبـو نعيـم الأصفهـاني ـ المتوفى سـنة ٤٣٠ للهجـرة ـ كان حفـاظ الدنيا قد اجتمعـوا عنـده، وكلُّ يوم نوبةُ واحد منهم يقرأ على الشـيخ فـإذا قام إلى داره ربما يُقرأ عليه في الطريق جزءٌ وهو لا يتضجرُ(٥).

---

(١) «تذكرة الحفّاظ» (٣/ ٨٣٠).

(٢) «حلية الأولياء» (٧/ ٣٥٠)، «الثقات» (٨/ ٩٣).

(٣) «تاريخ بغداد» (١١/ ٣١٣).

(٤) «تهذيب الكمال» (٢٤/ ٣٨٨).

(٥) «تذكرة الحفّاظ» (٣/ ١٠٩٤)، «سير أعلام النبلاء» (١٧/ ٤٥٩)، «تاريخ الإسلام» (٢٩/ ٢٧٧).

وكان الخطيب: يمشي وفي يده جزء يطالعه(١).

وكان ابن عساكر ـ كما يقول ابنه عنه: لم يشتغل منذ أربعين سنة إلَّا بالجمع والتسميع حتى في نزهته وخلواته(٢).

وكان بعضهم إذا حَفِي عليه القلمُ واحتاج إلى بريٍ، يحرِّك شفتيه بذكرِ اللهِ وهو يصلحُ القلمَ، أو يرددُ مسائلَ يحفظها لئلّا يمضيَ عليه زمانٌ وهو فارغ.

وكان أبـو الوفـاء علي بن عقيل يقـول: إني لا يحل لي أن أضيعَ سـاعةً من عمري حتى إذا تعطل لساني عن المذاكرةِ، وتعطل بصري عن المطالعةِ، أعملت فكري في حال راحتي وأنا منطرحٌ، فلا أنهضُ إلّا وقد خطر لي ما أسطرُه(٣).

يقـول ابن القيـم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأعرف مـن أصابه مرض وصـداع وحمّى، وكان الكتاب عند رأسِه، فإذا وجد إفاقةً قرأ فيها، فإذا غُلِبَ عليه وضعَه»(٤).

وهذا ابن أبي ذئب؛ قال الواقدي ـ تلميذه: كان يصلي الليل أجمع، ويجتهد في العبادة، ولو قيل له: إن القيامة تقوم غدًا، ما كان فيه مزيد من الاجتهاد.

قال أخوه: كان أخي يصوم يومًا ويفطر يومًا، ثم سـرد الصوم، وكان شديد الحال؛ يتعشى الخبز والزيت(٥).

قال حمّاد بن سـلمة: ما أتينا سـليمان التيمي في ساعةٍ يطاعُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فيها إلا وجدناه مطيعًا، إن كان في ساعةِ صلاةٍ وجدناه مصليًّا، وإن لم تكن ساعةُ صلاةٍ وجدنـاه إمّا متوضئًا، أو عائدًا مريضًا، أو مشـيِّعًا لجنازة، أو قاعدًا في المسـجد، قال: فكنا نرى أنه لا يحسنُ يعصي الله عَزَّ وَجَلَّ(٦).

---

(١) «تذكرة الحفّاظ» (٣/ ١١٤١)، «سير أعلام النبلاء» (١٨/ ٢٨١).
(٢) «تذكرة الحفّاظ» (٤/ ١٣٣١).
(٣) «شذرات الذهب» (٤/ ٣٧).
(٤) «روضة المحبين» (١/ ٧٠).
(٥) «تذكرة الحفّاظ» (١/ ١٩١)، «تاريخ بغداد» (٢/ ٣٠١).
(٦) «حلية الأولياء» (٣/ ٢٨).

وقال معتمر بن سليمان التيمي لمحمد بن عبد الأعلى: لولا أنك من أهلي ما حدّثتك عن أبي بهذا، مكث أبي أربعين سنة يصوم يومًا ويفطر يومًا، ويصلّي الصبح بوضوء العشاء وربما أحدث الوضوء من غير نوم[١].

قال يحيى بن المغيرة: زعم جرير أن سليمان التيمي لم تمرّ ساعة قط إلّا تصدّق بشيء فإن لم يكن شيء صلى ركعتين[٢].

قال عبد الرحمن بن أحمد بن بقي بن مخلد: كان جدِّي قسَّم أيَّامه على أعمال البرِّ، وكان إذا صلى الصبحَ قرأ حزبَه من القرآن في المصحف؛ سدسَ القرآن، وكان أيضًا يختم القرآن في الصلاة في كل يومٍ وليلةٍ، ويخرج كل ليلة في الثلث الأخير إلى المسجد، ويختمُ قرب انصداعِ الفجر، وكان يصلي بعد حزبه من المصحف صلاةً طويلةً جدًّا ثم ينقلب إلى دارِه وقد اجتمع في مسجده الطلبةُ، فيجددُ الوضوءَ ويخرج إليهم، فإذا انقضت الدول صار إلى صومعة المسجد فيصلي إلى الظهر، ثم يكون هو المبتدئ بالأذان، ثم يهبط ثم يسمع إلى العصر ويصلي ويسمع، وربما خرج بقيةَ النهارِ فيقعدُ بين القبورِ يبكي ويعتَبر، فإذا غربت الشمسُ أتى مسجده ثم يصلي ويرجع إلى بيته فيفطر، وكان يسردُ الصومَ إلى يوم الجمعةِ، ويخرج إلى المسجد، فيخرج إليه جيرانُه فيتكلم معهم في دينهم ودنياهم، ثم يصلي العشاءَ ويدخل بيته فيحدث أهلَه، ثم ينامُ نومةً قد أخذتها نفسه ثم يقوم، هذا دأبه[٣] إلى أن توفي[٤].

أبو العباس أحمد بن أبي غالب المعروف بابن الطلاية - بركة المسلمين - قال عنه السمعاني: شيخٌ كبيرٌ أفنى عُمُرَه في العبادةِ والقيامِ والصيامِ، لعله ما

(١) «حلية الأولياء» (٣/ ٢٨).
(٢) السابق.
(٣) دأبه: عادته.
(٤) «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٢٩٥).

صرف ساعة من عمره إلا في عبادةٍ، وانحنى حتى لا يتبين قيامه من ركوعه إلا بيسير[١].

قال أبو المظفر ابن الجوزي: سمعت مشايخ الحربية يحكون عن آبائهم وأجدادهم أن السلطان مسعودًا لمّا أتى بغداد، وكان يحب زيارة العلماء والصالحين، فالتمس حضور ابن الطلاية، فقال للرسول: أنا في هذا المسجدِ أنتظرُ داعيَ الله في النهار خمس مرَّات، فذهب الرسولُ، فقال السلطان: أنا أولى بالمشي إليه، فزاره، فرآه يصلي الضُّحى، وكان يطولها يصليها بثمانية أجزاء، فصلى معه بعضها، فقال له الخادم: السلطان قائم على رأسك، فقال أين مسعود؟، قال: ها أنا، قال: يا مسعودُ اعدلْ وادع لي، الله أكبر ثم دخل في الصلاة، فبكى السلطان، وكتب ورقة بخطه بإزالة المكوس[٢] والضرائب، وتاب توبةً صادقةً[٣].

***

(١) «السير» (٢٠/ ٢٦١).

(٢) المكوس: الأموال التي تؤخذ من الناس ظلمًا.

(٣) «السير» (٢٠/ ٢٦٢)،«تاريخ الإسلام» (٣٧/ ٢٩٥٠).

فصل
في تفسير قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا جواب القسم، والمراد به الكافر؛ قاله ابن عباس في رواية أبي صالح، وروى الضحاك عنه قال: يريدُ جماعةً من المشركين؛ الوليدَ بنَ المغيرةِ، والعاصَ ابنَ وائلٍ، والأسودَ بنَ عبدِ المطلبِ بنِ أسدِ بنِ عبدِ العزى، والأسودَ بنَ يغوثَ، وقيلَ: معنى الإنسان جنس الإنسان» اهـ[1].

والأخير هو الصواب، وظاهر الآيات يدل عليه؛ فكل إنسان له نصيبه من الخسر على قدر تقصيره وتفريطه في سبل النجاة منه، و(ال) لاستغراق الجنس.

قال الإمام ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾، يقول: إن ابن آدم لفي هلكةٍ ونقصانٍ»[2].

قال الشيخ أبو بكر الجزائري في «أيسر التفاسير»: «تضمَّنت هذه الآيات حكمًا ومحكومًا عليه ومحكومًا به، فالحكم هو ما حكم به تعالى على الإنسانِ؛ كلِّ الإنسانِ، من النقصانِ والخسرانِ، والمحكومُ عليه هو الإنسانُ؛ ابنُ آدم، والمحكوم به هو الخسر لمن لم يؤمنْ ويعملْ صالحًا، والربحُ والنجاةُ من الخسران لمن آمنوا وعملوا الصالحاتِ وتواصوا بالحقِّ وتواصوا بالصبرِ»[3].

قوله تعالى: ﴿لَفِى خُسْرٍ﴾

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿لَفِى خُسْرٍ﴾ لفي غُبْنٍ[4]، قال الأخفش: هلكة، الفراء:

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٨/ ٧٤٦٥).
(٢) «تفسير الطبري» (١٢/ ٦٨٤).
(٣) «أيسر التفاسير» (٢/ ١٥٣٣)، ط. مكتبة لينة ـ دمنهور.
(٤) الغبن: الخداع، وهو ضعف الرأي أيضًا.

عقوبة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾[الطلاق: ٩]، وابن زيد: لفي شر، وقيل: لفي نقصٍ، والمعنى متقارب» اهـ [١]، فالخسر هو الهلكة والنقصان.

حقيقة هامة، وقضية مهمة:

حقيقةٌ مؤكَّدةٌ، أكد عليها ربُّنا ﷻ بالقسم، وباللام، وبـإن، وهذه الحقيقةُ هي أن الإنسانَ عامةً في خسرٍ، **إلا قومًا لهم شروطٌ مخصوصةٌ:**

هذه الشروطُ هي:

- الإيمان.

- والعمل الصالح.

- والتواصي بالحقِّ.

- والتواصي بالصبرِ. وسيأتي بيانها بإذن الله ﷻ.

أمَّا القضية المهمَّةُ، فهي من أهمِّ القضايا التي ينبغي أن يُنْتَبهَ إليها، وهي: **أن الحـقَّ لا يعرفُ بكثرةِ المتبعين له، بل العكس هو الغالب**، ولذلك قال الله ﷻ: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقـال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[يوسف: ١٠٣].

فإنه يؤتى يومَ القيامة بالنبيِّ ومعه الرهط [٢]، والنبي ومعه الرجلُ والرجلان، والنبي ليس معه أحدٌ، فاللبيبُ هو الذي يتمسك بالحقِّ وإن كان وحدَه، وإن لم يجد رفيقًا فيكفيه أن يترسـم خطى من سـار على طريقه من الأنبياءِ والصديقين والشـهداءِ والمقربيـن والصالحيـن، فعليـك بالحـق ولا تسـتوحش مـن قلة السالكين، وجانب الباطلَ ولا تغترَّ بكثرة الهالكين.

الخسر يشمل الدور الثلاثة:

١ - دار الدنيا.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٨/ ٧٤٦٥).

(٢) الرهط: الجماعة من ثلاثة إلى عشرة.

٢- البرزخ.

٣- الدار الآخرة.

وعلى قدرِ تحقيقِ شروطِ النجاةِ من الخسرِ التي بينتها هذه السورةُ العظيمةُ على قدرِ بُعدِ الإنسانِ من الخسرِ، وعلى قدرِ تفريطِه في هذه الشروطِ والصفاتِ على قدر نصيبه من الخسر.

أولاً: الخسر في الدنيا: للخسرِ في الدنيا صورٌ كثيرةٌ؛ منها:

١- خسرانُ الأنسِ بالله ﷻ:

أعظمُ خسرانٍ في الدنيا هو خسرانُ جنَّةِ الدنيا؛ وهي الأنس به - سبحانه - بمعرفة أسمائِه وصفاتِه وتوجهِ القلبِ إليه وحدَه، فإن القلوبَ مفطورة على حبِّ الله ﷻ، والتوجهِ إليه، والتعلقِ به، والتوكل عليه، واللجوءِ إليه، فإذا ضَلَّتْ هذا الطريقَ تَعِسَتْ أعظمَ تعاسةٍ، وشقيتْ أَشدَّ شقاءٍ، وذاقتْ ألوانَ الألمِ، قال تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ** ﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦].

٢، ٣- نسيانُ العبدِ نفسَهُ، ونسيانُ الله له جزاءً وفاقًا:

ومن **أعظمِ الخسرانِ**: نسيانُ العبدِ نفسَه، وإهمالُه لها، وإضاعةُ حظِّها ونصيبِها من العبوديةِ التي من أجلِها خلقتْ، وبيعِها ذلكَ بالغُبنِ والهوانِ وأبخسِ الأثمانِ، فيضيِّع من لا غنى له عنه، ولا عوضَ له عنه؛ وهو الله ﷻ، ويستبدلُ به الخسرانَ.

مِنْ كُلِّ شَيءٍ إِذَا ضَيَّعْتَه عِوَضٌ ... وَمَا مِنَ اللهِ إِنْ ضَيَّعْتَهُ عِوَضُ

فالله ﷻ يعوض كل ما سواه، ولا يعوض عنه شيء، ويغني عن كلِّ شيءٍ ولا يغني عنه شيءٌ، ويجيرُ من كلِّ شيءٍ، ولا يجيرُ منه شيءٌ، ويمنعُ من كلِّ

شيءٍ، ولا يمنعُ منه شيءٌ[(١)].

فمن فَقَدَ اللَه، فماذا وجد؟! ومن وَجَدَ اللَه، فماذا فقد؟!

ومن أعظمِ الخسرانِ نسيانُ الله ﷻ له جزاءً وفاقًا، قال الله تعالى: ﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة: ٦٧]، وقال: ﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر: ١٩].

وحشةٌ في القلبِ تُنَغِّصُ عليه لذاتِ الدنيا:

وَمن الخسرِ: هذه الوحشةُ التي يجدُها المعرضُ في قلبِه بينه وبين الله ﷻ لا توازنُها ولا تقارنُها لذةٌ أصلًا، ولو اجتمعت له لذاتُ الدنيا بأسرِها لم تف بتلك الوحشة، وشكي إلى بعضهم وحشة يجدها العبد في نفسه، فقال:

إِذَا كُنتَ قَدْ أَوحَشَتكَ الذُّنُوبُ فَدَعْهَا إِذَا شِئتَ واسْتَأنِسِ[(٢)]

٥- تعاسةُ القلوبِ وشقاوتُها:

ومن أعظمِ الخسرانِ: أن تُصْرَفُ القلوبُ عن صحتِها واستقامتِها إلى مرضِها وانحرافِها.

قال ابن القيم رحمه الله **في «الداء والدواء»**: «وقد أجمع السائرون إلى الله أن القلوبَ لا تعطى مناها حتى تصل إلى مولاها، ولا تصل إلى مولاها حتى تكون صحيحةً سليمةً، ولا تكون صحيحةً سليمةً حتى ينقلبَ داؤُها فيصيرَ نفسَ دوائِها، ولا يصحُّ لها ذلك إلا بمخالفة هواها، فهواها مرضُها، وشفاؤُها مخالفتُه، فإذا استحكم المرضُ قتل أو كاد، وكما أن من نهى نفسَه عن الهوى كانت الجنةُ مأواها، فكذا يكون قلبُه في هذه الدار في جنة عاجلة لا يشبه نعيم أهلها نعيمًا البتةَ، بل التفاوتُ الذي بين النعيمين كالتفاوت الذي بين نعيم الدنيا والآخرةِ، وهذا أمر لا يصدق به إلا من باشرَه قلبُه، ولا تحسب أن قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار: ١٣ - ١٤]، مقصور

---

(١) «الداء والدواء» (٨١)، بتصرف.

(٢) «الداء والدواء» (٨٦)، بتصرف.

على نعيم الآخرة وجحيمها فقط، بل في دورهم الثلاثة هم كذلك، أعني دارَ الدنيا ودارَ البرزخ ودارَ الآخرة، فهؤلاء في نعيم، وهؤلاءِ في جحيم، وهل النعيمُ إلا نعيمُ القلبِ، وهل العذابُ إلا عذابُ القلبِ، وأيُّ عذابٍ أشدُّ من الخوفِ والهمِّ، والحزنِ، وضيقِ الصدرِ، وإعراضه عن الله والدار الآخرةِ، وتعلقه بغيرِ الله، وانقطاعِه عن الله بكل وادٍ منه شعبةٌ، وكل من تعلق به وأحبَّه من دون الله فإنه يسومُه سوءَ العذابِ، فكل من أحب شيئًا غيرَ الله عُذِّبَ به ثلاثَ مراتٍ في هذه الدارِ، فهو يُعَذَّبُ به قبلَ حصولِه حتى يحصُلَ، فإذا حَصَلَ عُذِّبَ به حال حصولِه بالخوف من سلبِه وفواته والتنغيص والتنكيد عليه وأنواع العذاب في هذه المعارضات، فإذا سُلِبَ اشتد عليه عذابُه، فهذه ثلاثةُ أنواعٍ من العذابِ في هذه الدارِ، وأما في البرزخِ فعذابٌ يقارنُه ألمُ الفراقِ الذي لا يرجو عودَه، وألمُ فوَاتِ ما فاته من النعيمِ العظيمِ باشتغالِه بضدِّه، وألم الحجاب عن الله، وألمُ الحسرةِ التي تقَطِّعُ الأكبادَ، فالهمُّ والغمُّ والحسرةُ والحزنُ تعمل في نفوسِهم نظيرَ ما تعملُ الهوامُّ والديدانُ في أبدانهم، بل عملُها في النفوسِ دائمٌ مستمرٌ حتى يردَّها اللهُ إلى أجسادِها، فحينئذ ينتقل العذابُ إلى نوعٍ هو أدهى وأمرُّ، فأين هذا من نعيمٍ من يرقصُ قلبُه طربًا وفرحًا وأنسًا بربِّه واشتياقًا إليه، وارتياحًا بحبِّه، وطمأنينة بذكرِه، حتى يقولَ بعضُهم في حال نزعه: واطرباه.

ويقول الآخر: مساكين أهلُ الدنيا؛ خرجوا منها وما ذاقوا لذيذَ العيش فيها، وما ذاقوا أطيبَ ما فيها.

ويقول الآخر: إن كان أهل الجنة في مثل هذا الحال إنهم لفي عيشٍ طيب.

ويقول الآخر: لو علم الملوكُ وأبناءُ الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف (١).

(١) «حلية الأولياء» (٧/ ٣٧١)، وهو من قول إبراهيم بن أدهم.

ويقول الآخر: إن في الدنيا جنة؛ من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

فيـا من باع حظَّهُ الغالي بأبخس الأثمـانِ، وغُبِنَ كلَّ الغُبْنِ في العقدِ وهو لا يرى أنه قد غبن، إذا لم يكن لكَ خِبْرَةٌ بقيمة السلعةِ فسل المُقَوِّمين، فيا عجبًا من بضاعة معك، الله يشتريها، وثمنُها جنةُ المأوى، والسفيرُ الذي جرى على يديه عقدُ التبايع، وضمِنَ الثمن عن المشتري هو الرسولُ ﷺ وقد بِعْتها بغايةِ الهوان، كما قال القائل:

إِذَا كَانَ هـذا فِعلُ عَبدٍ بنَفسِه ... فَمَنْ ذَا لَهُ مِنْ بَعدِ ذَلكَ يُكْرِمُ

يقول تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج:١٨] اهـ»(١).

٦- ظلمةُ القلوبِ وقسوتُها، وما يترتبُ على ذلك من صُوَرِ الخسرانِ:

ومن الخسرِ: ظلمةُ القلوبِ وقسوتُها وموتُها، فإن حياةَ القلوبِ بطاعةِ الله وبذكره، وقسوتُها وموتُها بالغفلةِ عن ذلك وبالمعصيةِ، قال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

قال ابن القيم في «الداء والدواء»: «قال الحسن: هو الذنبُ على الذنبِ حتى يعمى القلب، وقال غيره: لما كثرت ذنوبُهم ومعاصيهم أحاطتْ بقلوبِهم، وأصل هذا أن القلبَ يصدأُ من المعصيةِ، فإن زادت غلب الصدأُ حتى يصيرَ رانًا، ثم يغلب حتى يصير طبعًا وقُفْلًا وختمًا، فيصير القلب في غشاوة وغلافٍ، فإذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتكس فصار أعلاهُ أسفَله، فحينئذٍ يتولَّاه عدوُّه ويسوقُه حيث أراد»(٢).

ومصداق ذلكِ قولُ النبي ﷺ: «**تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَعَرْضِ الْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّمَا قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّمَا قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَتْ**

(١) «الداء والدواء» (٨٧، ٨٨).

(٢) «الداء والدواء» (٦٩).

فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَعُودَ الْقُلُوبُ عَلَى قَلْبَيْنِ: قَلْبٍ أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا لَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَقَلْبٍ أَسْوَدَ مِرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»(١).

أرأيتَ صانعَ الحصيرِ كيفَ يعرضُ الأعوادَ عودًا بعد عودٍ على الخيوطِ حتى يتمَّ الحصيرُ الذي تراه، هكذا الفتنُ تُعرض على القلوبِ فتنةً فتنةً.

فإذا عُرِضَتْ على القلبِ فتنةٌ فتذكرَ اطِّلاعَ العظيمِ عليه، وتذكرَ نظَرَه إليه، وذكر حشرَه وسوقَه ووقوفَه وعرضَه عليه، فأنكرها؛ نكتت في قلبه نكتةٌ بيضاءُ، وما أجملَها من نكتةٍ، وما أنفعَها وما أنصعَها من نكتةٍ!

ثم فتنةٌ أخرى ونكتةٌ أخرى بيضاءُ حتى يصيرَ القلبُ مثلَ الصفا؛ مثلَ الحجرِ الأملسِ الأبيضِ الشديدِ البياضِ، لا يقفُ عليه غبارٌ ولا وسخٌ، وإن حدث وكانت غفلةٌ وأصيب ببعض الغبارِ جاءت دموعُ التوبةِ والخوفِ من الله فغسلته، وجاءت نسماتُ الإيمانِ فجففته وطيبته فعاد أنصعَ ما كان، وأطهرَ، لا تضرُّه فتنةٌ ما دامت السماواتُ والأرضُ، إيمانٌ كالجبالِ، تزولُ الجبالُ الراسياتُ ولا يزولُ، حتى يقولَ: ماذا يصنعُ أعدائي بي؛ سجني خلوةٌ، ونفيي سياحةٌ، وقتلي شهادةٌ، وحتى يقولَ: إن اللهَ ابتعثنا لنخرجَ العبادَ من عبادةِ العبادِ إلى عبادةِ ربِّ العبادِ، ومن جورِ الأديانِ إلى عدلِ الإسلامِ، ومن ضيقِ الدنيا إلى سَعَةِ الدنيا والآخرةِ.

أما القلبُ الآخر - نعوذ بالله منه، إذا عُرِضَتْ عليه فتنةٌ نَسِيَ اطلاعَ العظيمِ عليه، ونَسِيَ نظرَ الجبارِ إليه، ونَسِيَ حشرَهُ وسوقَهُ وعرضَهُ عليه، فأُشْرِبَهَا، فتنكت نكتةٌ سوداءُ في قلبِهِ، وما أقبحها من نكتةٍ! وما أضرَّها!، ثم فتنةٌ أخرى ونكتةٌ أخرى سوداءُ، أخرى وأخرى، حتى يصيرَ القلبُ أسودَ مربادًّا(٢) شديدَ

(١) رواه مسلم (١٤٤).

(٢) في صحيح مسلم (١٤٤): قال أبو خالد: فقلت لسعد: يا أبا مالك، ما أسود مربادًّا؟ قال: شدة بياض =

السـوادِ كالكوزِ مجخيًـا، كالكوز المقلـوب لا يعرفُ معروفًـا ولا ينكرُ منكرًا إلا ما أُشْـرِبَ من هواه، فـإذا حدث للقلب ذلك وجد الشـيطانُ فيه بغيتَه، ففيه يسـكنُ وبه يلعبُ حيث شـاء ومتى شاء، فالشـياطين تحب الظلامَ، ومعلوم أن كلَّ إنسانٍ له أشياءُ يحبُّها وأشياءُ يبغضُها، له أشياءُ يقبلُها وأشياءُ يرفضُها، فلابدَّ له من ميزانٍ يزنُ به الأمورَ، فعلى أساسـه يقبلُ وعلى أساسِـه يرفضُ، فالمؤمنُ ميزانُه الشـرعُ فعلى أساسِـه يحبُّ وعلى أساسِـهِ يكرَهُ، على أساسِه يقبلُ وعلى أساسِه يرفضُ.

فهو دائمًا مُوَفَّقٌ؛ يحبُّ ما يحبُّه الشـرعُ ويسـعدُ بِهِ، ويكرَهُ ما يكرهُهُ الشرعُ ويبأسُ إذا وقع فيه ولا ينعمُ إلّا بمفارقتِه.

أما هذا القلب، فقد تربَّع الشيطانُ عليه وأضلَّه عن ميزانِ الشرعِ، بل وطمسَ ميزانَ الفطرةِ، فعلى أي أساسٍ يقبلُ ويرفضُ ويحبُّ ويكرَهُ، لابدَّ له من ميزانٍ، فإذا بالشـيطانِ يدلُّهُ على ميزانِ الهلاكِ، يدلُّهُ على ميزانِ الخسارِ والبوارِ؛ ميزانِ الهـوى، ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وهنا قال النبي ﷺ: «**وَقَلْبٌ أَسْـوَدَ مِرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا، لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلاَ يُنْكِـرُ مُنْكَـرًا إِلَا مَـا أُشْـرِبَ مِنْ هَـوَاهُ**»، فإذا به يكرهُ السـنةَ، بـل ويحارِبُها ويحاربُ أهلَها، ويحبُّ البدعةَ ويدعو إليها، وإذا به يكرَهُ العفَّةَ ويحاربُ أهلَها، ويحبُّ الخلاعةَ والفجورَ والمجونَ، وفي الجملة يصيرُ المعروفُ عندَه منكرًا، والمنكرُ عندَه معروفًا وهذا من أعظمِ الخسرانِ، وإذا به يستصغرُ المعصيةَ، هذا إن أحسَّ بالمعصيةِ أصلًا.

وفي صحيح البخاري عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنكم لتعملون اليومَ أعمالًا هي أدقُّ في

= في سواد، قلت: فما الكوز مجخيًا؟ قال: منكوسًا.

أعيُنِكُم من الشَّعْرِ، وإن كنا لنعدُّها على عهدِ رسولِ الله ﷺ من الموبقاتِ[١].

وفي صحيح البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: إن المؤمنَ يرى ذنوبه كأنها في أصل جبلٍ يخافُ أن يقعَ عليه، وإن الفاجرَ يرى ذنوبَه كذبابٍ وقعَ على أنفِه فقال به هكذا فطار[٢].

وهذا أيضًا من أعظمِ الخسرانِ، قال عز وجل: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡ﴾ [الحشر: ١٩]، فينسى نفسَه؛ ولذلكَ يقولُ يوم لا ينفعُه قولُه ويكونُ عليه حسرةً: ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤]؛ لأنه خسِرَ رأسَ مالِه؛ الصحةَ والفراغَ، «**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ؛ الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ**»[٣].

٧- البعدُ عن ملائِكِ الرحمنِ والوقوعُ في أسرِ الشيطانِ:

ويتلو ذلك خسرانٌ عظيمٌ، وهو البعدُ عن ملائكِ الرحمنِ والوقوعُ في أسرِ الشيطانِ.

قال ابن القيم رحمه الله **في «الداء والدواء»**: «قال بعضُ السلفِ: إذا أصبحَ العبدُ ابتدرَه الملكُ والشيطانُ، فإذا ذكر اللهَ وكبَّرَهُ وحَمِدَهُ وهلَّلَهُ طرد الملكُ الشيطانَ وتولاه، وإن افتتح بغير ذلك ذهب الملكُ عنه وتولَّاه الشيطانُ، ولا يزالُ الملكُ يقرُبُ من العبدِ حتى يصيرَ الحكمُ والطاعةُ والغلبةُ له، فتتولاه الملائكةُ في حياتِه وعندَ موتِه وعند بعثِه، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]، وإذا تولاه الملكُ تولَّاه أنصحُ الخلقِ وأنفعُهم وأبرُّهُمْ، فثبَّتَهُ وعلَّمَهُ وقوَّى جنانه وأيَّدَه، قال تعالى: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الأنفال: ١٢].

---

(١) رواه البخاري (٦٤٩٢)، وفيه: قال أبو عبد الله: يعني بذلك المهلكات.

(٢) رواه البخاري (٦٣٠٨)، فقال: أي ففعل، فالقول يطلق أحيانًا على الفعل.

(٣) صحيح: سبق تخريجه.

فيقول له الملكُ عندِ الموتِ: لا تخفْ ولا تحزنْ وأبشرْ بالذي يسرُّك، ويثبِّتُه بالقولِ الثابتِ أحوجَ ما يكونُ إليه؛ في الحياةِ الدنيا، وعندَ الموتِ، وفي القبرِ عندَ المسألةِ، فليس أحدٌ أنفعُ للعبدِ من صحبةِ الملكِ له، وهو وليُّه في يقظتِه ومنامِه، وعندَ موتِه، وفي قبره، ومؤنِسُه في وحشتِه، وصاحِبُه في خلوَتِه، ومحدِّثُه في سِرِّه، يحاربُ عنه عدُوَّهُ، ويدافعُ عنه، ويعينُه عليه، ويَعِدُه بالخيرِ، ويبشِّرُه به، ويحثُّه على التصديقِ بالحقِ، كما في الأثرِ الذي يُرْوَى مرفوعًا وموقوفًا: «**إن للملكِ بقلبِ ابنِ آدمَ لمَّةٌ**(١)**، وللشيطان لمَّةٌ، فلَمَّةُ الملكِ إيعادٌ بالخيرِ وتصديقٌ بالوعدِ، ولمَّةُ الشيطانِ إيعادٌ بالشرِّ وتكذيبٌ بالحقِّ**»(٢).

إلى أن قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «كما اختصمَ بين يدي النبي ﷺ رجلان، فجعل أحدُهُما يسبُّ الآخرَ وهو ساكتٌ، فتكلمَ بكلمةٍ يردُّ على صاحبِهِ، فقامَ النبيُّ ﷺ، فقال: يا رسولَ الله، لما رددتُ عليه بعضَ قولِهِ قمتَ، فقالَ: «**كَانَ المَلَكُ يُنَافِحُ**(٣) **عَنْكَ، فَلَمَّا رَدَدْتَ عَلَيْهِ جَاءَ الشَّيْطَانُ، فَلَمْ أَكُنْ لِأَجْلِسَ**»(٤) اهـ(٥).

فمن الخسرانِ: أن تخسرَ هذا التأييدَ وتستبدلَ به أسرَ الشيطانِ وسجنَ شهواتِهِ، فإن المُعْرِضَ دائمًا في أسرِ الشيطانِ وسجنِ شهواتِهِ وقيودِ هواه، فهو أسيرٌ مسجونٌ مقيدٌ، ولا أسيرَ أسوأُ حالًا من أسيرٍ أَسَرَهُ أعدى عدوٍّ له، ولا سجنَ أضيقُ من سجنِ الهوى، ولا قيدَ أعظمُ من قيدِ الشهوةِ، فهل يُتَخَيلُ بمقاييسِ الدنيا خسرانٌ أعظمُ من ذلك.

---

(١) المراد ما يقع في القلب من إلهام أو وسوسة.

(٢) الترمذي (٢٩٨٨)، وضعفه الألباني في [«ضعيف الجامع» (١٩٦٣)].

(٣) ينافح: أي يخاصم بالمدافعة، والمنافح: المدافع، تقول: نافحت عن فلان: أي دافعت عنه، «فتح الباري» (١٠/ ٥٤٧).

(٤) رواه أحمد (٢/ ٤٣٦)، وقال الألباني في [«الصحيحة» (٢٢٣١)]: إسناده جيد.

(٥) «الداء والدواء» (١٢١، ١٢٢)، بتصرف.

٨- الهوان على الله والذِّلَّة والصَّغار:

ومن الخسر: الهوانُ على الله والذلةُ والصغارُ والحقارةُ والسُّفْلُ، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [الحج: ١٨].

قال الله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر: ١٠]، أي: فليطلبْها بطاعةِ الله ﷻ فإنهُ لا يجدُها إلا في طاعتِهِ.

وكان من دعاءِ بعضِ السلفِ: اللهمَّ أعزَّني بطاعَتِكَ، ولا تذِلَّني بمعصِيَتِكَ.

قال الحسن: إنهم وإن طقطقت بهم البغالُ، وهملجت بهم البرازين، فإنَّ ذُلَّ المعصية لا يفارقُ وُجُوهَهُم، أبى الله إلا أن يذلَّ من عصاه[1].

قال الله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٩-١٠].

والمعنى: قد أفلح من نماها وأعلاها بطاعة الله وأظهرها، وقد خسر من أخفاها وحقرها وصغرها بمعصية الله ﷻ، وأصل التدسية الإخفاء، ومنه قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ﴾ [النحل: ٥٩]، فالمعرض يدُسُّ نفسه في المعصية ويُخْفِي مكانَها، قد انقمع عند نفسِه، وانقمع عند الله، وانقمع عند الخلقِ[2].

وفي المسند من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا: «**وَجُعِلَ الذُّلُّ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي**»[3]، فكلما عمل العبدُ معصيةً نزل إلى أسفلَ درجةً، ولا يزال في نزولٍ حتى يكونَ من الأسفلين، وكلما عمل طاعةً ارتفع بها درجةً، ولا

---

(١) «روضة المحبين» (١٠٢)، «البداية والنهاية» (٩/ ٢٧٣).

(٢) «الداء والدواء» (٨٩).

(٣) رواه أحمد (٢/ ٥٠)، وعبد بن حميد (٨٤٤) عن ابن عمر، وصححه الألباني في [«صحيح الجامع» (٢٨٣١)].

يزال في ارتفاع حتى يكون من الأعلين[١].

٩- ومن الخسر: حرمانُ العلمِ، وعَمَى البصيرةِ:

لما جلس الإمامُ الشافعي بين يدي الإمام مالك، وقرأ عليه، أعجب مما رأى من وُفورِ فِطْنَتِهِ، وتوقُّدِ ذكائِه، وكمال فهمه، فقال: «إني أرى الله ﷻ قد ألقى على قلبك نورًا، فلا تطفئه بظلمة المعصية»[٢]، فإن المعاصي تُعْمِي بصيرةَ القلبِ، وتَطْمِسُ نورَه، ولا يزال هذا النورُ يضعف ويضمحل، وظلام المعصية يقوى حتى يصيرَ القلبُ في مثلِ الليلِ البهيمِ، فكم من مهلك يسقط فيه ولا يبصر، كأعمى خرج بالليلِ في طريق ذاتِ مهالكَ ومعاطبَ، فلا يبصر أصلًا ما ينفعه في الدنيا، ولا في الآخرة، فهل هناك خسران أعظم من ذلك؟!

١٠- ومن الخسر: حرمان الرزق:

قال ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ»[٣]، فالمعاصي تزيلُ النعم وتُحِلُّ النِّقَمَ.

قال علي رضي الله عنه: «ما نزل بلاءٌ إلا بذنب، وما رفع إلا بتوبة»[٤]، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٥٣].

١١- ومن الخسر: ضياعُ العُمُرِ، ومَحْقُ بركتِه:

فالحياةُ الحقيقيةُ حياةُ القلبِ، وعُمُر الإنسان مدةُ حياتِه، فليس عُمُرَه إلا

(١) «الداء والدواء» (٩٧).

(٢) «تهذيب الأسماء والصفات» (١/ ٦٩)، «إعلام الموقعين» (٤/ ٢٥٨).

(٣) أخرجه أحمد في المسند، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع».

(٤) «تاريخ دمشق» (٢٦/ ٣٥٨)، من قول العباس بن عبد المطلب.

أوقاتُ حياتِه بالله وتلك ساعاتُ عمره، فالبرُّ والتقوى والطاعةُ تزيدُ في الأوقاتِ التي هي حقيقةُ عمره ولا عمر له سواها، فإذا وُفِّقَ العبدُ لذلك فهو الموَفَّقُ، وإن حُرِمَهُ فهو المحرومُ، فالحياةُ حياةُ القلبِ، والموت موت القلب، ولذلك سَمَّى الله ﷻ الكافر ميتًا، قال تعالى: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ [النحل: ٢١].

وبالجملة: فالعبد إذا أعرض عن الله واشتغل بالمعاصي ضاعت عليه أيامُ حياتِه الحقيقية التي يجد غِبَّ(١) إضاعتها يوم يقول: ﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ [الفجر: ٢٤]؛ وذلك لما ضَيَّعَهُ من الحياة الحقيقية التي لا تكون إلا بإقباله على ربِّه، والتَّنَعُّم بحبه وذكره، وإيثار مرضاته(٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ «وقد تقدَّم أن عمر العبد هو مدةُ حياتِهِ، ولا حياةَ لمن أعرض عن الله واشتغل بغيره، بل حياة البهائم خيرٌ من حياته؛ فإن حياة الإنسان بحياة قلبه وروحه، ولا حياةَ لقلبه إلا بمعرفة فاطره، ومحبته، وعبادته وحدَه، والإنابة إليه، والطمأنينة بذكره والأنسُ بقربه، وَمَنْ فَقَدَ هذه الحياة فَقَدَ الخيرَ كلَّه، لو تعوض عنها بما تعوض مما في الدنيا، بل ليست الدنيا بأجمَعِها عوضًا عن هذه الحياةِ، فمِنْ كلِّ شيءٍ يفوتُ العبدَ عوضٌ، وإذا فاته اللهُ لم يعوضْ عنه شيء البتة»(٣).

١٢- تعسير الأمور:

من صور الخسر: تعسيرُ الأمورِ وصعوبتُها، فبدلًا من أن يأخذ أمورَه بيسرٍ وسهولةٍ، يجد العبد أن كلَّ شيء في حياته شاقٌّ عليه يحتاج إلى تعب شديد وعنتٍ(٤) لتحصيله، بخلاف الذي قال الله ﷻ عنه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ

---

(١) غبُّ الأمر: عاقبته. «لسان العرب» (مادة: غ ب ب).

(٢) «الداء والدواء» (٦٤)، بتصرف.

(٣) «الداء والدواء» (٩٥، ٩٦).

(٤) عنت: مشقة.

أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٤].

فالتقيُّ يأخذ أمورَه بيسرٍ في شعوره وتقديره، وإن ظنها الناس كوارث، وينال أموره بيسر في حركتِه وعملِه، فلا يشقُّ عليه مهما عظمت صورتها، ويرضاها بيسر في حصيلتها ونتيجتها، ويعيشُ جميع حياته بيسرٍ حتى يلقى الله ﷻ، فيُيَسَّرُ لليسرى.

أما الآخرُ؛ فيأخذ جميعَ أمورِه بعسرٍ ومَشَقَّة في شعورِه وتقديره وحركته وعمله، وكلِّ أحواله، يتحقق فيه قولُ الله ﷻ: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٤].

١٣- ومن الخسر كذلك؛ جُرْأَةُ المخلوقات والأعداءِ عليه:

فتَجْتَرِئُ عليه الشياطينُ بالأذى والإغواءِ والوسوسةِ والتخويف والتحزين، وإنسائه[١] ما مصلحتُه في ذكرِه، ومَضَرَّتُه في نسيانه، بل وتؤزه[٢] إلى هلاكه أزًّا، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم: ٨٣]، بل ويَجْتَرِئُ عليه أهلُه، وخدمُه، وجيرانُه، حتى دابَّتُه. قال بعض السلف: إني لأعصي الله فأعرف ذلك في خلق امرأتي ودابتي».

بل وتجترئ عليه نفسُه، فتَسْتَأْسِدُ عليه وتستصعب عليه، فلو أرادها لخير لم تطاوعْه، ولم تَنْقَدْ له، وتسوقه إلى ما فيه هلاكُه شاء أم أبى؛ لأنَّ الطاعةَ حِصْنُ الربِّ الذي من دخله كان من الآمنين، فإذا فارق الحصنَ اجترأ عليه كلُّ ذلك[٣].

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ، خَمْسُ خِصَالٍ أَعُوذُ بِالله أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: مَا ظَهَرَتِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ حَتَّى أَعْلَنُوا**

---

(١) إنسائه: تأخيره.

(٢) تؤزه: تهيجه.

(٣) «الداء والدواء» (١٠١) بتصرف.

بِهَا إِلَّا ابْتُلُوا بِالطَّوَاعِينِ وَالْأَوْجَاعِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ فِي أَسْلَافِهِمْ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَا نَقَصَ قَوْمٌ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا ابْتُلُوا بِالسِّنِينَ(١) وَشِدَّةِ الْمُؤْنَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ، وَمَا مَنَعَ قَوْمٌ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنْ السَّمَاءِ؛ وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا، وَلَا نَقَضَ قَوْمٌ الْعَهْدَ إِلَّا سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ يَعْمَلْ أَئِمَّتُهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ عز وجل فِي كِتَابِهِ إِلَّا جَعَلَ اللهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ»(٢).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا: «إِذَا ضَنَّ النَّاسُ بِالدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ، وَتَبَايَعُوا بِالْعِينَةِ، وَتَبِعُوا أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَتَرَكُوا الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ؛ أَنْزَلَ اللهُ بِهِمْ بَلَاءً لَا يَرْفَعُهُ حَتَّى يُرَاجِعُوا دِينَهُمْ»(٣). وقال بُخْتَنَصَّرُ لدانيال: من الذي سلَّطَني على قومِك؟ قال: عِظَمُ خطيئَتِكَ، وظلمُ قومي أنفسَهُم.

١٤- ومن الخسر؛ التّعرّض لغضب الله وانتقامه في الدنيا:

وما حدث للأُمَمِ السابقةِ خيرُ شاهدٍ على ذلك، فها هو إبليس؛ قد خسر لـذَّةَ العُبُودِيَّةِ وحلاوةَ القُرْبِ والمناجاة، وطُرِدَ وأُبْعِدَ، وصار ملعونًا، قال الله تعالى: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٤، ٣٥].

وهؤلاء قومُ نوحٍ؛ تَفَجَّرَتْ الأرضُ من تحت أقدامهم، وانهمرت السيول من فوقهم، ليلتقِيَ الماءُ على أمر قد قُدِرَ، قال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١٠-١٢].

وما حدث لعادٍ وثمودَ وفرعونَ والقرونِ من بعد نوح من الهلاكِ

---

(١) السنون: الجدب والقحط.

(٢) ابن ماجه، وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

(٣) أبو داود، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

والدمارِ بطرقٍ شتَّى إنما كان بسببِ إعراضِهم، قال ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦-١٤]، وليس ذلك من الظالمين ببعيد، قال الله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]، وفي الحديث: «**إِنَّ اللَّه يُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ**»(١).

١٥-الخسران الأعظم: الخذلانُ عند الموتِ ـ نسأل الله العافية ـ:

«لما كان هذا المعرضُ في حال حضور ذهنِه وقوتِه وكمالِ إدراكِه قد تمكَّنَ منه الشيطانُ، واستعمله فيما يريده من معاصي الله، وقد أغفلَ قلبَه عن ذكرِ الله، وعطَّلَ لسانَه عن ذكرِه، وجوارحه عن طاعته، فكيف الظنُّ به عند سقوطِ قواه، واشتغالِ قلبِه ونفسِه بما فيه من ألم النَّزْعِ، وجمع الشيطانِ كلَّ قوتِه وهمتِه، وحشدِه عليه بجميع ما يقدر عليه لينالَ منه فُرْصَتَه؛ فإن ذلك آخرُ العملِ، فأقوى ما يكون عليه الشيطانُ ذلك الوقتَ، وأضعفُ ما يكونُ في تلك الحالِ، فمن يا ترى يَسْلَمُ في هذا الموقف»(٢).

وهل يسوغُ لعاقلٍ أن يَأْمَنَ على نفسِه الخُسْرَ في هذه اللحظاتِ، وقد قطع خوفُ الخاتمةِ ظهورَ المتقين، وأَقَضَّ(٣) مضاجعهم.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال حدثنا رسول الله ﷺ، وهو الصادقُ المصدوقُ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ**

---

(١) رواه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣)، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.
(٢) «الداء والدواء» (١٠٤).
(٣) أقضَّ على فلان مضجعه: أي لم يطمئن في نومه.

الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، فَوَالَّذِي لا إِلَهَ غَيْرُهُ، إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا»(١). ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لحذيفة رضي الله عنه: «أبالله سمَّاني لك رسولُ الله ﷺ؟» يعني في المنافقين(٢).

وقال علي رضي الله عنه: «والله لقد رأيتُ أصحاب رسول الله ﷺ، وما أرى اليومَ شيئًا يشبِهُهُم، لقد كانوا يُصْبِحُون شُعْثًا غبرًا بين أَعْيُنِهِم أمثالَ رُكَبِ المِعْزَى(٣)، وقد باتُوا لله سجدًا وقيامًا، يتلون كتابَ الله، يُرَاوِحُونَ بينَ جباهِهِم وأقدامِهِم، فإذا أصبحوا ذكروا الله عز وجل مادوا كما يميدُ الشجر في يوم الريح، وهَمَلت أعينهم حتى تَبُلَّ ثيابَهُم، والله لكأنَّ القومَ باتوا غافلين»(٤).

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لابنه وهو في آخر لحظاته: «ضع خدي على الأرض لا أمَّ لك، ويلي وويل أمِّي إن لم يرحمني ربي».

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه وهو يجودُ بنفسه: «ألا رجل يعمل لمثل مصرعي هذا، ألا رجلٌ يعملُ لمثل يومي هذا، ألا رجلٌ يعملُ لمثل ساعتي هذه»، ثم قُبِضَ، رحمه الله ورضي عنه.

فالمُوَفَّقُ من ثَبَّتَه الله في هذه اللحظات، قال عز وجل: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).
(٢) مسند الربيع (٩٢٩).
(٣) المعزى؛ اسم جمع، والماعز: ذوات الشعر من الغنم.
(٤) «حلية الأولياء» (١/ ٧٦).

في هذه اللحظات التي إما أن يُبَشَّـرَ العبدُ فيها برضوان الله؛ فيحبَّ لقاءَ الله؛ فيحبَّ اللُّه لقاءَه، وإما أن يُبَشَّرَ فيها بسخطِ الله؛ فيكرَهَ لقاءَ الله؛ فيكرَهَ اللُّه لقاءه، المُوَفَّقُ فيها من يُخْتَمُ له بالشـهادتين، ويُبَشَّـرُ برضوانِ الله، والخاسر من يعجز عن النطق بهذه الكلمةِ، ويَلْهَجُ بذكر ما شغله عن ذكر الله.

فهذا رجل يُقَالُ له: قل لا إله إلا الله، فيقولُ:شاه رخ [1] غلبتك؛ ثم مات.

وآخر يقال له: قل لا إله إلا الله، فيقول: لا أستطيعُ أن أقولَها.

وآخر يقال له: قل لا إله إلا الله، فيقول: كلما أردت أن أقولَها لساني يُمْسَكُ عنها.

وأحدُ التجار قيل له: قل لا إله إلا الله فقال: هذه القِطْعةُ رخيصةٌ، وهذا مشترٍ جيد، هذا كذا، هذا كذا؛ حتى مات. فأيُّ خسرانٍ أعظمُ من هذا الخسران؟!

ثانيًا: الخسر في البرزخ:

ثم ينتقل بعد ذلك إلى خسـرانٍ أعظمَ؛ وهو خسرانُ نعيمِ البرزخِ والمصيرُ إلى عذابِه فإن القبرَ إما روضةٌ من رياض الجنة وإما حفرةٌ من حفر النيران.

وفي المسند من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولمَّا [2] يُلْحَدْ، فجلس رسول الله ﷺ وجلسـنا حوْلَه كأنما على رؤوسِـنَا الطيرُ، فجعل يرفع بصرَه وينظر إلى السـماءِ ويخفضُ بصرَهُ وينظرُ إلى الأرضِ، ثم قال: «**أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ**»، قالها مرارًا.

ثـم قال: «**إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي إِقْبَالٍ مِـنْ الْآخِرَةِ، وَانْقِطَاعٍ مِنْ الدُّنْيَا جَـاءَهُ مَلَكٌ فَجَلَسَ عِنْدَ رَأْسِـهِ، فَيَقُـولُ: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْـسُ الطَّيِّبَةُ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ اللهِ وَرِضْوَانٍ، فَتَخْرُجُ نَفْسُـهُ تَسِـيلُ كَمَا يَسِـيلُ قَطْرُ الشِّـتَاءِ، وَتَنْزِلُ مَلَائِكَةٌ**

(١) هذه تقال في لعب الشطرنج، فكأن هذا الرجل شغلته هذه اللعبة في حياته.

(٢) لمّا: مثل لم في النفي، غير أن فيها معنى توقع حدوث.

مِـنْ الجَنَّـةِ، بِيـضُ الْوُجُـوهِ كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ الشَّـمْسُ، مَعَهُـمْ أَكْفَانٌ مِـنْ أَكْفَانِ الجَنَّـةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِهَا، فَيَجْلِسُـونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، فَـإِذَا قَبَضَهَا المَلَكُ لَمْ يَدَعُوهَـا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، فَذَلِـكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١].

فَتَخْرُجُ نَفْسُـهُ كَأَطْيَبِ رِيحٍ وُجِـدَتْ، فَتَعْرُجُ بِهَا المَلَائِكَـةُ، فَلَا يَأْتُونَ عَلَى جُنْدٍ فِيمَا بَيْنَ السَّـمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذِهِ الرُّوحُ؟ فَيُقَالُ: فُلَانٌ؛ بِأَحْسَـنِ أَسْـمَائِهِ، حَتَّى يَنْتَهُوا إِلَى أَبْوَابِ السَّـمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُفْتَحُ لَهُ وَيُشَـيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَـا حَتَّـى يَنْتَهِـي إِلَى السَّـمَاءِ السَّـابِعَةِ، فَيُقَالُ: اكْتُبُـوا كِتَابَهُ فِـي عِلِّيِّينَ، ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ١٩-٢١].

فَيُكْتَبُ كِتَابُهُ فِي عِلِّيِّينَ، ثُمَّ يُقَالُ: رُدُّوهُ إِلَى الْأَرْضِ؛ فَإِنِّي وَعَدْتُّهُمْ أَنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى، قَالَ: فَيُرَدُّ إِلَى الْأَرْضِ، وَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ شَدِيدَا الْانْتِهَارِ، فَيَنْتَهِرَانِهِ وَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِيَ اللهُ، وَدِينِيَ الْإِسْلَامُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ ﷺ، فَيَقُولَانِ: فَمَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَيَقُولَانِ: وَمَا يُدْرِيكَ؟ فَيَقُولُ: جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّنَا فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ».

قال: «وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وَيُنَادِي مُنَادٍ مِنْ السَّـمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي؛ فَأَفْرِشُـوهُ مِنْ الجَنَّةِ وَأَلْبِسُـوهُ مِنْ الجَنَّـةِ وَأَرُوهُ مَنْزِلَهُ فِيهَا، وَيُفْسَـحُ لَهُ مَدَّ بَصَرِهِ، وَيُمَثَّـلُ عَمَلُهُ لَهُ فِي صُورَةِ رَجُلٍ حَسَـنِ الْوَجْهِ طَيِّبِ الرَّائِحَةِ حَسَـنِ الثِّيَابِ، فَيَقُولُ: أَبْشِـرْ بِمَا أَعَدَّ اللهُ لَكَ، أَبْشِرْ بِرِضْـوَانٍ مِـنْ اللهِ وَجَنَّاتٍ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ، فَيَقُولُ: بَشَّـرَكَ اللّـه بِخَيْرٍ، مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ الَّذِي جَاءَ بِالخَيْرِ، فَيَقُولُ: هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ أَوْ الْأَمْرُ

الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُكَ إِلَّا كُنْتَ سَرِيعًا فِي طَاعَةِ اللهِ بَطِيئًا عَنْ مَعْصِيَةِ اللهِ، فَجَزَاكَ اللهُ خَيْرًا، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَقِمِ السَّاعَةَ؛ كَيْ أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي.

فَإِنْ كَانَ فَاجِرًا، وَكَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ جَاءَ مَلَكٌ فَجَلَسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، وَقَالَ: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، أَبْشِرِي بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ، فَتَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمْ مُسُوحٌ [1] مِنَ النَّارِ، فَإِذَا قَبَضَهَا الْمَلَكُ قَامُوا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، قَالَ: فَتَفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَسْتَخْرِجُهَا تَقَطَّعُ مِنْهَا الْعُرُوقُ وَالْعَصَبُ كَالسَّفُّودِ [2] الْكَثِيرِ الشُّعَبِ فِي الصُّوفِ الْمُبْتَلِّ، فَتُؤْخَذُ مِنَ الْمَلَكِ فَتَخْرُجُ كَأَنْتَنِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَلَا تَمُرُّ عَلَى جُنْدٍ فِيمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذِهِ الرُّوحُ الْخَبِيثَةُ؟ فَيَقُولُونَ: هَذَا فُلَانٌ؛ بِأَسْوَإِ أَسْمَائِهِ، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهِ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا فَلَا يُفْتَحُ لَهُمْ، فَيَقُولُ: رُدُّوهُ إِلَى الْأَرْضِ؛ فَإِنِّي وَعَدْتُهُمْ أَنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى، فَيُرْمَى بِهِ مِنَ السَّمَاءِ، قَالَ: وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]»

قال: «فَيُعَادُ إِلَى الْأَرْضِ، وَتُعَادُ فِيهِ رُوحُهُ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ شَدِيدَا الانْتِهَارِ، فَيَنْتَهِرَانِهِ وَيُجْلِسَانِهِ وَيَقُولَانِ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ: فَمَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَلَا يَهْتَدِي لِاسْمِهِ، فَيُقَالُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ ذَلِكَ». قال: «فَيُقَالُ: لَا دَرَيْتَ، فَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ أَضْلَاعُهُ، وَيُمَثَّلُ لَهُ عَمَلُهُ فِي صُورَةِ رَجُلٍ قَبِيحِ الْوَجْهِ مُنْتِنِ الرِّيحِ قَبِيحِ الثِّيَابِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِعَذَابِ اللهِ وَسَخَطِهِ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الَّذِي جَاءَ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُكَ إِلَّا كُنْتَ

---

(١) مسوح: جمع مسح؛ وأصله الثوب من الشعر.

(٢) السفود: حديدة ذات شعب معوجة، يشوى بها اللحم.

بَطِيئًا عَنْ طَاعَةِ اللهِ سَرِيعًا إِلَى مَعْصِيَةِ اللهِ»[١].

ثالثًا: الخسر في الآخرة:

ومن الخسرانِ في الآخرةِ: معاناةُ أهوالِ القيامةِ، ثـمَّ المصيرُ إلى النارِ، والعياذ بالله.

-في هـذا اليـوم الذي تدنو فيه الشـمسُ مـن رؤوسِ الخلـقِ، وتكون منهم كمقدار ميل.

عن المقداد رضي الله عنه قال: سـمعت رسـول الله ﷺ يقول: «**تُدْنَى الشَّـمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَـةِ مِنْ الخَلْقِ حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ**»، قال سـليم بن عامر -الراوي عـن المقـداد: فوالله مـا أدري ما يعني بالميـل: أمسـافةَ الأرضِ أم الميلَ الذي تُكْتَحَلُ به العينُ؟ قال: قال: «**فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حِقْوَيهِ**[٢]، **وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلجَامًا**» وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**يَعْرَقُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَذْهَبَ عَرَقُهُمْ فِي الْأَرْضِ سَبْعِينَ ذِرَاعًا، وَيُلْجِمُهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ آذَانَهُمْ**»[٤].

-في هذا اليوم: يكونُ من خسـرانِ العاصي أن يخسـرَ ظلَّ الله يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه، ويفوزَ بالظلِّ من عملَ له.

-في هذا اليوم الذي تذهلُ فيه المرضعةُ عمَّا أرضعت، وتضعُ كلُّ ذاتِ حمل حملَها، وترى الناسَ سـكارى وما هم بسـكارى ولكنَّ عذابَ الله شـديد؛ **في هذا اليوم** يخسـرُ المعرضُ الأمنَ الذي يُعْطَاهُ المؤمنـون، كلٌّ على قدرِ إيمانه، قال

---

(١) أخرجـه أبـو داود (٣٢١٢، ٤٧٥٣)، وأحمـد (٤/ ٢٨٧، ٢٩٥)، وصححـه الألبـاني في [«أحـكام الجنائز» (١٠٨)].

(٢) الحقو: وسط الإنسان.

(٣) مسلم (٢٨٦٤).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٦٥٣٢)، ومسلم (٢٨٦٣)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]؛ فيصيب المعرض من الهلع والخوفِ والحزنِ ما اللهُ به عليمٌ.

- وفي هذا اليوم الذي تتطاير فيه الصُّحُفُ، فمن أخذ كتابه بيمينه؛ فهو الفائز، ومن أخذ كتابه بشماله؛ فهو الخاسر.

- في هذا اليوم الذي تسود فيه وجوه، وتبيض وجوه، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، فيالخسران من اسْوَدَّ وجهُه في هذا اليوم!

- في هـذا اليوم الذي يقوم فيه الناس لـربِّ العالمين، فيكلم أحدَهم ليس بينه وبينه ترجمان، فيالَسعادة من قدَّم لهذا اللقاءِ، وخاف هذا المقامَ، ويالخسران من نسي!

عـن ابن عمـر رضي الله عنهما، أن رسـول الله ﷺ، قال: «يَقُومُ النَّاسُ لِـرَبِّ الْعَالِمِينَ حَتَّى يَغِيبَ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ» (١)، والرشح هو العرق.

عـن عدي بن حاتم رضي الله عنه، قال: قال رسـول الله ﷺ: «مَا مِنْكُـمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَـيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ، وَلَو بِشِقِّ تَمْرَةٍ» (٢).

- في هـذا اليـوم الـذي تُوزَنُ فيـه الأعمالُ، فيالَسـعادةِ مـن ثَقُلَـتْ موازينُه، ويالَخسران وندامة من خفَّت موازينُه!

قـال تعالـى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٩٣٨)، ومسلم (٢٨٦٢)، عن ابن عمر رضي الله عنهما.
(٢) رواه البخاري (١٤١٧)، ومسلم (١٠١٦)، عن عدي بن حاتم رضي الله عنه.

حَامِيَةُۢ ﴾ [القارعة: ١ - ١١].

- **في هذا اليوم** الذي يجيءُ فيه الربُّ - جل وعلا - فيَكْشِفُ عن ساقِه، فيُدْعَوْنَ إلى السجودِ، فيالَفوز من سجدَ، ويالَخسران من حرم!

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌۖ وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴾ [القلم: ٤٢ - ٤٣].

- **في هذا اليوم** الذي يَرِدُ فيه المؤمنون حوضَ النبي ﷺ، فيشربونَ على ظمأٍ وبعدَها لا يظمأون، ويُذاد[١] عنه الخاسرون، بل ويقول النبي ﷺ، بعد أن يعلم أنهم بدلوا بعده: «**سُحْقًا سُحْقًا**»[٢].

- **في هذا اليوم** الذي يُضْرَبُ فيه الصراطُ على شفيرِ جهنَّمَ، ويَمُرُّ الناسُ على قدر أعمالِهم، فيالَفوز من نجا، ويا تعاسةَ من هلك!

وفي الصحيحين، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُضْرَبُ الجِسْرُ عَلَى جَهَنَّم، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَجُوزُ، وَدُعَاءُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، بِهِ كَلَالِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، مِنْهُمْ المُوبَقُ فِيهِ، وَمِنْهُمْ المُخَرْدَلُ ثُمَّ يَنْجُو**»[٣].

ثم الخسرانُ الأعظمُ خسرانُ الجنةِ ونعيمِها، ومصيرُه إلى النارِ وعذابِها.

في صحيح مسلم، عن أنس رضي الله عنه مرفوعًا: «**يُؤْتَى بِأَنْعَم أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللهِ يَا رَبِّ**»[٤]؛ حينها يدرك حقيقة الخسرانِ، فكلُّ ما من أجلِه أعرض عن الله، من شهوات وملذَّات ورغباتٍ، نَسِيَهُ بغمسةٍ واحدةٍ في

---

(١) يذاد: يطرد.
(٢) صحيح: رواه البخاري (٦٥٨٥)، ومسلم (٢٢٩١).
(٣) صحيح: البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢).
(٤) رواه مسلم (٢٨٠٧).

النار، فكيف يكون إحساسُـه بخسرانه حين يَعْلَمُ أن طعامه النارَ، وشرابُه النارَ، ولباسُـه النارَ، وفراشُـه النارَ، وغطاؤُه النـارَ، ويَصْعَدُ في النـارِ، ويَهْبِطُ في النارِ، ويستظِلُّ بالنارِ، ويتنفسُ النارَ، خالدًا مخلَّدًا في النار.

قـال تعالـى: ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [الحج: ١٩-٢٢].

وقال تعالـى: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴾ [الدخان: ٤٣-٤٨].

وقال تعالـى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴾ [الحاقة: ٢٥-٣٧].

وقـال تعالـى: ﴿ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ [محمـد: ١٥]، وقـال تعالى: ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٤١].

-ومـن أعظم ما يُشْعِرُهم بخسـرانهم: أن يَـرَوْا أصحابَ الجنـةِ، الذين كانوا يعرفونهـم في الدنيـا ويستهزءون بهـم، ويسـخرون منهـم ويضحكـون منهم، ويغمزونهـم ويلمزونهـم، يقولـون: ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾ [الأنعام: ٥٣]، يرونهـم في الجنةِ ونعيمِها، وطيرِهـا وفاكهتِها، وحورِها وملاذِّها، فيتادونهـم كما أخبر ربنا ﷻ: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا

مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف: ٥٠، ٥١]. فحينَها يعرفون قدرَ خسارتِهم، نعوذ بالله من الخسر.

ـ فهيا ـ يا أخي الكريم ـ نتعرف سويًّا على معالم سبيل النجاة من الخسر؛ لنعمل على نجاة أنفسنا والناس من حولنا من الخسر في الدور الثلاثة.

***

الباب الثاني

تربيــة النفــس

تفسير قول الله تعالى

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾

تربية النفس

تفسير قول الله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾

عن مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ إلا من آمن، ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ يقول: إلا الذين صدَّقُوا الله ووحَّدوه، وأقرُّوا له بالوحدانيةِ والطاعةِ، وعمِلُوا الصالحات وأدَّوا ما لزمهم من فرائضه، واجتنبوا ما نهاهم عنه من معاصيه» اهـ.

بَيَّنَتْ هذه الآية أوَّلَ شرطٍ من شروط النجاةِ من الخسر وهو الإيمان والعمل الصالح، وعطف العمل على الإيمان من باب عطف الخاص على العام؛ فإن العمل من الإيمان.

وأهل السنة مجمعون على أن الإيمان قولٌ وعملٌ: فالقول: قول اللسانِ والقلبِ. والعمل: عملُ القلبِ واللسانِ والجوارحِ، فعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ**»(١).

والإيمان يزيد وينقص: يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية وترك الطاعة. فاللبيبُ الذي يفطن إلى هذا فيجتهد في فعل ما يزداد به إيمانه من الطاعات، ويجتهد في البعد عما ينقص به إيمانه من المعاصي والغفلة. واللبيبُ كذلك هو الذي يجتهد في أن يجعل كلَّ لحظة من لحظاتِه عبوديةً يزيد بها إيمانه، حتى لا يكون في هذه اللحظة مغبونًا؛ فإن رأس مال العبد صحته وفراغه، كما في

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٦٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩).

الحديث: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيْهِمَا كَثِيْرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ، وَالفَرَاغُ» (١).

* * *

(١) سبق تخريجه.

وقفات مع قضية العبودية

الوقفة الأولى: تعبيدُ النَّفْسِ لِرَبِّها:

تعبيدُ النفسِ لربها وظيفةُ العمر، فمن نجح في ذلك مع نفسِه نجَحَ فيه مع غيرِه، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

فالعاقلُ هو الذي يُحَقِّقُ العبوديَّةَ في نفسِه أولًا، هذا هو الواجب الأول الذي إذا تعارض مع تعبيدِ غيرِه لربِّه قدَّمَ تعبيدَ نفسه لربه أولًا؛ فإن الله ﷻ قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ثم قال: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾، فمن حقَّقَ ذلك في نفسه تمكَّنَ من تحقيقه في أهلِه وعشيرتِه والناسِ من حوله، ومن عَجَزَ في مَيْدان نفسِه فهو في غيره أَعْجَزُ؛ لذلك كان الأمر الأول لموسى؛ أن قال له رَبُّه ﷻ: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: ١٤]، وحين طلب موسى؛ المعينَ في الدعوة وهو هارون؛ قال: ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه: ٣٣-٣٤]، وحين أرسلهما الله بعد ذلك قال: ﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾ [طه: ٤٢]، فالمُوَفَّقُ هو الذي يَسْتَصْحِبُ هذا الأمر دائمًا.

الوقفة الثانية: العبوديةُ ومعناها الشامل:

العبوديةُ لا تعني الصلاةَ، والزكاةَ، والصيامَ، والحجَّ فقط؛ **بل إنَّ العبودية تشمل جميع مناحي الحياةِ، وتشمل كلَّ اللحظاتِ والأوقاتِ.**

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العبادة: اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يُحِبُّه اللُه ويرضاهُ من الأقوالِ، والأفعالِ الظاهرةِ والباطنةِ».

والشخصيةُ التي تُحَقِّقُ هذه العبوديةَ بمعناها الشامل هي: الشخصيَّةُ التي ينبغي لكلِّ عاقلٍ أن يحرص على إيجادِها أولًا من نفسِه، وثانيًا من غيرِه، تلك

الشخصية المتكاملة من كل الجهات؛ من جهة العلمِ بدينِ الله، ومن جهة العملِ بدين الله ولدين الله ﷻ.

شخصيةٌ مستقيمةٌ عقيدةً وعملًا، تتحقق فيها جميعُ الجوانب المطلوبة: من الاعتقادِ، وأعمالِ القلوبِ، والعباداتِ، والمعاملاتِ، والأخلاقِ والآدابِ، والسلوكِ، والفهمِ الواضحِ لواقع الأمةِ وما يلزَمُ تِجَاهَهَا.

الوقفة الثالثة: بيان صور من القصور في التعامل مع قضية العبودية:

إنَّ كثيرًا من الدعواتِ التي تتصدَّى لإعادة ما اندثر من معاني الدين لا تهتمُّ من الجهة النظرية ولا من الجهةِ العملية بإيجاد هذه الشخصية التي تُحَقِّقُ العبوديَّة بمعناها الشامل، بل الأمر متروك إلى الأشخاص، فمن اجتهد في إيجاد هذه الشخصية أو إيجاد بعض معانيها في نفسه أو في غيره فعل، وإن لم يفعل فلا شيءَ عليه.

ومن الدعوات من يكون اهتمامُه بذلك قاصرًا على التنظير الذي يخالِفُهُ الواقعُ العملي، فيقول قائلهم: لابُدَّ من إيجاد الشخصية المتكاملة عِلْمًا وعملًا، عقيدةً وسلوكًا التي تحقق العبودية بمعناها الشامل. ثم من الجهة العملية يستغرقُ وقتَ الأفراد فيما لا يحقِّقَ هذا التكامل، ويُهَمَّشُ عندهم هذا الأمرَ حتى يكون حبيسَ الخُطَب والمحاضرات والندواتِ لا يرى سبيلَه إلى أرضِ الواقعِ، وهذا يُكَرِّسُ هذا الداءَ الخطيرَ الذي أصابَ الأمةَ اليوم، وهو الفصل بين العلمِ والعملِ، فينشأ أناس يُجِيدون الكلامَ والتنظير ولا يُحْسِنُون العمل، يطلبون العلم للاستكثار من المسائلِ والأخذِ والردِّ لا للعملِ، وهذا يُخَالِفُ هَدْيَ السلف؛ فإن السلف كان العلم عندهم مرادفًا للخشية، فكلُّ علم لا يزيد صاحِبَه خشيةً فليس بعلم.

قال صاحب كتاب «التربية الجادَّةِ»: «فالعلم، الذي هو من أعظمِ العبادات،

إن لم ينشأ عنه العملُ فهو شرٌّ يستعاذُ بالله منه، «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَدُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَرْبَعِ**»(١).

ووظيفة **المسلم في الحياة هي**: العملُ؛ ولذا فقد علَّمنا رسول الله ﷺ أن ندعوَ للمريض بقولنا: «**اللَّهُمَّ اشْفِ عَبْدَكَ فُلَانًا؛ يَنْكَأُ**(٢) **لَكَ عَدُوًّا، أَوْ يَمْشِي لَكَ إِلَى الصَّلَاةِ**»(٣)، وحين سأله ﷺ رجل متى الساعة ؟ قال له: «**مَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا**»(٤).

أليس في هذا تربيةٌ لأصحابه على أن يكون همُّهُم وشأنُهم متجهًا إلى العمل؟ وسيرتُه ﷺ خيرُ شاهد على ذلك؛ فقد كان العمل هو همَّه ﷺ وشأنه ودَيْدَنُه (٥)، فيدعو الأفرادَ والقبائلَ، ويَعْرِضُ نفسَه في المواسم، ويَغْشَى قومَه في المنتديات، ويرحل إلى الطائفِ، ويهاجر إلى المدينة وتكونُ فيها الغزواتُ والسرايا والبعوثُ واستقبالُ الوفود، بل إننا حين نحتاج إلى الاستدلال من سيرته ﷺ على هذا المبدأ فلابّد أن نُسطِّر كتابًا كاملًا في السيرة إذ سيرته ﷺ كلها عمل ».

ثم قال تحت عنوان: «**أهلُ العلم يدعون إلى العَمَلِ**»: «وأدرك أهل العلم هذه القضية، فكانوا يدعون إلى العمل والاهتمام بشأنه من خلال أقوالهم وقواعدهم وأصولهم التي يؤصلونها؛ فالعلم عندهم لابُدَّ أن يَتْبَعَهُ العمل؛ إذ

(١) صحيح: أخرجه بهذا اللفظ النسائي (٥٤٤٢ - أبو غدة)، والترمذي (٣٤٨٢) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعًا، وأخرج نحوه مسلم في صحيحه (٢٧٢٢)، وصححه الألباني، انظر [«صحيح سنن الترمذي» (٢٧٦٩)].

(٢) نكأ العدو: هزمه.

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (٣١٠٧) عن ابن عمرو رضي الله عنهما، والحاكم (١/ ٤٩٥)، (١/ ٣٤٤)، وصححه الألباني، انظر [«صحيح الجامع» (٤٦٦)].

(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٣٦٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩) عن أنس رضي الله عنه.

(٥) الديدن: العادة.

تتابعوا وتوارثوا أن يُوصُوا الطالب بالعمل بما علم، فعقدوا فصولًا في كتب آداب العالم والمتعلم عن العمل بالعلم، وصنف الخطيب البغدادي جزأه المشهور «**اقتضاء العلم العمل**»، وللحافظ ابن عساكر جزء في ذمِّ من لا يعمل بعلمه، وهناك رسالة متداولة وهي «**وشي الحُلل في أن اقتضاء العلم العمل**».

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «إن أَخْوَفَ ما أخافُ إذا وُقِفْتُ على الحسابِ أن يقال: قد علمتَ، فماذا عملتَ فيما علمتَ؟»[(١)]، وقال أيضًا رضي الله عنه: «إن من شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة؛ عالمٌ لا يَنْتَفِعُ بعلمِهِ»[(٢)].

وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: «اعملوا ما شئتم بعد أن تعلموا، فلن يأجُرَكم الله بالعلم حتى تعملوا»[(٣)].

وقال الحسن رحمه الله: الذي يفوقُ الناس في العلم جديرٌ بأن يفوقَهُم بالعمل.

وقال عبد الملك بن إدريس الحزيري الوزير الكاتب:

وَالعِلْمُ لَيْسَ بنَافِعٍ أربابَهُ ... ما لم يُفِدْ عملًا وحُسْنَ تَبَصُّرِ
سيانِ عندي علمُ من لَم يَسْتَفِدْ ... عملًا به، وصَلاةُ من لم يَطْهُرِ
فاعملْ بعلمك توفِ نفسَكَ وَزْنَها ... لا ترضَ بالتضييع وَزْنَ المُخْسِرِ[(٤)]

قال الخطيب البغدادي رحمه الله في جزء «**اقتضاء العلم العمل**»: «ثم إني موصيك

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ عنه ابن أبي شيبة (٧/ ١١٢، ٣٤٥٩٨)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢١٣)، وابن المبارك في الزهد (٣٩)، وبنحو هذا اللفظ أخرجه أحمد في الزهد (١٧٠-الريان)، والدارمي (١/ ٩٤، ٢٦٣)، وعبد الرزاق (١١/ ٢٥٣، ٢٠٤٦٧)، وغيرهم بأسانيد بعضها جيده.

(٢) أخرجه الدارمي (٢٦٢) وابن المبارك في الزهد (٤٠)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٢٣)، وضعفه جدًّا الألباني، انظر [«مشكاة المصابيح» (٢٦٨)].

(٣) أخرجه الدارمي (٢٦٠)، وابن المبارك في الزهد (٦٢)، ومن طريقه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ٦)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٣٦)، وأخرجه أحمد في الزهد (٢٢٨) بأسانيد منقطعة.

(٤) من كتاب: «التربية الجادة ضرورة» لمحمد بن عبد الله الدويش، ط. دار الصفوة (ص ١٥-١٧).

يا طالبَ العلم، بإخلاص النية في طلبِه، وإجهاد النفسِ على العملِ بموجبِه، فإن العلمَ شجرةٌ والعملَ ثمرةٌ، وليس يُعَدُّ عالمًا من لم يكن بعلِمه عاملًا.

وقيل: العلم والد، والعملُ مولود، والعلم مع العمل، والرواية مع الدراية، فلا تأنس بالعمل ما دمت مستوحشًا مع العلم، ولا تأنسُ بالعلمِ ما كنت مُقصِّرًا في العمـل، ولكـن اجمع بينهما وإن قـل نصيبُك منهما، وما شـيء أضعفَ من عالمٍ ترك الناسُ علمَه لفسـادِ طريقتِه، وجاهلٍ أخـذ الناسُ بجهلِه لنظرهم إلى عبادتِه.

والقليلُ من هذا مع القليلِ من هذا أنجى في العاقبة، إذا تفضلَ الله بالرحمةِ وتمَّمَ على عبده النعمةَ....

والعلـمُ يراد للعمـلِ، كما العملُ يـرادُ للنجاةِ، فإذا كان العمـلُ قاصرًا عن العلـم كان العلـم كلًّا علَـى العالـم، ونعوذ بالله مـن علمٍ عـادَ كلًّا وأورث ذُلًّا وصـار في رقبة صاحبه غـلًّا، وكما لا تنفع الأمـوال إلا بإنفاقها، كذلك لا تنفع العلوم إلا لمن عمل بها وراعى واجباتها، فلينظرْ امرؤٌ لِنفسِـه وليغتنم وقته، فإن الثـواءَ[1] قليل، والرحيلَ قريبٌ، والطريـقَ مَخُوف، والاغترار غالِبٌ، والخطرَ عظيـمٌ، والناقدَ بصيرٌ، والله تعالى بالمرصاد، وإليـه المرجعُ والمعاد، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]» ا.هـ[2].

عن أبي برزة الأسـلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسـول الله ﷺ: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ؛ عَنْ عُمُرِهِ، فِيمَا أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ، مَاذَا عَمِلَ فِيهِ؟ وَعَنْ مَالِهِ، مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ؟ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ؟ وَعَنْ جِسْمِهِ، فِيمَا أَبْلَاهُ» [3].

---

(١) الثواء: الإقامة.

(٢) انظر: «اقتضاء العلم العمل» (ص ١٨-٢٠).

(٣) صحيح: سبق تخريجه.

عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «تعلَّموا، فإذا علمتم فاعملوا» (١).

عـن أبي هريـرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «مثل علم لا يعمل به كمثـل كنز لا ينفق منه في سبيل الله» (٢).

عـن الزهـري رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «لا يُوَثَّق للنـاس عملُ عاملٍ لا يعلـم، ولا يُرضى بقولِ عالم لا يعمل» (٣).

قال سهل بن عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ: «الدنيا جهلٌ وهوانٌ إلا العلمَ، والعلمُ كلُّه حجةٌ إلا العمـلَ به، والعمـلُ كلُّه هباءٌ إلا الإخلاصَ، والإخـلاصُ على خطر عظيم حتى يُخْتَمَ به».

وقال: «العلمُ أحدُ لذَّاتِ الدنيا، فإذا عُمِلَ به صارَ للآخرة».

قال الخـواص رَحِمَهُ اللَّهُ: «ليس العلمُ بكثرةِ الرواية، إنمـا العالم من اتبعَ العِلْمَ واستَعْمَلَه واقتدى بالسُّنَنِ، وإن كان قليلَ العِلْمِ».

قال يوسـف بن الحسـين رَحِمَهُ اللَّهُ: «في الدنيا طغيانان؛ طغيـانُ العلمِ، وطغيانُ المالِ، والذي ينجيك من طغيان العلم العبادةُ، والذي ينجيك من طغيان المال الزهدُ فيه».

عـن أبي عبد الله الروزياري، قال: «من خرج إلـى العلم يريدُ العملَ بالعلمِ نفعَه قليلُ العلم».

وقال: «العلـم موقـوفٌ على العمـلِ، والعمـلُ موقوفٌ علـى الإخلاصِ، والإخلاصُ لله يُورِثُ الفهْمَ عن اللهِ عَزَّوَجَلَّ».

قـال مالك بن دينـار رَحِمَهُ اللَّهُ: «من تعلم العلمَ للعملِ كَسَـرَهُ علمُه، ومن طلبه

(١) رواه الدارمي (٣٦٦)، وابن أبي شيبة (٣٤٥٤٧).

(٢) رواه موقوفًا على أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الخطيب في «اقتضاء العلم العمل» (١٢)، ورواه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: الدارمي (٥٥٦)، وأحمد (٢/ ٤٩٩)، وحسنه الألباني في تخريج [«المشكاة» (٢٨٠)].

(٣) «الاقتضاء» (١٣).

لغير العمل زاده فخرًا».

عن ابن شوذب عن مطر، قال:«خير العلم ما نفع، وإنما يَنْفَعُ الله بالعلمِ من عَلِمَهُ ثم عَمِلَ به، ولا ينفعُ به من عَلِمَه ثم ترَكَه».

قال أبو قلابة:«يا أيوب، إذا أحدث الله لك علمًا فأحدِثْ له عبادةً، ولا تكونَنَّ إنما همُّك أن تُحَدِّثَ الناسَ به».

عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال:«هتفَ العلمُ بالعملِ، فإن أجابَه وإلَّا ارتحل».

عن فضيل رَحِمَهُ اللَّهُ، قال:«لا يزال العالمُ جاهلًا حتى يعمَلَ به، فإذا عمل به كان عالمًا».

قال عبد الله بن المعتز رَحِمَهُ اللَّهُ:«علمُ المنافقِ في قوله، وعلم المؤمنِ في عمله».

وقال لقمان لابنه:«يا بني، لا تتَعَلَّمْ ما لا تعلمُ حتى تعملَ بما تعلم».

وأنشد محمد بن أبي علي الأصبهاني لبعضهم:

اعمَلْ بعلمِكَ تَغنَمْ أيها الرجلُ ... لا ينفعُ العلمُ حتى يحسن العملُ
والعلمُ زينٌ وتقوى الله زينتُه ... والمتقون لهم في علمِهم شُغُلُ
وحجَّةُ الله يا ذا العلم بالغةٌ ... لا المكرُ ينفع فيها لا ولا الحِيَلُ
تعلمْ العلمَ واعملْ ما استَطعتَ به ... ولا يُلْهِيَنَّكَ عنه اللهو والجدلُ
وعلِّم الناسَ واقصِدْ نفعهم أبدًا ... إياكَ إياكَ أن يعتادَك المللُ
وعِظْ أخاك برِفقٍ عند زلَّته ... فالعلمُ يعطف من يعتادُه الزللُ
وإن تكن بين قوم لا خلافَ لَهَمْ ... فَأْمُرْ عليهم بمعروفٍ إذا جَهِلُوا
فإن عَصَوكَ فراجِعْهُم بلا ضَجَر ... واصبرْ وصابرْ ولا يحزُنْك ما فعلوا
فكلُّ شاة برِجْلَيْهَا مُعَلَّقَةٌ ... عليك نفسَك إن جارُوا وإن عدَلُوا[1]

- وقد حذَّر الشرعُ الحنيفُ من ترك العمل بما يعلم:

---

(١) انظر هذه الآثار في «اقتضاء العلم العمل» (٢٢-٤٦).

فعن جندب بن عبد الله رضي الله عنه، قال: قال رسـول الله ﷺ: «مَثَلُ الْعَالِمِ الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ الخَيْرَ وَيَنْسَى نَفْسَهُ كَمَثَلِ السِّرَاجِ يُضِيءُ لِلنَّاسِ وَيَحْرِقُ نَفْسَهُ» (١).

وعن أسامةَ بن زيد رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَـوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّـارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ، فَيُقَالُ: أَلَيْسَ كُنْـتَ تَأْمُرُ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنْ المُنْكَرِ؟ قَالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالمَعْرُوفِ وَلَا أَفْعَلُهُ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْ المُنْكَرِ وَآتِيهِ» (٢).

وعن ابن عيينة، قال: «العلمُ إن لم ينفَعْكَ ضرَّك».

قال الخطيب البغدادي: معنى «إن لم ينفعه» بأن يعمل به، ضرّه بكونه حجة عليه.

أنشد أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الله الصوري لنفسه:

كم أَغْـدُو إلى طلـبِ العلم ... مُجِـدًّا في جميـع ذاك حَـفِيًّا
طـالبًـا منـه كـلَّ نـوعٍ وفنٍّ ... وغـريبٍ ولسـت أعملُ شـيئًا
وإذا كان طالبُ العلم لاَ يعملُ ... بالـعلـم كـان عـبـدًا شـقيًّا
إنـمـا تـنفـعُ العـلـومُ من كانَ ... بهـا عـاَمـلًا وكـان تقـيًّـا

* * *

(١) حسن: الطبراني في الكبير (١٦٨١)، وحسنه الألباني في [«صحيح الترغيب» (١٣١)].
(٢) صحيح: البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩).

شخصيَّةُ الأمَّةُ في حاجةٍ إليها

إنَّ الأمَّةَ في حاجةٍ إلى شخصيةٍ تتعامل مع طلب العلم بطريقة السلف «العلم للعمل»، هذا هو العلم النافع الذي كان يسأل النبيُّ ﷺ ربَّه ﷻ كلَّ يوم أن يرزقه إياه: « **اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا، وَرِزْقًا وَاسِعًا، وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا** »(١).

العلم الذي يستقر في القلب فيزيده إيمانًا ويظهر على الجوارح فيزيدها امتثالًا؛ لذلك قال الله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾، فلابُدَّ للإنسان أن يَتَدَرَّجَ في سُلَّمِ العبودية، وأن يجاهد نفسه، ويصبر معها ويُصَابِرَ ويُرَابِطَ ويرتفع بها درجةً درجةً يتحرك بها إلى مرضاة الله خُطْوَةً خُطْوَةً، وهمُّه أن يُوجِدَ من نفسِه هذه الشخصيةَ المتكاملةَ عقيدةً وعبادةً ومعاملةً وأخلاقًا وأدبًا وسلوكًا.

شخصيَّةٌ تُعِيدُ للأذهان مرة أخرى سِيَرَ الصالحين من السلف والسابقين، تجعل ذلك واقعًا لا خيالًا؛ فإنه لا عِزَّ للأمَّة إلا بذلك، فيرى الناسُ أثرَ هذا الدين في النفوس والسلوك، يرى الناس كيف يصنعُ هذا الدينُ الرجالَ، يرى الناسُ الترجمةَ العمليةَ للكتابِ والسُّنَّةِ.

- **فإذا نظروا إلى هذه الشخصية مِنْ أيِّ جهة لم يستطيعوا إلا أن يقولوا: «إنَّا نراكَ من المحسنين»**. إذا تعاملوا معه أيَّ معاملةٍ، بيعًا أو شراءً أو إجارةً أو مزارعةً قالوا: «**إنا نراك من المحسنين**». إذا كانوا له أصدقاءَ أو زملاءَ قالوا: «**إنا نراك من المحسنين**»، إذا كانوا من ذوي رَحِمِه وأهلِه وعشيرتِه قالوا: «**إنا نراك من المحسنين**»، إذا لاحظوه في حزنه لم يستطيعوا إلا أن يقولوا: «**إنا نراك من المحسنين**»، إذا لاحظوه في فرحه فلن يستطيعوا إلا أن يقولوا: «**إنا نراك من**

---

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٩٢٥) عن أم سلمة رضي الله عنها، وصححه الألباني في [«صحيح ابن ماجه» (٧٥٣)].

المحسنين».

إذا لاحظوه في غضبه لن يستطيعوا إلا أن يقولوا: «إنا نراك من المحسنين».

إذا لاحظوه في رخائه لم يستطيعوا إلا أن يقولوا: «إنا نراك من المحسنين».

وذلك لأن أخلاق الدين ومعانيه سارت عنده سجايا من كثرة ما جاهد نفسه عليها، فلا يحتاجُ إلى تكَلُّفٍ لامتثالها، أصبح خلُقه الدين، فإذا رأى الناس ذلك عادوا إلى شريعة ربِّهم وإلى دينه، وعلموا أن السعادة الحقيقية والحياة الحقيقية وراحة القلوب إنما هي في امتثال أمره؛ فيغدوا إليه أفواجًا وتستيقظ هذه الأمةُ مرةً أخرى، ويرى الله ﷻ منهم ما يحبُّ؛ فَيَسْتَحِقُّوا عند ذلك أن يتنزلَ عليهم النصرُ المبينُ، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[النور: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾[الرعد: ١١].

-لكن السؤال: كيف تُوجِد من نفسك هذه الشخصية التي تَتَحقَّقُ فيها معاني العبودية؟

لكي تتعرف على ذلك تعال لنتأمل معًا هذا الحديث القدسي العظيم، حديث الولاية والمحبوبيَّة: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ

اللهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ»(١).

ثمراتُ الولاية والمحبوبيَّة:

في هذا الحديث ترغيب وترهيب، ترهيب لكل من تُسَوِّلُ له نفسُه معاداة أولياء الله ﷻ، فليعلمْ أن الله ﷻ هو الذي يدفعه ويتولَّى حَربَه، قال الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦-١٤].

أما الترغيب فهو في دخول الحصن -حصن الولاية والمحبوبية- فأهل هذا الحصن لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

- **ومما ينالهم من النعيم في هذا الحصن**: أن يتولى الله العظيم الدفاع عنهم، وحربَ من يُعَادِيهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: ٣٨]، فيدفع عنهم عدوَّهم من الإنس وعدوَّهم من الشياطين ومن أنفسهم؛ فيقيهم الشياطين وهَمَزاتِها، ويقيهم شرورَ أنفسهم فيكونَ التوفيقُ حليفَهم، وأعظمُ التوفيق أن يُوَفَّقَ إلى طاعة الله ﷻ ويُصْرَفَ عن المعصية.

ففي هذا الحديث القدسي العظيم يقول ﷻ كما أخبر النبي ﷺ: «فَإِنْ أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا»، فالعبد منا يجاهد سمعَه كثيرًا؛ ليَصْرِفَهُ عن المحرمات من

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٥٠٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

سـماع الغيبَةِ والنميمة والمسلسـلات والأغاني والكذب ويجاهدها؛ ليَشْغَلَهَا بالطاعات من سـماع القرآن والعلم، وما ينفعه في الدنيـا والآخرة؛ فينجحُ تارةً ويُخْفِـقُ تـارات، وكذلك البصر فـإن العبد يجاهده؛ ليَصْرِفَه عـن النظر إلى ما حـرم الله من النظـرِ إلى العورات في أجهـزة الإعلام، ومـا في الطرقات، ودور التعليـم، ومجـال العمل من الكاسياتِ العاريـاتِ ويجاهـدُ بصره، لِيَنْشَـغِلَ بالطاعـات من النظر في كتابِ الله، وكتبِ العلم، وما ينفعه، فينجحُ تارةً ويُخْفِقُ تارات، وكذلك يده ورجله.

فـإذا دخل هـذا الحصـن ـ حصن الولايـة ـ وارتقـى في معارجـه حتى بلغ مرتبـة المَحْبُوبِيَّةِ تَوَلَّى اللهُ ﷻ أمرَ جوارحه، وسـهَّل عليه مراقبتها؛ فيُكَرِّهُ إليها كل معصيـة، ويثقِّلهـا عليها، ويحبِّـب إليها كلَّ طاعةٍ، ويسـهِّلها عليها، فإذا بها ثقيلـة إلـى المعصية، نافرة منها، خفيفة إلى الطاعة، مسـارعة إليها، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾[الحجرات: ٧]، وممـا ينالـه مـن النعـم والمِنَـحِ في هذا الحصـن ـ حصـن الولاية والمحبوبيـة ـ ما ورد في هـذا الحديث: «وَإِنْ سَـأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ».

إنَّ أمتَنـا في حاجـة إلى هذا العبد الذي يسـأل فَيُعْطَـى، ويَسْـتَنْصِرُ فَيُنْصَرُ، وَيَسْـتَعِيذُ فَيُعَاذُ. في حاجة إلى مثل هذا العبد الأسـود الذي خرج ذات ليلة إلى المسـجد بعد أن اسْتَسْـقَى الناسُ فلم يُسْـقَوْا –وكان قد أصابهم قحطٌ شديدٌ– فقال داعيًا: «اللَّهُمَّ إِنَّ القَوْمَ قَدْ اسْتَسْقَوكَ فلم تَسْقِهِمْ، اللَّهُمَّ إِنِّي أُقْسِمُ عَلَيْكَ أَنْ تَسْقِيَهُمْ» فَلَمْ يُنْزِلْ يَدَهُ إِلَّا وَالمَاءُ يَنْهَمِرُ مِنَ السَّمَاءِ.

إنَّ أمتَنـا في حاجـة إلى مثل الـبراء بن مالك ﵁ الـذي وقف وقد كادت الجولـة أن تكون للمرتدين يوم حديقة الموت، فقال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أُقْسِـمُ عَلَيْكَ

أَنْ تَمْنَحَنَا أَكْتَافَهُمْ الْيَوْمَ»، ثم قال لأصحابه: احملوني على المنجنيق وألقوني داخل حصنهم، ففعلوا، فقاتلهم بداخله حتى فتح باب الحصن للمسلمين؛ فدخلوا وقتلوا معظم جيشهم في هذا اليوم وعلى رأسهم مسيلمة الكذاب، وسميت بحديقة الموت لكثرة من قتل فيها من المرتدين.

إنَّ أمتنا اليوم في حاجة إلى مثل محمد بن واسع الذي افتقده قائدُ الجيش يومًا فبحث عنه فوجده يصلي وهو رافع أصبعه إلى السماء يدعو، فقال: «لأصبعُ محمد بن واسع خير عندي من ألف شابٍّ مُدَجَّجٍ بالسلاح».

ـ كل عاقل يقول: كيف أدخل هذا الحصن ؟ كيف أكون من أهل الولاية والمحبوبية ؟

كيف تكون من أهل الولاية والمحبوبية؟

بيَّن هذا الحديث أن دخول هذا الحصن والترقي في درجاته، إنما يكون بفعل الفرائض، تتلوها النوافل، **وإليك بيان ذلك:**

أولًا: فعل الفرائض:

ففي الحديث: «**وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ**» فدلَّ على أن أول دخول الحصن إنما يكون بفعل الفرائض.

ولنا هنا عدة تنبيهات:

١ - **الفرائض:** هي فعلُ الواجباتِ وتركُ المحرماتِ، وهذا يَسْتَلْزِمُ أن يتعلَّمَ العبدُ ما يلزمه فعله من الواجبات، وما يلزمه تركه من المحرمات، وهو فرض العين من العلوم؛ فيجب أن يتعلم ما لا تستقيم العقيدةُ إلا به، و ما لا تستقيم العبادةُ إلا به، وما لا تستقيم المعاملةُ إلا به، وما لا تستقيم الأخلاقُ والآدابُ والسلوكُ إلا به.

٢ - **بالتَّتبُّعِ والاستقراء وُجِدَ أن الفرائضَ قليلة،** يسيرة، داخلة في استطاعة

جميع المكلفين على اختلاف أحوالِهم؛ فإن الدين يُسْرٌ، ومن يُسْرِه أن قَلَّلَ ما يُلْزَمُ به الخَلْقُ من فعل الواجباتِ وترك المحرماتِ، خاصَّةً الواجبات فإنها قليلة؛ ليتمكَّنَ الجميع من الامتثال؛ فيقطعَ بذلك عذر الكسول، وتَبْطُلَ حُجَّتُهُ.

٣- **الشِّعارُ مع الفرائض هو**: سمعنا وأطعنا، وامتثال قول الله ﷻ: ﴿**خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ**﴾ [البقرة: ٦٣]، فإذا أمر الشرع بأمر كان الجواب فورًا وبكل قوة عزمًا بالقلب وفعلًا بالجوارح: سمعنا وأطعنا، وإذا نَهَى عن شيء كان الجواب فورًا عزمًا بالقلب على الترك، وإحجامًا بالجوارح، وإعلانًا بلسان الحال: انتهينا ربنا.. انتهينا ربنا.

٤- **التنبيه الرابع**: وهو ما يدل عليه قول الله ﷻ في الحديث القدسي: «**وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ**»: أن الفرائض أحب ما يَتَقَرَّبُ العبد به إلى الله، فلابُدَّ من الانتباه إلى هذه المسألة، وهي معرفة الأهم من المهم، فنقدم الفرائض على النوافل عند التعارض ويقدم فرض العين على فرض الكفاية... وهكذا.

ثانيًا: إِتْبَاعُ الفرائض بالنَّوافل:

قوله ﷻ في الحديث القدسي: «**وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ**»، فيه: أن التَّرَقِّي في درجات حصن الولاية كائن بالنوافل بعد الفرائض.

ولنا هنا عدَّة وقفات:

الوقفة الأولى: أَنَّ التقرُّب إلى الله ﷻ لا يكون إلا بما شرع؛ فالولاية بأعلى درجاتها والمحبوبية بأكمل أحوالها إنما تنال بالفرائض تتلوها النوافل، لا بما يفعل أهل البدع من الأوراد والأعمال المبتدعة، فإنها لا تزيدهم إلا بعدًا.

الوقفة الثانية: إِنَّ النوافل كثيرةٌ مُتَنَوِّعَةٌ؛ **وذلك لسببين:**

الأول: أَنَّ النـاس متفاوِتُون في هِمَمِهِـمْ واهتماماتهم، وأحوالهم وقُدْرَاتِهِمْ والله ﷻ لا يحب أن يَحرِم أحدًا من السبق إليه سبحانه، فهذا يَسْبِقُ بكثير صيام، وهذا يسـبق بكثير صلاة، وهذا يسـبق بكثير ذكر، وهذا..وهذا..وهذا..، حتى يُدْعَـى هذا مـن باب الصـلاة، وهذا من باب الصيـام، وهذا من بـاب الجهاد، وذلك كله من فضل الله ورحمته سبحانه.

الثاني: في كثـرة النوافل هو: أن النفس كثيرٌ خُبْثُهَـا، والقلب كثيرةٌ أمراضُهُ، وكل نـوع من الطاعـات له أثره في علاج القلب وتزكية النفس، فهذه الطاعة لها مَدْخَلٌ في علاج الرياء، وهذه الطاعة لها مدخل في علاج الكِبْرِ والعُجْبِ، وهذه الطاعة لها مدخل في علاج الشُّحِّ والبخل... وهكذا.

الوقفـة الثالثة: وهي أن القليل الدائم خيرٌ من الكثير المنقطع، ونزول الماء قطرةً قطرةً يَشُقُّ الصخور بخلاف نزوله دفعة واحدة، وتَجَدُّدُ الآفاتِ والأمراضِ والغفلةِ على القلب يحتاج إلى تَجَدُّدِ الطاعاتِ.

الوقفـة الرابعة: أَنَّ النفس كالطفل ينبغي أن تُعَامَـلَ برفقٍ وحَزْمٍ، فلا يتركها لِهَواها تفعل ما شاءت، وتترك ما شاءت، بل سيكون له معها نوع مجاهدة فيمنَعُها مـن كلِّ مُحَرَّمٍ، ويُلْزِمُهَا بكل واجب بحزم وجِـدٍّ، ثم هو يُرَقِّيها في النوافل برفق ولطف، لكنها في النهاية سيكون لها من كل نوع من أنواع النوافل نصيبٌ.

تربية النفس وتزكيتها بالنوافل:

إذا تقـرَّر ما قدمناه فمـن أراد تربية النفس وتزكيتها فإنـه يُتِمُّ الفرائضَ على أكمل وجه مُسْتَطَاعٍ، فكلما أمر بأمر أعلن بلسان حاله ومقاله: «سمعنا وأطعنا». وإذا نهي عن شيء أعلن بلسان حاله ومقاله: «انتهينا ربنا، انتهينا ربنا»، ثم يَتَعَرَّفُ على أنواع النوافل، ويجعل لنفسه من كل نوع من أنواع النوافل نصيبًا ولو قليلًا، يُشَارِطُ نفسه على الالتزام به، ثم يُجَاهِدُها على المواظبة عليه لا يتركه في حال

إلا في حـال يؤجـر عليه كحال المرض والسـفر، ثم إن وجد من نفسـه نشـاطًا في يـوم زاد مـا شـاء الله أن يزيـد، لكنه إذا فتر فـلا ينزل عن الحـد الأدنى الذي شَارَطَ نفسَه عليه، وهو في ذلك مجتهد في الدعاء والاستعانة بالله أن يُقِيمَهُ على طاعتـه، وأن يُوَفِّقَهُ للإخلاص فيها، ويُجَنِّبَهُ مَوَارِدَ الهَلَكَةِ من المعاصي والرياء والعجـب بعملـه، ثم إذا حدث خلـل في ذلك أو تقصير تدارك وقـام من كَبْوَتِهِ وأفاق من غفلته، ولا ييأس من رحمة الله بل هو يحسن الظن بربه سبحانه؛ فإنه هو الرحمن الرحيم الذي من رحمته أنه من تَقَرَّبَ إليه شـبرًا تقرب إليه ذراعًا، ومن تقرب إليه ذراعًا تقرب إليه باعًا، ومن أتاه يمشـي أتاه هرولة، وهو القائل سبحانه ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

فيعلـم أنـه كُلَّما اجتهـد في الطاعة والدعاء قـارب أن يُفْتَحَ لـه، فمن أدمن الطرق يوشـك أن يُفْتَحَ له، نسـأل الله أن يهدي قلوبنا! وأن يجعلنا من أوليائه! وسـيجد العبد نفسـه مع هذه المجاهدة قد أصبح لا يكتفي بالحد الأدنى الذي شارط نفسه عليه، بل إنه من استشعاره لِلَذَّةِ الطاعة وحلاوتها أصبح يداوم على الزيادة، ولا يصل فتورُه إلى الحد الأدنى.

فإذا وجد من نفسـه ذلك زاد الحدَّ الأدنى قليلًا لكن برفق شديد، وإن طال الوقتُ في التَّدَرُّجِ، فطالما أنه على الطريق فإنه مُوَفَّقٌ بإذن الله، وقد يزيد في بعض النوافل دونَ بعضٍ، ولا يُكَلِّفُ نفسـه ما لا تسـتطيع حتى لا تَنْفِرَ منه وتسـتعصي عليـه؛ فَيَتَـدَرَّجُ معها بلطف ورفق ولـين، ولا يكون لِهِمَّتِهِ حَـدٌّ يقف عنده، بل همه أن يُنَاهِزَ الأكابر في كل ما لهم فيه سـبق؛ فلا يترك ميدانًا إلا وجاهد نفسـه فيه، **وإليك بعض الأمثلة على ذلك:**

تربية النفس بالصلاة:

الصلاة خير موضوع؛ فهي من أهمِّ صفات المؤمنين المفلحين، بدأ الله بها

صفاتهم، وختمها بها في أول سورة المؤمنون فقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون:١-٣] إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون:٩-١١]، وهي من صفات الناجين من الهلَع والمنع والجزَع، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۝٢٢ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: ١٩-٢٣].

والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]؛ لذلك لابُدَّ للعبد أن يهتم بالصلاة فرضِها ونفلِها:

فيُتِمُّ الفرائض وأركانها وواجباتها وسننها، **ثم ينظر إلى النوافل فسيجد أن منها:**

١- اثنتا عشرة ركعة في اليوم والليلة: من أدَّاها بُنِيَ له بيتٌ في الجنة [١] وهي: اثنتان قبل الصبح، وأربع قبل الظهر، واثنتان بعدها، واثنتان بعد المغرب، واثنتان بعد العشاء.

٢- صلاة الليل: ركعتين يقرأ فيهما بعشر آيات يخرج من الغافلين، ومائة يكتب من الذاكرين[٢]، ويوتر بعدهما بواحدة أو بثلاث فيكون المجموع خمسًا، أو يزيد فيكون سبعًا إلى إحدى عشرة ركعة.

٣- صلاة الضحى: ركعتين تجزئ عن ثلاثمائة وستين صدقة[٣]، وأربع يكفي بها العبد يومه، ويزيد إلى ثمان فقد جاءت بذلك السنة[٤].

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٧٢٨).

(٢) أخرجه أبو داود (١٣٩٨) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وصححه الألباني في ["صحيح أبو داود" (١٢٤٦)].

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (١٦٣٢١) عن أبي ذر رضي الله عنه.

(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٣٠٠٠، ٥٨٠٦)، ومسلم (٣٣٦) عن أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله عنها.

٤- **سنة الطُّهور** (١).

٥- **تحية المسجد** (٢).

٦- **النفل المطلق**، في غير أوقات الكراهة.

فيأخذ الإنسان لنفسه ما يُطِيقُه كل على حسب حاله، وليكن مثلًا الرواتب المؤكدة وركعتين من الضحى، وركعتين من قيام الليل، وثلاث ركعات وتر يُوَاظِبُ على ذلك ما شاء الله أن يواظب داعيًا ربه مستعينًا به متوكلًا عليه أن يُوَفِّقَهُ، وأن يُعِينَه وأن يُثَبِّتَهُ، فيظل على ذلك مجاهدًا نفسه مراقبًا لها، فإن حدث وغفل أو قَصَّرَ تدارك ذلك، فإن قَصَّرَ في الليل ففي النهار مُسْتَعْتَبٌ (٣) وإن قَصَّرَ بالنهار ففي الليل مُسْتَعْتَبٌ.

فقد كان النبي ﷺ إذا نام عن حزبه من الليل صلَّى من الضحى اثنتا عشرة ركعة، وصلى ركعتي الظهر بعد العصر لما شُغِلَ عنهما (٤)؛ فيجتهد العبد في المواظبة والتَّدَارُكِ، وكلما وجد نشاطًا في يوم زاد، وإذا فَتَرَ فلا يَقِلُّ عن هذا الحد، وسيجد من نفسه بإذن الله ﷻ - مع الدعاء وصدق اللُّجُوءِ إلى الله مع المجاهدة - نشاطًا وتلذذًا بالطاعة بحيث لا ينزل إلى هذا الحد الذي جعله لنفسه، فإن وجد من نفسه ذلك زاد ما شارط عليه نفسه من الحد الأدنى لكن لا يستعجل، وليترق في العبودية برفق ورَوِيَّةٍ.

صور من علو الهمة في الصلاة:

- **ابن عمر** رضي الله عنهما: قال طاووس: ما رأيتُ مصليًّا مثلَ ابن عمر أشدَّ استقبالًا

---

(١) صحيح: حديث عمران مولى عثمان رضي الله عنه وفيه: «**من توضأ نحو وضوئي هذا..**» إلى قوله: «**ثم قام فصلى ركعتين لا يحدث فيها نفسه إلا غفر له ما تقدم من ذنبه**»، أخرجه البخاري (١٥٩، ١٦٢)، ومسلم (٢٢٦).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٤٤٤)، ومسلم (٧١٤).

(٣) الاستعتاب: الاسترضاء، أي: فيه مجال أن يُرْضِي ربه بالتوبة والعمل الصالح.

(٤) صحيح: أخرجه البخاري (١١٧٦، ٤١١٢) عن أم سلمة رضي الله عنها، ومسلم (٨٤٣) عن أم سلمة.

للقبلة بوجهِه وكفيه وقدميه(١).

وروى نافع: أن ابن عمر رضي الله عنهما كان يحيي ما بين الظهر إلى العصر.

وعن عبد الله بن واقد: «رأيت ابن عمر يصلي فلو رأيته رأيته مقلوليًّا(٢)»(٣).

- **عامر بن عبد قيس** رضي الله عنه: راهب هذه الأمة كما قاله كعب الأحبار.

عن الحسن أن عامرًا كان يقول: من أُقْرِئُ؟ فيأتيه ناسٌ، فَيُقْرِئُهُم القرآنَ، ثم يقوم فيصلي إلى الظهر، ثم يصلي إلى العصر، ثم يُقرئ الناسَ إلى المغرب، ثم يصلي ما بين العشاءين، ثم ينصرفُ إلى منزله فيأكلُ رغيفًا وينام نومة خفيفة، ثم يقوم لصلاته، ثم يتسحَّرُ رغيفًا ويخرج(٤).

وعن أبي الحسين المجاشعي، قال: قيل لعامر بن عبد قيس: أَتُحَدِّثُ نفسَك في الصلاةِ؟ قال: أُحَدِّثُها بالوقوفِ بين يدي الله ومنصرفي(٥).

قال الذهبي في السير: قيل: كان عامر لا يزال يصلي من طلوع الشمس إلى العصر، فينصرف وقد انتفخت ساقاه، فيقول: يا أمَّارةً بالسوء، إنما خُلِقْتِ للعبادةِ(٦).

- **أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب** رضي الله عنه: عن سعيد بن المسيب: أن أبا سفيان بن الحارث كان يصلي في الصيفِ نصفَ النهار حتى تُكْرَهَ الصلاةُ، ثم يصلي من الظهر إلى العصر(٧).

- **طلق بن حبيب**: عن أيوب قال: ما رأيت أعبدَ من طلق بن حبيب.

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٢٣٥).

(٢) مقلوليًّا: المتجافي الذي يتململ ولا يستقر.

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٢٢٣-٢٣٥).

(٤) «تاريخ الإسلام» (٣/ ٢٦).

(٥) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ١٧).

(٦) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ١٨)، «تاريخ ابن عساكر» (ص ٣٤٠)، «تاريخ الإسلام» (٣/ ٢٧).

(٧) «طبقات ابن سعد» (٤/ ٣٦١)، «سير أعلام النبلاء» (١/ ٢٠٥).

قال سفيان بن عيينة: سمعت عبدَ الكريم يقول: كان طلقٌ لا يركع إذا افتتح القراءة حتى يَبْلُغَ العنكبوتَ، وكان يقول: إني أشتهي أن أقوم حتى يشتكي صُلْبِي.

قال طلق: يموتُ المسلم بين حسنتين؛ حسنةٍ قد قضاها، وحسنةٍ يَنْتَظِرُها. يعني: الصلاة[(١)].

- **منصور بن المعتمر**: قال عبد الله بن الأجلح: رأيت منصورَ بنَ المعتمر وكان من أحسن الناس قيامًا في الصلاة[(٢)].

قال الثوري: لو رأيت منصورًا يصلي لقلت: يموتُ الساعةَ.

قال أبو بكر بن عياش: لو رأيت منصور بن المعتمر وعاصمًا والربيعَ بن أبي راشد في الصلاة، وقد وضعوا لِحَاهُم على صدورِهم، عرفتَ أنهم من أبرار الصلاة[(٣)].

- **كرز بن وبرة الحارثي**: قال فضيل: كان كرز يصلي حتى تَرِمَ قدماه فيحفر الحفيرة، يعني تحت رجله.

عن ابن شبرمة: صحبت كرز بن وبرة في سفر، وكان إذا مر ببقعةٍ نظيفةٍ نزل فصلى[(٤)].

قال أبو سليمان المكتب: صحبت كرزًا إلى مكة، فكان إذا نزل أخرج ثيابه فألقاها في الرحل، ثم تنحى للصلاة، فإذا سمع رُغَاءَ الإبل أقبل، فاحتبس يومًا عن الوقت، فانبثَّ أصحابُه في طلبه، فكنت فيمن طلبه، قال: فأصبته في وَهْدَةٍ يصلي في ساعةٍ حارَّةٍ وإذا سحابةٌ تظله، فلما رآني أقبل نحوي، فقال: يا

---

(١) «حلية الأولياء» (٣/ ٦٣-٦٥)،«سير أعلام النبلاء» (٤/ ٦٠١-٦٠٣).
(٢) «الحلية» (٥/ ٤٠).
(٣) «تاريخ دمشق» (٢٥/ ٢٣٥).
(٤) «الحلية» (٢/ ٣٢٢).

أبـا سـليمان لي إليك حاجة، قلت: ومـا حاجتك يا أبا عبـد الله، قال: أحب أن تكتـم مـا رأيت، قال: قلت: ذلك لك يا أبا عبد الله، فقال: أوثق لي، فحلفت أن لا أخبر أحدًا حتى يموتَ[١] .

- سـفيان الثـوري: قال يحيى بن سـعيد القطّـان: ما رأيتُ رجـلًا أفضلَ من سـفيانَ، لو لا الحديـثُ، كان يصلي ما بين الظهر والعصر، والمغرب والعشـاء صلاةً، فإذا سمع مذاكرة الحديث ترك الصلاة وجاء[٢] .

قال وهب: رأيت سفيان في الحرم بعدَ المغربِ، صلى ثم سجد سجدة فلم يرجع حتى نودي بالعشاء[٣] .

اجتهاد السلف في قيام الليل:

عـن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قـال: دخـل النبيُّ ﷺ المسـجدَ، فـإذا حبلٌ ممـدودٌ بين السـاريتين، فقال: «**مَا هَذَا؟**»، فقالوا: هذا حبلٌ لزينبَ تَطْرُدُ عن نفسِـهَا النُّعَاسَ، فقال: «**حُلُّوهُ، لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ، فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَرْقُدْ**»[٤] .

عن عبد الله بن قيس، قال: دخلت على أمِّ المؤمنينَ عائشـة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، فقالت: يـا عبـدَ الله، لا تدعْ قيامَ الليل، فـإن النبيَّ ﷺ ما كان يَدَعُـه، وكان إذا مَرِضَ أو كَسُلَ صلى وهو قاعد[٥] .

وفي «موطـأ مالـك»، عن عبد الله بـن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قـال: كان عمرُ يصلي في الليل، حتى إذا كان من آخرِ الليل أيقظَ أهلَه وقرأ: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [طه: ١٣٢][٦] .

---

(١) «الحلية» (٥/ ٨٠).

(٢) «الحلية» (٧/ ٦٣)، «السير» (٧/ ٦٧).

(٣) «السير» (٧/ ١٨٢).

(٤) صحيح: رواه البخاري (١١٥٠)، ومسلم (٧٨٤).

(٥) صحيح: أبو داود (١٣٠٧)، وصححه الألباني في [«صحيح الترغيب والترهيب» (٦٣٢)].

(٦) رواه مالك في الموطأ (٢٥٩).

وفي صحيح البخاري ومسند أحمد، عن أبي عثمان النهدي، قال: تضيفتُ أبا هريرة سبعةَ أيام ـ أي نزلت ضيفًا عليه ـ فكان هو وزوجَتُه وخادِمُه يَقْتَسِمُون الليلَ أثلاثًا؛ الزوجةُ ثلثًا، وخادمُه ثلثًا، وأبو هريرة ثلثًا(١).

قال سفيان: بلغنا أن أمَّ الربيعِ بنِ خُثَيْمٍ كانت تنادي ابنها الربيعَ، فتقول: يا ربيعُ، ألا تنامُ؟ فيقول: يا أُمَّهْ، مَنْ جَنَّ عليه الليلُ وهو يخاف البيات حق له أن لا ينامَ(٢).

ـ عبد الرحمن بن الأسود: قال الشعبي: أهلُ بيتٍ خُلِقُوا للجنة؛ علقمةُ، والأسودُ، وعبد الرحمن(٣).

عن ابن إسحاق قال: قدم علينا عبد الرحمن بن الأسود حاجًّا، فاعتلَّت رجله فصلى على قدم حتى أصبح.

وعن الحكم أن عبدَ الرحمن بنَ الأسودِ لما احْتُضِرَ بكى، فقيل له، فقال: أسفًا على الصلاةِ والصومِ، ولم يزل يتلو حتى مات(٤).

ـ أبو إسحاق السبيعي: قال أبو الأحوص: قال لنا أبو إسحاق السبيعي: يامعشرَ الشبابِ، اغتنموا ـ يعني قوتكم وشَبابكم ـ قلَّ ما مرَّت بي ليلةٌ إلا وأقرأ فيها ألف آية، وإني لأقرأُ البقَرَةَ في ركعةٍ، وإني لأصومُ الأشهرَ الحُرُمَ وثلاثةَ أيام من كل شهر، والاثنين والخميس(٥).

قال أبو بكر: قال أبو إسحاق: ذهبت الصلاةُ مني وضَعُفْتُ، وإني لأصلِّي فما أقرأ وأنا قائم إلا بالبقرةِ وآل عمران(٦).

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٥٤٤١) وأحمد (٢/ ٣٥٣).
(٢) «حلية الأولياء» (٢/ ١١٤).
(٣) «الحلية» (٢/ ١٠٣)،«تاريخ بغداد» (١٢/ ٢٩٨)،«تاريخ دمشق» (٣٤/ ٢٣٤).
(٤) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ١١-١٢).
(٥) «مسند ابن الجعد» (١/ ٥٧٥)،«تاريخ دمشق» (٤٦/ ٢٢٦).
(٦) «السير» (٥/ ٣٩٧).

- **منصــور بن المعتمر**: قال العلاء بن ســالم العبدي: كان منصور يُصلي في ســطحِه، فلما مات قال غلامٌ لأمِّه: يا أمه، الجِذْع الذي كان في سَـطْحِ آل فلان، ليس أراه؟!

قالت: يا بُنَيَّ، ليسَ ذاك جِذْعًا، ذاك منصور قد مات[1].

عن زائدة، قال: إن منصورَ بنَ المعتمرِ صام ســتين سنة، يقوم ليلَها ويصومُ نهارَهــا، وكان يبكــي، فتقــول له أُمُّه: يا بُنَـيَّ، قتلت قتيلًا؟ فيقــول: أنا أعلم بما صنعتُ بنفســي، فإذا كانَ الصُّبْحُ كحل عينيه ودَهَنَ رأســه وفرق شفتيه، وخرج للناس[2].

- **ســليمان التيمي**: ذكر الذهبي في «**تذكرة الحفاظ**» أن ســليمان التيمي كان عنده زوجتان، كانوا يقتسمون الليل أثلاثًا.

- **الحسن بن صالح**: وهو من رجال مسلم، كان يقتسم الليل هو وأخوه وأمه أثلاثًا، فماتت أمه؛ فاقتسم الليل هو وأخوه، فمات أخوه؛ فقام الليل بنفسه[3].

كان عنــد الحســن بن صالح جاريــة، فباعهــا، فأيقظتْهم في الليــل، فقالوا: أسْــفَرْنَا -يعني طلع الفجرُ- فقالت: لا ألا تتهجدوا؟!، فقالوا: لا نقوم إلا إلى صــلاةِ الفجر، فجاءت إلى الحســن تبكــي وتقول: ردني، لقــد بعتني لأناسٍ لا يصلون إلَّا الفريضةَ، فرَدَّها.

- **محمد بن واسع**: كان إذا جَنَّ عليه الليل يقومُ ويَتَهَجَّدُ.

يقول أهله: كان حاله كحال من قتل أهل الدنيا جميعًا[4].

- **أبــو ســليمان الداراني**: يقول: والله لــو لا قيامُ الليلِ ما أحببــتُ الدنيا، والله

---

(١) «مسند ابن الجعد» (١/ ١٣٤)،«حلية الأولياء» (٥/ ٤٠).

(٢) «حلية الأولياء» (٥/ ٤١)،«تذكرة الحفاظ» (١/ ١٤٢)،«تهذيب الكمال» (٢٨/ ٥٥٤).

(٣) «تاريخ الإسلام» (١٠/ ١٣٣).

(٤) «صفة الصفوة» (٣/ ٢٦٧).

إن أهـل الليـلِ في ليلِهم ألذُّ من أهلِ اللَّهْوِ في لهوِهِم، وإنه لتَمُرُّ بالقلب سـاعاتٌ يَرْقُصُ فيها طَرَبًا بذكرِ الله، فأقول: إِن كان أهل الجنَّة في مثلِ ما أنا فيه من النَّعيمِ إِنَّهم لفي نعيمٍ عظيمٍ (١).

- تزوج رياح بن عمرو القيسي - وهو تابعيٌّ جليلٌ - امرأة يقال لها: «ذؤابة»، فلما جـاء النهار فـأراد أن يختبرها، فقامـت تعجن عجينها، فقال: أُحْضِـرُ لك أَمَةً؟ قالت: أنا تزوجت رياحًا وما تزوجت جبارًا عنيدًا.

فلمـا جاء الليل تناوم رياحٌ، فقامـت رُبُعَ الليلِ، فقالتْ: يا رياحُ، قمْ، فقال: أقـومُ، وظل نائمًا، فقامت الربع الثاني وقالت: يا رياح، قمْ، فقال: أقومُ، فمضى الربـع الثالث، فقالت: يا رياح، قـمْ، فقال: أقومُ، فدخل الربـع الرابع، فقالت: يا رياح، قد عسـكرَ المُعَسْـكِرُون، وفاز المُحْسِـنُون، يا ليت شِـعْرِي من غرني بك؟!

وكانـت إذا دخلَ الليـل في أجمل هيئة، فإذا كانت له بهـا حاجة أصابها، ثم تفرَّغا لعبادة الله.

تربية النفس بالصيام:

الصيـام لـه أثره العظيـم في تربية النفس؛ فبـه تَحْصُلُ التقـوى، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[البقـرة: ١٨٣]، عـن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبـي ﷺ قال: «**كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ الحَسَـنَةُ بِعَشْـرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: إِلَّا الصَّـوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدَعُ شَـهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِـنْ أَجْلِي، لِلْصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا، فَرْحَـةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّـهِ، وَلَخلوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ الِله مِنْ رِيحِ الِمسْكِ**» (٢) فيجتهد العبد أن يكون له نصيبُهُ من نوافل الصيام

(١) «تاريخ دمشق» (٣٤/ ١٤٦).

(٢) صحيح: أخرجه مسـلم (١١٥١) عن أبي هريرة رضي الله عنه بهذا السـياق، وهو في صحيح البخاري عن=

بعد إتمام الفرائض.

ومن نوافل الصيام:

١- ستة أيام من شوال من أتى بها بعد إتمام رمضان كان كمن صام الدهر[(١)].

٢- يوم عرفة يُكَفِّرُ سنة ماضية وسنة باقية[(٢)].

٣- يوم عاشوراء يُكَفِّرُ سنةً ماضيةً[(٣)].

٤- أكثر شعبان، فإن النبي ﷺ كان يصوم أكثره[(٤)].

٥- أكثر المُحَرَّمِ، فقد كان أكثر شهر يُحَبِّبُ النبي ﷺ في صيامه بعد رمضان[(٥)].

٦- ثلاثة أيام من كل شهر، فهي كصوم الدهر[(٦)].

٧- الاثنين والخميس؛ فإن الأعمال تعرض فيهما[(٧)].

فيأخذ الإنسان لنفسه قدرًا يُطِيقُهُ وليكن يومًا كل أسبوع لا يتركه إلا في حال يُؤْجَرُ عليه مع تركه كحال السفر والمرض، ويُدَاوِمُ على ذلك ما شاء الله أن يُدَاوِمُ، كلما وجد نشاطًا زاد، وإذا فَتَرَ لا يَقِلُّ عن هذا الحد داعيًا ربه ﷻ أن يُقِيمَهُ على طاعته، وأن يُوَفِّقَهُ إليها، وأن يُحَبِّبَهَا إليه مستشعرًا

= أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه، انظر صحيح البخاري (١٩٠٤).

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١١٦٤) عن أبي أيوب رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١١٦٢) عن أبي قتادة رضي الله عنه.

(٣) السابق.

(٤) صحيح: أخرجه البخاري (١٩٧٠) عن عائشة رضي الله عنها، مسلم (١١٥٦).

(٥) صحيح: أخرجه مسلم (١١٦٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) صحيح: أخرجه البخاري في مواضع منها (١٩٧٥)، (١٩٧٦)، (١٩٧٨)، ومسلم (١١٥٩) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٧) صحيح: أخرجه الترمذي (٧٤٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني، انظر: [«صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٢٥١)].

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، مستشعرًا: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، محسنًا الظن بربه الذي قال وهو أصدق القائلين: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، فيجاهد نفسه ويُلِحُّ على ربه في الدعاء أن يحبب إليه هذه العبادة، ومن أدمن الطَّرْقَ يوشك أن يفتح له، ويا له من فتح إذا وُفِّقَ الإنسان إليه، هنالك يَشْعُرُ بلذة الطاعة، ولا يشعر لها بِمَشَقَّةٍ، وهنالك يَسْتَشْعِرُ الشَّوقَ إلى ربه فَيَسْتَعْذِبُ الجوع والعطش لأجله، هنالك سيدخل جنة الدنيا التي من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، وهنالك لن يكون لهمته حَدٌّ إلا أفضل الصيام صيام نبي الله داود؛ كان يصوم يومًا ويفطر يومًا.

اللهم آت نفوسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها.

صور من علو الهمة في الصيام:

- عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: ما مات عمرُ حتى سردَ الصومَ[(١)].

- **عثمان** رضي الله عنه: قال أبو نعيم عنه: حظُّه من النهارِ الجودُ والصيامُ، ومن الليلِ السجودُ والقيامُ، مُبَشَّرٌ بالبلوى، ومُنَعَّمٌ بالنَّجْوى[(٢)].

- عن أنس رضي الله عنه، قال: كان أبو طلحة لا يصوم على عهدِ رسول الله ﷺ من أجلِ الغزوِ، فلما قُبِضَ النبيُّ ﷺ لَمْ أَرَهُ يفطِرُ إلا يومَ أضحى ويومَ فِطْرٍ[(٣)].

- **صوم عائشة** رضي الله عنها: عن عروةَ أن عائشةَ رضي الله عنها كانت تَسْرُدُ الصومَ.

وعن القاسمِ أنها كانت تصومُ الدَّهْرَ فلا تفطرُ إلا يوم أضحى أو يوم فطر.

قال عروة: بعث معاويةُ مرَّةً إلى عائشةَ بمائةِ ألفِ درهمٍ، فَقَسَمَتْهَا لم تَتْرُكْ منها شيئًا، فقالت بريرة: أنت صائِمةٌ، فهلا ابتعتِ لنا منها بدرهمٍ لحمًا؟ قالت:

---

(١) رواه ابن أبي شيبة (٨٩٠٧)، الصيام للفريابي (١٢١)،«صفة الصفوة» (٢٨٦).

(٢) «حلية الأولياء» (١/ ٥٥).

(٣) «تاريخ دمشق» (١٩/ ٤٢٠)،«الاستيعاب» (٢/ ٥٥٤).

لو ذَكَّرْتِيني لفعلتُ[١].

- قال ثابت رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا يسمى عابدٌ أبدًا عابدًا، وإن كانت فيه كل خصلة خير، حتى تكون فيه هاتان الخصلتان؛ الصومُ والصلاةُ؛ لأنهما من لحمِه ودمِه[٢].

- عن الشعبيِّ، قال: غُشِيَ على مسروقٍ في يوم صائفٍ، وكانت عائشة قد تَبَنَّتْهُ فَسَمَّى بِنْتَهُ عائشةً، وكان لا يعصي ابنتَه شيئًا، قال: فنزلتْ إليه، فقالت: يا أبتاه، أفطرْ واشربْ، قال: ما أردت بي يا بنيةُ؟ قالت: الرفقَ، قال: يا بنيةُ، إنما طلبتُ الرِّفْقَ لنفسي في يوم كان مقدارُه خمسين ألفَ سنة[٣]، وفي رواية: إنما طلبت الرفقَ لتعبي.

قالت له عائشةُ الصِّدِّيقةُ: «يا مسروقُ، إنك من ولدي، وإنك لمِنْ أحبِّهم إليَّ»[٤].

- قال المبارك بن فضالةَ: دخلْتُ على ثابت البُنَانِيِّ في مرضِهِ، وهو في عُلُو لَه، وكان لا يزال يُذَكِّرُ أصحابَه، فلما دخلنا عليه، قال: يا إِخْوَتَاه، لم أقدر أن أصليَ البارحةَ كما كنت أصلِّي، ولم أَقْدِرْ أن أصومَ كما كنتُ أصومُ، ولم أقدرْ أن أنزلَ إلى أصحابي فأذكرَ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ كما كنتُ أذكرُه معهم، ثم قال: اللهمَّ إذ حَبَسْتَنِي عن ثلاثٍ فلا تَدَعْنِي في الدنيا ساعةً، إذ حبستني أن أصليَ كما أريدُ وأصومَ كما أريدُ وأذكرَك كما أريدُ، فلا تَدَعْنِي في الدنيا ساعةً، فماتَ من وقتِه رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٥].

تربية النفس بالقرآن:

القرآن له أثر عظيم في تربية النفوس وتزكيتها، وفي إحياء القلوب وإذهاب قسوتها وإزالة الغشاوة عنها، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ

---

(١) «الموافقات» (١/ ١٢١)، «حسن الأسوة» (١/ ٣٣١).
(٢) «حلية الأولياء» (٢/ ٣١٩).
(٣) «تهذيب الكمال» (٢٧/ ٤٥٦)، «تاريخ بغداد» (١٣/ ٢٣٤)، «تاريخ دمشق» (٥٧/ ٤٢٧).
(٤) «تاريخ دمشق» (٥٧/ ٤٠٨).
(٥) «حلية الأولياء» (٢/ ٣٢٠)، «تاريخ الإسلام» (٨/ ٥٦)، «السير» (٥/ ٢٢٥).

لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد:١٦-١٧]، فكما أن الأرض الميتة إذا نزل عليها الماء أُحْيِيَتْ بعد موتها واهتزت وربَتْ وأنبتت من كل زوج بهيج، فكذلك القلوب إذا نزل عليها القرآنُ والذكر، فإنها تَهْتَزُّ وتحيا وتُنْبِتُ من كل زوج بهيج من الأعمال الصالحة، وتلاوة القرآن من العبادات التي لها أجر عظيم، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لا أَقُولُ: ﴿الٓمٓ﴾ حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ**»[1].

وأهل القرآن هم أهل المنازل العالية في الآخرة، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «**يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ، وَارْتَقِ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا**»[2].

وتربية النفس بالقرآن تكون بخمسة أمور:

١- قراءةُ الوِرْدِ بالتَّدَبُّرِ وحضور القلب، وإذا مَرَّ بآية تسبيح سَبَّحَ، وإذا مر بآية نعيم سأل الله من فضله، وإذا مر بآية عذاب استعاذ بالله منه، وإذا مر بآية سجدة سجد، وإذا مرت عليه آيات يجد لها في قلبه أثرًا كررها ما شاء الله أن يكررها، فإنه قد ورد عن السلف أن أحدهم مر بآية فظل يكرِّرها حتى طلع الفجر، والوِرْدُ لا يَقِلُّ عن جزء حتى يختم القرآن في كل شهر، ويزيد ما شاء الله أن يزيد كما ذكرنا في الصلاة والصيام.

٢- قراءة القرآن في الصلاة بتدبر وخشوع وحضور قلب، وإذا فُتِحَ له في آية

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٩١٠)، وصححه الألباني، انظر [«صحيح الجامع» (٦٤٦٩)].

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (١٤٦٤)، والترمذي (٢٩١٤)، وصححه الألباني، انظر [«المشكاة» (٢١٣٤)].

فكررها فلا بأس، ويجتهد أن يقرأ في الصلاة بكل ما يَحْفَظُ، ولا يقتصر على سور معينة يقرأها في كل صلاة.

٣- مطالعة التفسير من«تفسير ابن كثير»، أو«أيسر التفاسير»، أو غيره.

٤- حفظ ما استطاع من كتاب الله ﷻ؛ ليزيد رصيده من الحفظ.

٥- المراجعة لما حفظ بورد ثابت.

صور من علو الهمة في تلاوة القرآن:

- قيل لنافع: ما كان يَصْنَعُ ابنُ عمر في منزلِه؟ قال: لا تُطِيقُونَه، الوضوءُ لكل صلاةٍ والمصحفُ فيما بينهما(١).

- قال يحيى بن أيوب: حدثني بعض أصحاب وكيع الذين كانوا يَلْزَمُونَهُ، أن وكيعًا كان لا ينام حتى يقرأ جزأه من كلِّ ليلةٍ ثُلُثَ القرآن، ثم يقوم في آخر الليلِ فيقرأُ المُفَصَّلَ، ثم يجلس فيأخذ في الاستغفارِ حتى يطلعَ الفجرُ(٢).

- قال أحمد بن سلمة النيسابوري الحافظ: كان هنادٌ رَحِمَهُ اللهُ كثير البكاءِ، فرغ يومًا من القراءة لنا، فتوضأ وجاء إلى المسجدِ فصلَّى إلى الزوالِ وأنا معه بالمسجد، ثم رجع إلى منزلِهِ فتوضأ، وجاء فصلى بنا الظهر وأخذ يقرأ في المصحفِ حتى صلى المغربَ، قال: فقلتُ لبعض جيرانِه: ما أصبرَه على العِبادة! قال: هذه عبادتُه بالنهارِ منذ سبعين سنة، فكيف لو رأيت عبادته بالليلِ، وكان يقال له: راهبُ الكوفة(٣).

- أبو الحسين علي النيسابوري ابن منينة: قال عنه الحاكم، تلميذه: هو شيخُ العرب في بلدنا، ومن ورثةِ الثروةِ القديمةِ، صَحِبْتُه حضرًا وسفرًا فما رأيتُه ترك قيام الليل من نحو ثلاثين سنة، وكان يقرأ سُبُعًا كلَّ ليلةٍ، وكانت صدقاتُه دارَّةً

(١) «تاريخ دمشق» (٣١/ ١٢٨).
(٢) «تهذيب الكمال» (٣٠/ ٤٨١)،«تاريخ بغداد» (١٣/ ٥٠١)،«سير أعلام النبلاء» (٩/ ١٤٨).
(٣) «شعب الإيمان» (٣٢٣٨)، السير (١١/ ٤٦٦)،«تاريخ الإسلام» (١٨/ ٥٣١).

سـرًّا وعلانيةً، أخرج مرة عشـرةً من الغُزاةِ بآلاتهم عوضًا عن نفسِه، ورابط ﷺ مَرَّةٍ(١).

ـ قـال عمرو بن عبد الرحمـن بن محيريز: كان جدي يختِـمُ في كلِّ جمعةٍ، وربما فرشنا له فلم ينمْ عليه(٢).

تربية النفس بالذكر والدعاء، والاستغفار، والصلاة على النبي ﷺ:

الذكـر لـه دور كبيـر في تربيـة النفـس وتهذيبهـا وتزكيتهـا، بـه تَطْمَئِـنُّ القلـوب وتَسْـتَقِرُّ فيها معـاني الإيمان، قـال الله ﷻ: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وقـال ﷻ في وصـف المؤمنيـن: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

وقال ﷺ للأعرابي الذي سـأله إن شـرائع الإسلام قد كثرت عليّ، فأنبئني منها بشيء أَتَشَبَّثُ به، قال: «**لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ**»(٣). وقال ﷺ: «**لَا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللهَ ﷻ إِلَّا حَفَّتْهُمُ المَلَائِكَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ**»(٤).

والذكر من الأعمال السهلة اليسيرة التي يُحَصِّلُ العبد بها أجرًا عظيمًا، قال ﷺ: «**أَيَعْجَزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكْسِبَ فِي كُلِّ يَوْمٍ أَلْفَ حَسَنَةٍ؟**»، فسأله سائل من جلسائه: كيف يَكْسِبُ أحدُنا ألفَ حسنةٍ؟ قال: «**يُسَبِّحُ مِائَةَ تَسْبِيحَةٍ فَيُكْتَبَ لَهُ أَلْفُ حَسَنَةٍ، أَوْ يُحَطُّ عَنْهُ أَلْفُ خَطِيئَةٍ**»(٥)، وقال النبي ﷺ: «**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ**

---

(١) «تذكرة الحفاظ» (٣/ ٩٦٨).

(٢) «تاريخ الإسلام» (٦/ ٤٠٨)، «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٤٩٥).

(٣) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٣٧٥)، وابن ماجه (٣٧٩٣) عن عبد الله بن بر رضي الله عنه، وصححه الألباني في [«صحيح الترمذي» (٢٦٨٧)].

(٤) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧٠٠) عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما.

(٥) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٩٨) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ»[١].

وبالذكر تُغْفَرُ الذنوب ولو كانت مثل زبد البحر، ففي الحديث: «مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ»[٢]، والأذكار منها مطلق غير مقيد بوقت أو بحال، ومنها المقيَّد بوقت أو بحال معيَّنٍ كأذكار الصباح والمساء، وأذكارِ الطعامِ واللباسِ، وذكر الدخول والخروج للمسجد والخلاء، وما يقول إذا رأى الهلال، وما يقول إذا رأى ما يَسُرُّه أو ما يكرهه، وما الذي يفعله إذا تثاءب، وما يقال آخر المجلس، كل ذلك وغيره مما ترك لنا رسول الله ﷺ فيه سُنَّةً من الذكر، فاللبيب هو الذي يَتَتَبَّعُ أنفاسَ النبيِّ ﷺ ويكونُ له فيه أسوةٌ حسنةٌ؛ فيجتهد أن يكون من أهل هذه الأذكار، يُزِيدُ رصيدُه منها يومًا بعدَ يوم، أو أسبوعًا بعد أسبوع، ففي هذا الأسبوع يحفظ ذكرًا معينًا (يهتم أولًا بالأذكار التي تتكرر كثيرًا كأذكار الصباح مثلًا) فيحفظ هذا الذكر ويُدَاوِمُ عليه حتى يصيرَ مُحَافظًا عليه لا يتركه، ثم يُلْزِمُ نفسَه بذكر آخر يحفظه ويلتزم به فيُضِيفُه إلى رصيده وهكذا، ولا بأسَ أن يقرأ هذه الأذكار في وقت الحاجة إليها من كتاب من كتب الأذكار ككتاب «**حصن المسلم**» أو كتاب «**مختصر النصيحة**» حتى يُتِمَّ حفظَها بالطريقة التي سبق ذكرها، ويجاهد نفسه على الذكر، ويحاسب نفسه عليه حتى يكون الذكر له سَجِيَّةً[٣]، مع الإكثار من الأذكار المطلقة خاصة ما له فضائل منها، فيجتهد أن يكون له جلستا ذكر في اليوم؛ بعد الفجر وبعد العصر، فَيَسْتَقْبِلُ النهار بالذكر والليل بالذكر، حتى يكونَ من أهل هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢]، ثم يجتهد أن يكون من أهل الاستغفار والدعاء

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٦٤٠٥)، ومسلم (٢٦٩١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) السَّجِيَّة: الطبيعة.

والصلاة على النبي ﷺ، قال الله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾[الأحزاب: ٥٦]، وقال النبي ﷺ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا» (١).

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[غافر: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة:١٨٦]، وقال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ [النمل:٦٢]، وقال تعالى: ﴿ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارًا ۝١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرًا ﴾[نوح:١٠-١٢].

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه مرفوعًا: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ» (٢)، فما من لحظة تمرُّ على العبد إلا وله فيها عند الله حاجة، وأول هذه الحاجات وأعظمها: الحاجة إلى هداية قلبه إلى ربه ﷻ ودلالته عليه، ولذلك أَوْجَبَ ربُّنا أن ندْعُوَه بهذا الدعاء في اليوم أكثر من سبع عشرة مرة: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾، ويزيد اجتهاده في هذه العبادة «**عبادة الدعاء**» في أوقات الإجابة وأحوالها: كوقت السَّحَر، وبين الأذانين، وعند الإفطار، وفي السجود، وآخر ساعة من الجمعة، ويوم عرفة.

صور من علو الهمة في الذكر:

- قال محمد بن أبي عدي: أقبل علينا داودُ بنُ أبي هند، فقال: يا فتيانُ، أخبركم لعلَّ بعضكم أن ينتفعَ به، كنتُ وأنا غلام أختلف إلى السوقِ، فإذا انقلبتُ إلى البيتِ جعلت على نفسي أن أذكر الله إلى مكان كذا وكذا، فإذا

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٤٠٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، وابن ماجه (٣٨٢٨) عن النعمان بن بشير رضي الله عنه، وصححه الألباني في [«الجامع الصغير» (٣٤٠٧)].

بلغـت إلـى ذلك المـكانِ جعلت على نفسـي أن أذكـرَ اللهَ كذا وكـذا حتى آتيَ المنزلَ(١).

ـ قال هلال بن خباب: خرجنا مع سعيد بن جبيرٍ في جنازةٍ، فكان يحدثنا في الطريق ويُذَكِّرُنا حتى بلغ، فلما جلس لم يزل يحدِّثُنَا حتى قُمْنا، فرجعنا، وكان كثير الذكر لله(٢).

ـ عن خالد بن معدان، قال: كان إبراهيمُ خليل الله إذا أُتِيَ بِقِطْفٍ من العنب أكل حَبَّةً حَبَّةً وذكر الله عند كلِّ حَبَّةٍ(٣).

ـ عن عثمان التيمي قال: رأيت جريرًا وما تُضَمُّ شـفتاه من التسـبيح، قلت: هـذا حالُـك وتقـذف المحصنـاتِ، فقـال: «﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود:١١٤] وعد من الله حق»(٤).

ـ قيـل لأبي الـدرداء رضي الله عنه ـ وكان لا يَفْتُرُ عن الذكر: كم تُسَبِّحُ في كلِّ يوم؟ قال: مائة ألف إلا أن تُخْطِئَ الأصابعُ(٥).

ـ عن عكرمة: أن أبا هريرةَ رضي الله عنه كان يُسَبِّحُ كلَّ يوم اثني عشر ألفَ تسبيحة، يقول: أُسَبِّح بقدر ديتي(٦).

ـ قـال ابن جابـر: كان عميرُ بن هانئ يَضْحَكُ ثم يقول: بلغني أن أبا الدرداء قال: إني لَأَسْـتَجِمُّ ليكون أنشـطَ لـي في الحقِّ، فقلت: أراك لا تفـترُ عن الذِّكْرِ، فكم تُسَبِّحُ؟ قال: مائةَ ألفٍ إلا أن تُخْطِئ الأصابعِ(٧).

---

(١) «حلية الأولياء» (٣/ ٩٣)،«تاريخ دمشق» (١٧/ ١٢١٩).
(٢) «الحلية» (٤/ ٢٨٠)،«تهذيب الكمال» (١٠/ ٣٦٧).
(٣) «الحلية» (٥/ ٢١١)،«تهذيب الكمال» (٨/ ١٧٢).
(٤) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٩١)، «البداية والنهاية» (٩/ ٢٦٠).
(٥) «السير» (٢/ ٣٤٨)،«تاريخ الإسلام» (٣/ ٤٠٣)، «تاريخ دمشق» (٤٧/ ١٥٠).
(٦) ابن أبي شيبة (٢٦٧٣٣)، «تاريخ دمشق» (٦٧/ ٣٦٣).
(٧) «تاريخ دمشق» (٤٦/ ٥٠١)،«السير» (٥/ ٤٢١).

ـ عن الأوزاعيِّ، قال: كان حسَّانُ بنُ عطيةَ إذا صلى العصرَ يذكرُ اللَه ـ تعالى ـ في المسجِد حتَّى تغيبَ الشمسُ (١).

ـ عن جعفر بنِ محمدٍ، قال: لما قال له سفيان: لا أقوم حتى تحدثني، قال: «أما إني أحدِّثُكَ وما كثرةُ الحديث لك بخيرٍ، يا سفيانُ إذا أنعم الله عليك بنعمةٍ فأَحْبَبَتَ بقاءَها ودوامَها فأكثرْ من الحمدِ والشكرِ عليها، فإنَّ اللَه قال في كتابه: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧]، وإذا استبطأت الرزق فأكثر من الاستغفارِ، فإنَّ اللَه قال في كتابه: ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ [نوح: ١٠-١٢]. يا سفيان، إذا حزَبَك أمرٌ من السلطانِ أو غيرِه فأكثرْ من قول: لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله، فإنها مفتاحُ الفرجِ، وكنزٌ من كنوزِ الجنةِ». فعقد سفيانُ بيده، وقال: ثلاثٌ وأيُّ ثلاثٍ، قال جعفر: عَقَلَها والله أبو عبد الله، ولَيَنْفَعَنَّهُ اللهُ بها (٢).

ـ قال أحمد بن حنبل: لزمتُ هُشَيمًا أربعَ سنين أو خمسًا، ما سألته عن شيء إلا مرتين هيبةً له، وكان كثير التسبيحِ بينَ الحديث، يقول بين ذلك: لا إله إلا الله، يمدُّ بها صوتَه (٣).

ـ قال زكريا بن خلويه: كان أحمدُ بن حرب إذا جلسَ بين يدي حجَّام ليُحْفِيَ شاربَهُ يسبِّح، فيقولُ له الحجام: اسكت ساعة، فيقول: اعمل أنت عَمَلك، وربما قطع من شَفَتِه وهو لا يعلم.

ـ قال رياح القيسي: لي نَيِّفٌ (٤) وأربعون ذنبًا قد استغفرت لكل ذنب مائةَ

---

(١) «حلية الأولياء» (٦/ ٧٠)، «تهذيب الكمال» (٦/ ٣٩)، «تاريخ دمشق» (١٢/ ٤٤١).

(٢) «حلية الأولياء» (٣/ ١٩٣)، «تهذيب الكمال» (٥/ ٨٥).

(٣) «تذكرة الحفاظ» (١/ ٢٤٩)، «تاريخ بغداد» (١٤/ ٨٩)، «العلل ومعرفة الرجال» (١/ ٤٣٨).

(٤) النيف، بوزن هين: الزيادة، فكل ما زاد عن العقد، فهو نيف حتى يبلغ العقد الذي يليه، فمثلًا من ٤١-٤٩ نيف، ٥١-٥٩ نيف.. وهكذا.

ألفِ مرةً(١).

ـ وردَ أن يحيى بنَ سعيد قال في سجودٍ مرةً: اللهمَّ اغفر لخالد بن الحارثِ، ومعاذِ بن جبل، ثم قال: حدثنا شعبةُ عن معاوية بن قرة، قال أبو الدرداء: إني لأستغفرُ لسبعين من إخواني في سجودي، أسمِّيهِم بأسماءِ آبائِهِم(٢).

تربية النفس بالإنفاق في سبيل الله ﷻ:

الصدقة من القربات العظيمة التي بها يَحْدُثُ التطهير والتزكية للمال، ولصاحب المال، قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

أيها الأخ الكريمُ.. تَعَرَّفْ على الأموال التي تجب فيها الزكاة، واحرص على إخراجها في وقتها، وليكن لك نصيب من صدقة التَّطَوُّع ولو قليلًا، وحبذا لو كان كل يوم حتى يدعو لك الملك، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَا مِنْ يوم يُصْبِحُ فِيْهِ العَبْدُ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا»**(٣).

أخي الكريم.. لا تَحْقِرَنَّ من الصدقات شيئًا ولو تمرة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تمرةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، ولا يَقْبَلُ الله إلا الطيِّبَ؛ فإن الله يَقْبَلُها بِيَمِينِهِ، ثم يُرَبِّيها لِصَاحِبِهَا كَمَا يُرَبِّي أحدُكم فَلُوَّه حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ»**(٤).

الفَلُوّ: بفتح الفاء وضم اللام وتشديد الواو، وهو المُهْر.

وقد تكون هذه التمرة سببًا لنجاتك من النار، عن عدي بن حاتم رضي الله عنه أن

(١) «حلية الأولياء» (٦/ ١٩٤).

(٢) «تاريخ بغداد» (١٣/ ١٣٢)، «تهذيب الكمال» (٢٨/ ١٣٦)، «تاريخ دمشق» (١٦/ ٢٢٨)، السير (٩/ ٥٥).

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (١٤٢٤)، ومسلم (١٠١٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) صحيح: أخرجه البخاري (١٤١٠، ٧٤٣٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه ومسلم (١٠١٤).

رسول الله ﷺ قال: «**اتَّقُوا النَّارَ، وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ**»(١).

اعلم أن خير الصدقة ما وَصَلْتَ به رحمك؛ لأنها حينئذ تكون صدقة، وصلة رحم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «**دِينَارٌ فِي سَبِيلِ اللهِ، ودِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي رَقَبَةٍ، وَدِينَارٌ تَصَدَّقْت بِهِ عَلَى مِسْكِينٍ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ، أَعْظَمُهَا أَجْرًا الَّذِي أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ**»(٢).

وعن سلمان بن عامر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**الصَّدَقَةُ عَلَى الِمسْكِينِ صَدَقَةٌ، وَعَلَى ذِي الرَّحِمِ اثْنَتَانِ: صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ**»(٣).

فاحرص على قَدْرٍ ولو قليلًا، واظب عليه واحرص على زيادته، فمع العزم على الطاعة، والأخذ بالأسباب يُوَفِّقُك الله عز وجل إلى ما لا تستطيع منها، وإن لم تستطع أُجِرْتَ بالنية، نسأل الله أن يصلح أحوالنا !

صور من علو الهمة في الإنفاق في سبيل الله عز وجل:

عن أنس رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ أحسنَ الناسِ، وأَجْوَدَ الناسِ، وأشجَعَ الناسِ(٤).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان النبيُّ ﷺ أجودَ الناسِ، وأجودَ ما يكونُ في رمضان حين يلقاه جبريلُ، وكان يلقاهُ في كلِّ ليلةٍ من رمضان فيُدَارِسُه القرآنَ، فلرسولُ الله ﷺ أجودَ بالخير من الريحِ المُرْسَلَةِ(٥).

وعن جابر رضي الله عنه قال: ما سُئِلَ النبيُّ ﷺ عن شيءٍ قطُّ، فقال: لا(٦).

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٤١٧)، ومسلم (١٠١٦).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٠١٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه

(٣) صحيح: أخرجه الترمذي (٦٥٨)، وصححه الألباني، انظر [«إرواء الغليل» (٣/ ٣٨٧)].

(٤) صحيح: رواه البخاري (٢٨٢٠)، ومسلم (٢٣٠٧).

(٥) صحيح: رواه البخاري (٦)، ومسلم (٣٢٠٨).

(٦) رواه البخاري (٦٠٣٤)، ومسلم (٢٣١١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه كان النبيُّ ﷺ لا يَدَّخِرُ شيئًا لغَدٍ (١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «مَا نَفَعَنِي مَالٌ قَطُّ مَا نَفَعَنِي مَالُ أَبِي بَكْرٍ» فبكى أبو بكر وقال: هل أنا ومالي إلا لَكَ يا رسولَ الله (٢).

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أمرنا رسول الله ﷺ يومًا أن نَتَصَّدَق، فَوَافَقَ ذلكَ مالًا عندي، فقلت: اليوم أَسْبِقُ أبا بكر، إنْ سَبِقْتُهُ يومًا، فجئت بنصفِ مالي، فقال رسول الله ﷺ «مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟»، فقلت: مِثْلَهُ، قال: وأتى أبو بكر بكلِّ ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ «مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟»، قال: أبقيتُ لهم اللهَ ورسولَه، قلتُ: لا أسابِقُك إلى شيءٍ أبدًا (٣).

- جود عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

قال مجاهد: كتب عمرُ بن الخطاب إلى أبي موسى أن يبتاع له جاريةً من سبيِ جَلُولاء، ففعل، فدعاها عمرُ فَأَعْتَقَهَا، ثم تلا هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

قال الذهبي في «سير أعلام النبلاء»: «قال مغيثُ بن سمي: كان للزبيرِ بن العوام ألفُ مملوك يُؤَدُّون إليه الخراج، فلا يُدْخِلُ بيتَه من خراجِهم شيئًا» (٤).

رواه عن عمر بن عبد العزيز نحوه، وزاد: بل يتصدَّقُ بها كلِّها.

عن سعدى بنت عوف المري، قالت: دخل عليَّ طلحة ذات يوم وهو خاثر (٥) النفس، فقلتُ: مالي أراك كالِح الوجهِ، ما شأنُك؟ أرابَكَ مني فَأُعْتِبَكَ (٦)؟

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢٣٦٢)، وصححه الألباني في [«صحيح الجامع» (٤٨٤٦)].

(٢) صحيح: رواه ابن ماجه (٩٤)، وأحمد (٢/ ٢٥٣)، وصححه الألباني في [«صحيح الجامع» (٥٨٠٨)].

(٣) حسن: رواه أبو داود (١٦٧٨)، والترمذي (٣٦٧٥)، وحسنه الألباني في [«صحيح أبي داود» (١٦٧٨)].

(٤) «السير» (١/ ٥٦)، سنن البيهقي (١٥٥٦٥)، «الحلية» (١/ ٩٠)، «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٢٤١).

(٥) يقال: خثرت نفسه: أي خبثت وثقلت واختلطت.

(٦) أي فأرضيك.

قال: لا، ولنعم حليلةُ المرء المسلم أنت، قلت: فما شأنُك؟ قال: المال الذي عندي قد كَثُرَ وأكربني، قالت: فَقَسَّمَهُ حتى ما بَقِيَ منه درهمٌ واحدٌ، قالت سعدى: فسألتُ خازنَ طلحةَ، كم كان المال؟ قال: أربعمائة ألف.

قال سفيان بن عيينة: وكانتْ غَلَّةُ طلحةَ كلَّ يوم ألفًا وافيًا [١].

قال حكيم بن حزام: ما أصبحتُ صباحًا قط فرأيت بفنائي طالبَ حاجةٍ قد ضاق بها ذرعًا فقضيتُها إلا كانت من النِّعَم التي أحمدُ الله عليها، ولا أصبحت صباحًا لم أر بفنائي طالبَ حاجةٍ إلا كان ذلك من المصائبِ التي أسأل الله ﷻ الأجرَ عليها [٢].

قال الشيخ عبد الله بن أحمد بن سعيد رحمه الله: كنتُ يومًا جالسًا بحضرة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فجاء إنسان فسلَّم عليه، فرآه الشيخ محتاجًا إلى ما يَعْتَمُّ به، فنزع الشيخ عمامَتَه - من غير أن يسأله الرجل ذلك - فقطعها نِصفين واعْتَمَّ بنصفها ودفع النصفَ الآخر إلى ذلك الرجلِ، ولم يَحْتَشِم للحاضرين عنده [٣].

وكان الشيخ مارًّا يومًا في بعض الأَزِقَّةِ، فدعا له بعض الفقراء وعرف الشيخ حاجَتَه، ولم يكن مع الشيخ ما يعطيه، فنزع ثوبًا على جِلدِه ودفعَهُ إليه، وقال: بِعْهُ بما تَيَسَّرَ وأنفقه، واعتذر إليه من كونه لم يَحْضُرْ عنده شيءٌ من النفقةِ، وكان لا يردُّ أحدًا يسأله من كتبه، بل يأمره أن يأخذ هو بنفسه ما يشاء منها [٤].

تربية النفس بالحج والعمرة:

معلوم أن الفرض أن يحج العبد ويعتمر في العمر مرة واحدة وما زاد على

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١/ ٣٣).
(٢) «مكارم الأخلاق» لابن أبي الدنيا (٤٢٤)، «المجالسة وجواهر العلم» (١٧٩٣).
(٣) «الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية» (١/ ٦٣).
(٤) نفسه (١/ ٦٥).

ذلك فهو نافلة، فسارع - يا عبد الله - إن استطعت بأداء فريضة الحج والعمرة، ولا تُؤَخِّرْ؛ فإنه قد تَعْرِضُ الحاجة ويمرض المريض، واعلم - عبدَ الله - أن للمتابعة بين الحج والعمرة والإكثار منها فضلًا عظيمًا.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سُئِلَ رسولُ الله ﷺ: أيُّ العمل أفضلُ؟ قال: «**إِيمَانٌ بِاللهِ وَرَسُولِهِ**»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «**الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ**»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «**حَجٌّ مَبْرُورٌ**» (١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ**» (٢)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لمَا بَيْنَهُمَا، وَالحَجُّ المَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الجَنَّةُ**» (٣).

أيها الأخ الكريم: ليكن لك نصيب من هذه الطاعة العظيمة، واعلم أنك إذا حَرَصْتَ على فعل الطاعة وأخذت بالأسباب المستطاعة المشروعة لذلك؛ وفقك الله عز وجل ويَسَّرَ لك بَقِيَّةَ أسبابها، وإن لم تستطع كنت مأجورًا بإذن الله تعالى، فلا أقلَّ - يا عبد الله - من عمرة في رمضان، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**عُمْرَةٌ فِي رَمَضَانَ تَعْدِلُ عُمْرَةً أَوْ حَجَّةً مَعِي**» (٤).

صور من علو الهمة في الحج والعمرة:

لقد حَرَصَ السلفُ على أن يكون لهم النصيبُ الأوفرُ من هذه العبادة.

قال الذهبي في «السير»: قال نافع: سافرتُ مع ابن عمرَ بضعًا وثلاثين حجةً وعمرةً (٥).

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٦)، ومسلم (٨٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) صحيح: أخرجه البخاري في مواضع من صحيحه منها (١٥٢١)، ومسلم (١٣٥٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (١٧٧٣)، ومسلم (١٣٤٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤) صحيح: أخرجه البخاري (١٨٦٣)، ومسلم (١٢٥٦).
(٥) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٩٧).

قال الذهبي في «السير»: قال مجاهد: ما كان باب من العبادة يعجز عنه الناس إلا تكلَّفه ابنُ الزبير، ولقد جاء السيل طَبَّقَ[(١)] البيتَ فطاف سباحةً[(٢)].

قال أبو إسحاق: حجَّ عمرُو بن ميمونٍ ستين مرةً من بين حجةٍ وعمرةٍ، وفي رواية: مائة مرة.

قال عبد الرحمن بن حرملة: سمعت ابن المسيب يقول: حججت أربعين حَجَّةً.

قال ابن حبان: كان طاووس من عُبَّادِ أهلِ اليمنِ ومن سادات التابعين، مستجابَ الدعوةِ، حج أربعين حجة[(٣)].

قال أبو حازم: ما أدركت أحدًا أعلمَ بالحجِّ من عطاء بن أبي رباح[(٤)].

وعن ابن أبي ليلى، قال: دخلتُ على عطاءٍ، فجعل يسألني، فكأن أصحابَه أنكروا ذلك، وقالوا: تسأله؟! قال: ما تنكرون؟! هو أعلم مني، قال ابن أبي ليلى: وكان عالمًا بالحجِّ، قد حج زيادة على سبعين حجة[(٥)].

قال ابن شبرمةَ: قال لي ابنُ هبيرةَ: من كرز؟ ومن ابن طارق؟ قال: قلت: أما كرز فكان إذا كان في سفرٍ واتخذ الناسُ منزلًا اتخذ هو منزلًا للصلاة، وأما ابن طارق فلو اكتفى أحد بالتراب كفاه كفٌّ من تراب.

قال أبو حفص: ذكروا أن ابن طارق كان يُقَدَّرُ طوافُه في اليوم عشرة فراسخ[(٦)].

قال أبو طاهر بن سلمة: سمعت ابن المقرئ يقول: استلمت الحجر في ليلة

---

(١) أي كثر المطر حتى كاد يغطي الكعبة.
(٢) «السير» (٣/ ٣٧٠).
(٣) «الثقات» (١/ ٣٥).
(٤) «تهذيب الكمال» (٢٠/ ٧٨).
(٥) «السير» (٦/ ٣١٤).
(٦) «حلية الأولياء» (٥/ ٨٢).
فائدة: الفرسخ ٥٥٠ متر، يعني أنه كان يطوف مسافة تقدر بـ ٥٥ كيلومتر.

مائةً وخمسين مرةً.

تربية النفس ببر الوالدين:

اعلم أخـي الحبيب: أن طاعة الوالدين واجبةٌ في غيـر المعصية، فلا يجوز فعـل ما يُغْضِبُهُما ولا ما يُؤْذِيهِما، وأنه يجب عليك النفقةُ عليهما إذا أعوزا[١]، وتقوم على خدمتهما إذا احتاجا إلى ذلك، وأن تُطَبِّبُهُما إذا مَرِضا، وأن تحسن معاملتهما فلا تَقُلْ لهما أُفٍّ ولا تنهرهما، قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان: ١٤-١٥].

أخي الكريم ! برُّ الوالدين من أحب الأعمال إلى الله، عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ: أيُّ العمل أحبُّ إلى الله تعالى ؟ قال: «**الصَّلاَةُ عَلَى وَقْتِهَا**» قلت: ثم أي ؟ قال: «**بِرُّ الْوَالِدَيْنِ**»، قلت: ثم أيُّ ؟ قال: «**الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ**»[٢].

أيها المسلم! هل جلست مع نفسك وتَفَكَّرْتَ في حالك ومَوْقِفِكَ من هذه العبادة، واسْتَكْمَلْتَ ما يجب عليك منها وتَجَنَّبْتَ ما يحرم؛ حتى لا تكون عاقًّا، فإن العقوق قد عدَّه النبي ﷺ من أكبر الكبائر.

أخـي الكريم ! بالغ في الإحسان إلى والديك، واجعل لنفسك وِرْدًا من الزيارة والهدايا والتلطف والتودد والبشاشة في وجههما ومُلاطفتهما، وإدخال السرور عليهما بكل مُسْتَطَاعٍ، فإنه باب من أوسع أبواب الجنة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «**رَغِمَ[٣] أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ، مَنْ**

(١) أعوزا: احتاجا.
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٢٧٢٨)، ومسلم (٨٥).
(٣) رغم: التصق بالرغام، وهو التراب.

أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ، أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا، فَلَمْ يَدْخُلِ الجَنَّةَ» (١).

صور من علو الهمة في بر الوالدين والأدب معهما:

عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «**دَخَلْتُ الجَنَّةَ فَسَمِعْتُ قِرَاءَةً، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقِيلَ: حَارِثَةُ بْنُ النُّعْمَانِ**»، فقال رسول الله ﷺ: «**كَذَلِكُمُ الْبِرُّ، كَذَلِكُمُ الْبِرُّ**»، وزاده عبد الرزاق في رواية: وكان أَبَرَّ النَّاسِ بأُمِّهِ (٢).

وقالت عائشة رضي الله عنها: كان رجلان من أصحاب رسول الله ﷺ أبرَّ من كان في هذه الأمةِ بأُمِّهما: عثمانُ بن عفان، وحارثةُ بن النعمان رضي الله عنهما؛ أما عثمان فإنه قال: ما قَدَرْتُ أتأملُ وجْهَ أمِّي منذ أسلمتُ، وأما حارثةُ فكان يُطْعِمُها بيدِه، ولم يَسْتَفْهِمَهَا كلامًا قطُّ تأمرُ به حتى يسأل مَنْ عِنْدَها بعد أن يَخْرُجَ: ماذا قالتْ أمِّي؟ (٣).

قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ خَيْرَ التَّابِعِينَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: أُوَيْسٌ، وَلَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ، وَكَانَ بِهِ بَيَاضٌ، فَمُرُوهُ فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ**» (٤).

وهذا أبو حنيفة النعمان رحمه الله: كان رحمه الله بارًّا بوالديه، وكان يدعو لهما ويستغفر لهما مع شيخه حماد، وكان يتصدَّقُ كلَّ شهر بعشرين دينارًا عن والديه.

قال أبو يوسف: كان أبو حنيفة يَحْمِلُ والدته على حِمَارِه إلى مجلس عمر بن ذرٍّ كراهة أن يَرُدَّ قولها، وقال أبو حنيفة: ربما ذهبت بها إلى مجلسه، وربما أمرتني أن أذهبَ إليه وأسأله عن مسألَةٍ، فآتيه أذكرها له وأقول له: إن أمِّي أَمَرَتْنِي أن أسألك عنها، فيقول: وأنت تسألني عن هذا؟! فأقولُ: هي أمرتني،

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٦٤٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح: رواه ابن حبان (٧٠١٤)، وعبد الرزاق (٢٠١١٩)، وصححه الألباني في [«الصحيحة» (٦١٦/٢)].

(٣) «مكارم الأخلاق» لابن أبي الدنيا (٢٢٣).

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٥٤٢).

فيقـول: قل لي كيف هـو - يعني الجواب - حتـى أُخْبِرَك، فَأُخْبِـرَه بالجواب ثم يخبرني به فآتيها وأخبرها عنه بما قال.

وعـن يحيـى بن عبد الحميد، قال: كان الإمام - يعنـي أبا حنيفة - يخرجُ كلَّ يومٍ من السـجن فَيُضْرَبُ ليدخلَ القضاءَ فيأبى، فلما ضُرِبَ رَأْسُـه وأَثَّرَ ذلك في وجهِه بكى، فقيل له في ذلك، فقال: إذا رأته أمي بكت واغتمت، وما عليَّ شيء أشدَّ من غَمِّ أُمِّي(١).

وكان حجـر بـن عدي بن الأدبـر يلتمس فـراش أمِّه بيده فيتهـم غلظ يده، فينقلب عليه على ظهره، فإذا أَمِنَ أن يكون عليه شيء أضجَعَهَا.

- وكان ظبيـان بـن علي من أبـرِّ الناس بأمـه، فباتت ليلـة وفي صدرها عليه شيء، فقام على رجليه قائمًا يكره أن يوقظها ويكره أن يقعدَ(٢).

- ابـن عون: نـادت أمُّ عبد الله بن عـون عبد الله، فأجابهـا، فَعَلا صوتُه على صوتِها فأعتقَ رقبتين(٣).

- قال بشـر الحافي: الولد يَقْرُب من أمِّه، بحيث يسـمع أمَّه، أفضل من الذي يضربُ بسيفِه في سبيل الله، والنظر إليها أفضل من كلِّ شيءٍ.

- حدَّث أبو بردة بن أبي موسـى الأشـعري أن ابنَ عمر شـهد رجـلًا يمانيًا يطوف بالبيت، حمل أُمَّه وراءَ ظهره، يقول:

إني لهـا بـعيرُهـا المـذلَّـلُ ... إنْ أَذْعَـرَتْ رِكَـابَهـا لم أُذْعَـرِ

الله ربي ذو الجـلال الأكـبَرِ

حملـتها أكثـر ممـا حملـت ... فهـل تـرى جَازَيْتُهَا يا ابن عمر

---

(١) «تاريخ بغداد» (١٣/ ٣٢٧)، «طبقات الحنفية» (٢/ ٤٩٧).

(٢) «مكارم الأخلاق» (٢٢٦)، «بغية الطلب في تاريخ حلب» (٥/ ٢١١٢).

(٣) «الحلية» (٣/ ٣٩)، «تاريخ دمشق» (٣١/ ٣٤٥).

ثم قال: يا ابن عمر، أتراني جزيتها؟ قال: لا، ولا بزفْرَةٍ واحدَةٍ (١).

ـ وعن هشام بنِ حسان، قال: كان الهذيلُ بن حفصةَ يجمع الحطبَ في الصيفِ فيُقَشِّرُه ويأخذ القصبَ فيفلِقُه، قالت حفصة: وكنت أجد قرة، فكان إذا جاء الشتاءُ جاء بالكانون فيضعه خلفي ـ وأنا في مصلايَ ـ ثم يقعد فيوقد بذلك الحطب المقشر وذلك القصب المفلق وقودًا لا يؤذي دخانُه ويُدْفِئُنِي، نمكث بذلك ما شاء الله، قالت: وعنده من يكفيه لو أراد ذلك، قالت: ورُبَّما أردت أنصرف إليه فأقول: يا بني، ارجع إلى أهلك، ثم أذكر ما يريدُ فأدَعُه.

ـ وعن الحسن بن نوح، قال: كان كهمسُ يعملُ في الجِصِّ (٢) كلَّ يوم بدانقين (٣)، فإذا أمسى اشترى به فاكهة فأتى بها إلى أُمِّه.

وكان كهمس يكسَحُ البيتَ ويخدِمُ أُمَّه، فأرسل إليه سليمان بن علي الهاشمي بِصُرَّةٍ، وقال: اشترِ بها خادمًا لأمِّك، لأنه كان مشغولًا بخدمتها، وكان أبرَّ شيءٍ بأمهِ، وأراده على أن يَقْبَلَها فأبى، فألقاها في البيت ومضى، فأخذها كهمس وخرج يتبعه حتى دفعها إليه (٤).

ـ قال عامر بن عبد الله بن الزبير: مات أبي فما سألت الله حولًا إلا العفو عنه (٥).

ـ عروة بن الزبير: كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول في صلاته، وهو ساجد: اللهم اغفر للزبير بن العوام، وأسماءِ بنت أبي بكر، يعني والديه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

ـ عن محمد بن المنكدر: أنه كان يضع خده على الأرض، ثم يقول لأمه: قومي ضعي قَدَمَكِ على خدِّي (٦).

(١) «أخبار مكة» للفاكهي (٦٤٢)، «الأدب المفرد» للبخاري (١١)، «مكارم الأخلاق» (٢٣٤).
(٢) الجص: ما نسميه نحن الجبس.
(٣) الدانق: جزء من الدرهم.
(٤) «حلية الأولياء» (٦/ ٢١٢).
(٥) «تاريخ دمشق» (٢٨/ ٢٤٣).
(٦) «حلية الأولياء» (٣/ ١٥٠)، «تاريخ دمشق» (٥٦/ ٥٧).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: بات أخي عمرُ يصلي، وبِتُّ أَغْمِزُ قدمَ أمِّي، وما أحبُّ أن ليلتي بليلته (١).

ـ أراد كهمس بن الحسن قتلَ عقربٍ، فدخلت جحرًا، فأدخل أصبعه خلفها فَضَرَبَتْه، فقيل له في هذا، فقال: خفت أن تخرجَ فتجيء إلى أمِّي فتلدَغها (٢).

ـ قال محمد بن بشار: أردت الخروج ـ يعني في رحلة طلبِ علم ـ فمنعتني أمي، فأطعتُها، فبورك لي فيه (٣).

تربية النفس بصلة الأرحام:

صِلَةُ الأرحام من الإيمانِ؛ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ، قال: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**» (٤).

وصلة الأرحام من أسباب سَعَةِ الرزقِ وطولِ العُمُرِ؛ في الصحيحين أن رسول الله ﷺ، قال: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**» (٥).

ومما أَرْسَلَ اللهُ به رسولَه ﷺ صِلَةُ الأرحامِ؛ عن عمرو بن عبسة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: دخلت على النبيِّ ﷺ بمكة في أول النبوة، فقلت: بأيِّ شيء أرسلك؟ قال: «**أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَكَسْرِ الْأَوْثَانِ، وَأَنْ يُوَحَّدَ اللهُ وَلَا يُشْرَكَ بِهِ شَيْئًا**» (٦).

---

(١) مسند ابن الجعد (١/ ٢٥٤)، «الحلية» (٣/ ١٥٠)، «المعرفة والتاريخ» (١/ ٣٦٩)، «شعب الإيمان» (٧٩٢١).

(٢) «حلية الأولياء» (٦/ ٢١١).

(٣) «تهذيب الكمال» (٢٤/ ٥١٤)، «تاريخ بغداد» (٢/ ١٠٢)، «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ١٤٥).

(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٦١٣٥، ٦١٣٦)، ومسلم (٤٧).

(٥) صحيح: أخرجه البخاري (٢٠٧٦)، ومسلم (٢٥٥٧) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٦) رواه مسلم (٨٣٢).

وقاطعُ الرحم مُتَوَعَّدٌ بالقطعِ كما قطعها؛ فقد وعد الله الرَّحِمَ أن يَصِلَ من وصلها ويقطعَ من قطعها.

وقاطع الرحم محروم من الجنة؛ عن أبي محمد جبير بن مطعم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَاطِعٌ»، قال سفيان في روايته: يعني قاطعُ رحمٍ (١).

عبدَ الله! هل جلست مع نفسك يومًا تحاسبُها على هذه العبادةِ العظيمةِ - صلة الأرحام - فتحاسبُها على عيادة مريضِهم، كم مَرِضَ من ذوي رحمِك من مريض ولم تعده؟! كم أُصيب منهم مصاب ولم تواسِه؟! كم أصابت الفاقةُ منهم من أصابَتْ ولم يَجِدْك بجواره؟! كم احتاج منهم محتاجٌ ولم تَسُدَّ حاجته مع استطاعتك؟! منذ متى لم تر فلانًا ولم تَزُرْه؟!

أيها المسلم! تدارك حتى لا تقعَ تحت طائلةِ الوعيدِ، كما في الحديث القدسي عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْهُمْ قَامَتْ الرَّحِمُ، فَقَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ، قَالَ: نَعَمْ، أَمَا تَرْضِيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ، قَالَتْ: بَلَى، قَالَ: فَذَلِكَ»، ثم قال رسول الله ﷺ: «اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣]» (٢).

ليكن لك أوراد من زيارة ذوي رحمك، والإحسان إليهم، والإهداء بما تستطيع، وقضاء حوائجهم، ومواساتهم في مصائبهم، وعيادة مريضهم، وإعانتهم في النوائب، واحرص على محاسبة نفسك كلَّ فترةٍ، هل أنت من أهل الإحسان في هذه العبادة أم لا؟! وجاهد نفسك على أن تكون من أهل السبق

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٩٨٤)، ومسلم (٢٥٥٦).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري في مواضع من صحيحه؛ منها: (٤٨٣١، ٤٨٣٢)، ومسلم (٢٥٥٤).

فيها، فهي من شِيَم الصالحين ومن صفات المتقين.

تربية النفس بحسن الخلق:

حسن الخلق من الإيمان، بل أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنُهم خلقًا، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ أَخْلَاقًا، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ**»[(١)].

ومن أكثر ما يُدخل الناسَ الجنةَ: التقوى، وحسنُ الخلق، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سُئِلَ رسول الله ﷺ عن أكثرِ ما يُدخلُ الناسَ الجنةَ، قال: «**تَقْوَى اللهِ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ**»، وسئل عن أكثرِ ما يدخل الناس النار، قال ﷺ: «**الْفَمُ وَالْفَرْجُ**»[(٢)].

المؤمن يدرك بحسنِ الخلق درجةَ الصائم القائم، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ**»[(٣)].

وقد كان النبيُّ ﷺ أحسنَ الناس خلقًا، عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كان رسول الله ﷺ أحسنَ الناسِ خلقًا[(٤)].

لذلك فأقرب الناس منه مجلسًا يوم القيامة أحاسنهم أخلاقًا، عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا**»[(٥)].

عبد الله! اعلم أنه كما أن من العبادة الصلاة والصيام والذكر، فإن من العبادة كذلك حسنَ الخلقِ والمعاملةَ المستقيمةَ مع الخلق، فكما أنك تتعبد

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (١١٦٢)، وصححه الألباني في [«الصحيحة» (٢٨٤)].

(٢) حسن: أخرجه الترمذي (٢٠٠٤)، وابن ماجه (٤٢٤٦)، وحسنه الألباني في [«الصحيحة» (٩٧٧)].

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٧٩٨)، وصححه الألباني، انظر: [«مشكاة المصابيح» (٥٠٨٢)].

(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٦٢٠٣)، ومسلم (٢١٥٠).

(٥) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٠١٨)، وحسنه الألباني في [«الصحيحة» (٧٩١)].

بالصلاةِ، والصيامِ، والذكرِ، وتجاهد نفسَك على الترقِّي فيها، فكذلك هنا يلزمك أن تتعرف على ما ينبغي عليك أن تبذُلَه للآخرين من حقوق، وما يجدر بك أن تكف عنه تجاههم، فتسارع إلى تحقيق القدر الواجب من ذلك وتَجَنُّبِ المحرَّمِ، وتحاسبُ نفسك عليه بينَ الحينِ والحينِ، وكذلك تجتهدُ في تحصيل الكمال المستحبِّ، لتكونَ من أهل السبْقِ في هذا المجالِ العظيمِ ألا وهو حُسْنُ الخلق.

- **والخلق الحسنُ يتحقَّقُ بالقيام بحقوق الأخوَّةِ الإيمانيةِ**، التي تربط المسلم بجميع إخوانِه المسلمين فعلًا وتركًا، وهي تبلغُ أكثرَ من تسعينَ أو مائة حقٍّ، فتأملها - عبدَ الله - واعرضْ نفسَك عليها بين الحينِ والآخرِ؛ لترى هل سلوكك يتفق مع السلوكِ الذي أرادَه الشرعُ منك والذي طَبَّقَه الصحابةُ رضي الله عنهم ومِنْ بَعْدِهم السلفُ الصالحُ رحمهم الله.

أولًا: الحقوق الفعلية:

ومنها الواجب، ومنها المستحب:

١- **النصيحة**: عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه، قال: بايعتُ رسول الله ﷺ على إقامةِ الصلاةِ، وإيتاءِ الزكاةِ، والنُّصْحِ لكلِّ مسلمٍ[١].

٢، ٣- ومن النصيحة: تعليمُ الجاهلِ، وإرشادُ الزائغِ، وأمرُهم بالمعروفِ ونهيُهم عن المنكر: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ؛ لَا يَنْقُصُ ذَلِك مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ لَهُ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ؛ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا»**[٢].

٤، ٥، ٦- الرحمة والتعاطف، والتواد والتماسك: عن النعمان بن بشير رضي الله عنه،

(١) صحيح: رواه البخاري (٥٧)، ومسلم (٥٦).
(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٧٤).

قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى» (١).

٧، ٨- الرفق معهم، والسماحةُ في البيع والشراءِ والقضاءِ: عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الرِّفْقَ لا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ» (٢).

٩-١٤- إفشاء السلام، وتشميت العاطس، وعيادة المريض، وتشييع الميت، وإبرار القسم، وإجابة الدعوة: عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُمْ» (٣).

عن أبي عمارة البراء بن عازب رضي الله عنه، قال: أمرنا رسولُ الله ﷺ بسبع: أمرنا بعيادةِ المريضِ، واتِّباعِ الجنازةِ، وتشميتِ العاطسِ، وإبرارِ المُقْسِمِ، ونُصْرَةِ المظلومِ، وإجابةِ الداعي، وإفشاءِ السلامِ (٤).

١٥- تَفَقُّدُ الغائب، وتفقد أحوالِ المسلمين، والسؤالِ عنها: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن امرأةً سوداءَ كانت تَقُمُّ المسجدَ - أو شابًّا - فَفَقَدها - أو فقده - رسول الله ﷺ فسأل عنها - أو عنه، فقالوا: ماتَ، قال: «أَفَلا كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي (بِهِ)»، فكأنَّهم صغَّروا أمرَها - أو أمره، فقال: «دُلُّونِي عَلَى قَبْرِهِ»، فدلوه، فصلى عليه ثم قال: «إِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ مَمْلُوءَةٌ ظُلْمًا عَلَى أَهْلِهَا، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يُنَوِّرُهَا لَهُمْ بِصَلاتِي عَلَيْهِمْ» (٥).

قوله: تَقُمُّ؛ هو بفتح التاء وضم القاف: أي تكنس، والقمامة: أي الكناسة.

آذنتموني: أي أعلمتموني.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٩٤).

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٥٤).

(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٥٦٣٥)، ومسلم (٢٠٦٦).

(٥) صحيح: أخرجه البخاري (٤٥٨)، ومسلم (٩٥٦).

١٦- **المصافحة عند اللقاء**: عن البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْ مُسْلِمَيْنِ يَلْتَقِيَانِ فَيَتَصَافَحَانِ إِلَّا غُفِرَ لَهُمَا قَبْلَ أَنْ يَفْتَرِقَا**» (١).

١٧- **الزيارة في الله** عَزَّ وَجَلَّ: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ عَادَ مَرِيضًا أَوْ زَارَ أَخًا لَهُ فِي اللهِ نَادَاهُ مُنَادٍ بِأَنْ طِبْتَ، وَطَابَ مَمْشَاكَ، وَتَبَوَّأْتَ مِنْ الجَنَّةِ مَنْزِلًا**» (٢).

١٨- **إغاثة الملهوف**: عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ، قال: «**عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ**» قال: أرأيت إذ لم يَجِدْ؟ قال ﷺ: «**يَعْمَلُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ**»، قال: أرأيت إذ لم يستطعْ؟ قال ﷺ: «**يُعِينُ ذَا الحَاجَةِ المَلْهُوفَ**»، قال: أرأيت إذ لم يستطعْ؟ قال: «**يَأْمُرُ بِالمَعْرُوفِ أَوْ بِالخَيْرِ**»، قال: أرأيت إذ لم يفعل؟ قال: « **يُمْسِكُ عَنْ الشَّرِّ؛ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ**» (٣).

١٩- **التبشير بما يسر**: عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن النبيَّ ﷺ قال: «**يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَسَكِّنُوا وَلَا تُنَفِّرُوا**» (٤).

٢٠- **السلامة من لسانك ويدك**: عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ، قال: «**المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ**» (٥).

٢١- **بذل الفضل لهم**: عن أبي أمامة صُدي بن عجلانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ إِنْ تَبْذُلْ الْفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ، وَإِنْ تُمْسِكْهُ شَرٌّ لَكَ، وَلَا تُلَامُ عَلَى كَفَافٍ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَى**» (٦).

---

(١) حسن: أخرجه أبو داود (٥٢١٢)، وحسنه الألباني في [«الصحيحة» (٥٢٥)].

(٢) حسن: أخرجه الترمذي (٢٠٠٨)، وحسنه الألباني في [«صحيح الجامع» (٦٣٨٧)].

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٦٠٢٢)، ومسلم (١٠٠٨).

(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٦٩)، ومسلم (١٧٣٤).

(٥) صحيح: أخرجه البخاري (١٠)، ومسلم (٤٠)، تبوأت: تهيأت.

(٦) صحيح: أخرجه مسلم (١٠٣٦)، من تعول: من يلزمك الإنفاق عليهم.

٢٢- **الدعاء بظهر الغيب**: عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه سمع رسولَ الله ﷺ يقول: «**مَا مِنْ عَبْدٍ يَدْعُو لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ إِلَّا قَالَ الْمَلَكُ: وَلَكَ بِالْمِثْلِ**»[1].

٢٣- **التهنئة عند حدوث ما يسرهم**: كما في قصة توبة كعب بن مالك رضي الله عنه، قال: سمعت صوتَ صارخ يقول بأعلى صوتِه: يا كعبَ بْنَ مالكٍ، أَبْشِرْ، فَخَرَرْتُ ساجدًا، فأخبرني أنه أُنْزِلَ على رسول ﷺ بتوبةِ الله عز وجل علينا حين صَلَّى صلاةَ الفجرِ، فذهب الناسُ يبشروننا...

إلى أن قال: فانطلقت إلى رسولِ الله ﷺ يَتَلَقَّاني الناسُ فوجًا فوجًا، يهنئوني بالتوبةِ، ويقولون: لِتَهْنِكَ توبةُ الله عز وجل عليكَ، قال: فدخلتُ المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناسُ، فقام طلحةُ يُهَرْوِلُ حتى صافحني وهَنَّأَنِي[2].

٢٤- **الحزن لحزنهم والتعزية عند المصيبة**: عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**»[3].

٢٥- **الشفاعة فيهم عند ذي السلطان؛ لقضاء حوائجهم المباحة**: عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: كان النبيُّ ﷺ إذا أتاه طالبُ حاجةٍ أقبل على جلسائه، فقال: «**اشْفَعُوا فَلْتُؤْجَرُوا، وَلْيَقْضِ اللهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا أَحَبَّ**»[4].

٢٦، ٢٧- **تفريج المكروب، والتنفيس عنه، وإقراضه إذا طلب**: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ، قال: «**مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا**

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧٣٢).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٤٤١٨).
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦).
(٤) صحيح: أخرجه البخاري (١٤٣٣)، ومسلم (٢٦٢٧).

كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»[(١)].

٢٨، ٢٩- قضاء حاجة إخوانه، وستر عوراتهم الظاهرة والباطنة: عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ؛ لا يَظْلِمُهُ، وَلَا يُسْلِمُهُ، مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[(٢)].

٣٠-٣٢- المجالسة في الله، والصحبة فيه، والتباذل فيه، والتزاور فيه: عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ، وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ»[(٣)].

٣٣- إزالة الأذى عن طريق المسلمين: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ، قال: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الْإِيمَانِ»[(٤)].

٣٤- الوضع عن المعسر، أو إنظاره والتيسير عليه: عن أبي اليَسَر رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ عَنْهُ أَظَلَّهُ اللهُ فِي ظِلِّهِ»[(٥)].

٣٥- حفظ من غاب منهم في أهله وماله: عن أبي عبد الرحمن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللهِ فَقَدْ غَزَا، وَمَنْ خَلَفَهُ فِي أَهْلِهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا»[(٦)].

٣٦، ٣٧- طلاقة الوجه عند اللقاء، والتبسم في وجه أخيك: عن أبي ذر رضي الله عنه

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٩٩)، نَفَّسَ: فَرَّج وخَفَّف.
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠)، لا يسلمه: لا يخذله ولا يتخلى عنه.
(٣) صحيح: أخرجه مالك في الموطأ (١٧١١)، وصححه الألباني في [«صحيح الجامع» (٤٣٣١)].
(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥)، البِضع: من ٣ إلى ١٠.
(٥) صحيح: أخرجه مسلم (٣٠٠٦).
(٦) صحيح: أخرجه البخاري (٢٨٤٣)، ومسلم (١٨٩٥).

قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ**»(١).

٣٨- إذا أحب أحد من إخوانه فليخبره أنه يحبه: عن أنس رضي الله عنه: أن رجلًا كانَ عند النبيِّ ﷺ، فمرَّ رجلٌ به، فقال: يا رسولَ الله، إني لأُحِبُّ هذا، فقال له النبي ﷺ: «**أَأَعْلَمْتَهُ؟**»، قال: لا، قال: «**أَعْلِمْهُ**»، فلَحِقَهُ، فقال: إني أحبُّك في الله، فقال: أحبَّك اللهُ الذي أَحْبَبْتَنِي فيهِ(٢).

٣٩- الإيثار على النفس، ولو مع الخصاصة: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني مجهودٌ، فأرسل إلى بعض نسائه، فقالت: والذي بعثك بالحقِّ ما عندي إلا ماءٌ، ثم أرسل إلى أخرى، فقالت مثل ذلك، حتى قلن كُلُّهنَّ مثل ذلك: لا والذي بعثك بالحقِّ، ما عندي إلا ماءٌ، فقال النبي ﷺ: «**مَنْ يُضِيفُ هَذَا اللَّيْلَةَ؟**»، فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله، فانطلق به إلى رحله، فقال لامرأته: أكرمي ضيف رسولِ الله ﷺ، -وفي رواية: قال لامرأته: هل عندك شيء؟ فقالت: لا، إلا قوت صِبْياني- قال: فعلِّليهم بشَيء، فإذا دخل ضيفُنا فأطفئي السراجَ وأريه أنَّا نأكلُ، فقعدوا وأكل الضيفُ وباتا طَاوِيَيْنِ، فلما أصبح غدا على رسول الله ﷺ، فقال: «**لَقَدْ عَجِبَ اللهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا اللَّيْلَةَ**»(٣).

٤٠- نشد الضالة حتى يجدها صاحبها: كما في حديث أبي عمارة: حَقُّ المسلمِ على المسلمِ سبعٌ؛ ومنها: ... إنشادُ الضالَّة(٤).

٤١- نصر الأخ ظالمًا؛ بمنعه من ظلمه، أو مظلومًا؛ برفع الظلم عنه: عن

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٢٦)، طلق: مبتسم.
(٢) حسن: أخرجه أبو داود (٥١٢٥)، وحسنه الألباني في [«الصحيحة» (٣٢٥٣)].
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٣٧٩٨)، ومسلم (٢٠٥٤)، علليهم: اشغليهم، طاويين: جائعين.
(٤) صحيح: أخرجه مسلم (٢٠٦٦).

أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا**»، فقال رجل: يا رسول الله، أنصره إذا كان مظلومًا، أرأيت إن كان ظالمًا كيف أنصره؟ قال: «**تَحْجِزُهُ عَنْ ظُلْمِهِ أَوْ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ، فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ**» (١).

٤٢ - العفو عنهم، والصفح عن زلاتهم، وقبول معذرتهم: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ للهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ عز وجل**» (٢).

٤٣ - مداعبة أولادهم، والمزاح معهم؛ بغير تفريط أو كذب: كما في حديث: «**يَا أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟**» (٣)، وكذلك كان النبي ﷺ يُدْلِعُ لسانه للحسن، فَيَهِشُّ إليه (٤).

٤٤ - مهاداتهم، وقبول هديتهم: وقد حثَّ النبي ﷺ على ذلك، فقال: «**تَهَادُوا تَحَابُّوا**» (٥) وقد قبل النبي ﷺ هدية أبي جهم.

٤٥ - التواضع، وخفض الجناح، والذلة للمؤمنين: قال تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ** ﴾ [المائدة: ٥٤].

عن عياض بن حمار رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ قَدْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا، حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ**» (٦).

٤٦، ٤٧ - رد الغيبة، وعدم تصديق النميمة: عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ،

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٩٥٢).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٨٨).
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٦١٢٩)، النغير: طائر صغير.
(٤) صحيح: أخرجه ابن حبان (٥٥٩٦)، والبغوي في شرح السنة (١٣/ ٣٦)، وصححه الألباني في [«التعليقات الحسان» (٨/ ١٥٣)].
(٥) حسن: أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٤)، وحسنه الألباني في [«الإرواء» (١٦٠١)].
(٦) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

قال: «مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ رَدَّ اللهُ عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١).

٤٨، ٤٩ - رحمة الصغير، وتوقير الكبير، واحترام العالم: عن أبي موسى رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللهِ تَعَالَى إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ، وَالْجَافِي عَنْهُ، وَإِكْرَامِ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ**»(٢).

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنهم، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ شَرَفَ كَبِيرِنَا**»(٣)، وفي رواية أبي داود: «**حَقَّ كَبِيرِنَا**».

٥٠ - مراعاة راحة العالم في بيته، بالتأدب بآداب الاستئذان والجلوس والزيارة والضيافة والاتصال الهاتفي، وغير ذلك من الآداب: فهذا من حقه، وتقدم حديث: «**إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللهِ تَعَالَى إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ...**»، وقول النبي ﷺ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ حَقَّ كَبِيرِنَا**».

ثانيًا: ما يشرع تركه ويحرم فعله أو يكره:

١ - ٤ - التباغض، التحاسد، التدابر، التقاطع: عن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**لَا تَقَاطَعُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا**»(٤).

٥، ٦ - الشحناء والغل: عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**تُعْرَضُ الْأَعْمَالُ فِي كُلِّ يَوْمِ خَمِيسٍ وَاثْنَيْنِ، فَيَغْفِرُ اللهُ عز وجل لِكُلِّ امْرِئٍ لَا يُشْرِكُ**

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (١٩٣١)، وصححه الألباني في [«صحيح الجامع» (٦٢٦٢)].

(٢) حسن: أخرجه أبو داود (٤٨٤٣) وحسنه الألباني في [«صحيح الجامع» (٢١٩٩)]، المقسط: العادل.

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٩٤٣)، والترمذي (١٩٢٠)، وصححه الألباني في [«صحيح الجامع» (٥٤٤٤)].

(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٦٠٦٤)، ومسلم (٢٥٦٣).

بِاللهِ شَيْئًا إِلَّا امْرَأً كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ، فَيُقَالُ: اتْرُكُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا»(١).

٧، ٨- الهجر، وترك إلقاء السلام: عن أبي أيوب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ؛ يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ»(٢).

٩-١٣- الغدر، والخيانة، والكَذِبُ على المسلمين، وإفشاء السر، وتضييع الأمانة:

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا؛ إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»(٣).

١٤، ١٥- الخطبة على خطبته: عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لَا يَبِعِ الرَّجُلُ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ، وَلَا يَخْطِبْ عَلَى خِطْبَةِ أَخِيهِ، إِلَّا أَنْ يَأْذَنَ لَهُ»(٤).

١٦، ١٧- الغيبة، وسماعها: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[الإسراء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾[الحجرات: ١٢].

١٨، ١٩- النميمة، وتصديقها: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾[الحجرات: ٦]، عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٦٥).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٦٠٧٧)، ومسلم (٢٥٦٠).
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨)، فجر: تجاوز الحد في الخصومة.
(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٥١٤٣)، ومسلم (١٤١٢).

«لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ نَمَّامٌ» (١).

٢٠- البغي والاعتداء: عن عياض بن حمار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إِنَّ اللهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا؛ حَتَّى لَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ» (٢).

قال أهل اللغة: البَغْيُ: التعدِّي والاستطالة.

٢١- أكل المال بالباطل: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾[النساء: ٢٩].

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كُلُّ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ» (٣).

٢٢- تسليمه لأعدائه، وخذلانه: عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ؛ لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ بِهَا عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (٤).

٢٣- البيع على بيع المسلم، والسوم على سومه (السوم: الفصال): عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: نهى رسول ﷺ أن يبيع حاضرًا لبادٍ، ولا تناجشوا، ولا يبيع الرجل على بيع أخيه، ولا يخطب على خطبة أخيه، ولا تسأل المرأة طلاق أختها لتكفأ ما في إنائها (٥)، وفي رواية: لا يَسِمُ المسلم على سَوْم أخيه.

٢٤، ٢٥- ترويع المسلم، إخافته، والإشارة إليه بالسلاح أو بحديدة، ولو مازحًا: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لَا يُشِرْ أَحَدُكُمْ إِلَى أَخِيهِ

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

(٤) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٨٠).

(٥) صحيح: أخرجه مسلم (١٤١٣)، السوم: زيادة ثمن السلعة بعد استقرار البيع.

بِالسِّلَاحِ؛ فَإِنَّهُ لا يَدْرِي، لَعَلَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ فِي يَدِهِ فَيَقَعُ فِي حُفْرَةٍ مِنْ النَّارِ»(١).

٢٦- أخذ متاعه، ولو لعبًا: قال ﷺ: «لا يَأْخُذَنَّ أَحَدُكُمْ مَتَاعَ صَاحِبِهِ، لا لاعِبًا وَلَا جَادًّا، وَإِنْ أَخَذَ عَصَا أَخِيهِ فَلْيَرُدَّهَا عَلَيْهِ»(٢)، ولأن ذلك يروعه ويؤذيه.

٢٧-٢٩- ظلمه، وإيذاؤه باليد أو باللسان، أو بالطعن في دمه أو عرضه أو ماله: عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ، قال: «المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ»(٣)، وقد تقدم حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «كُلُّ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ».

٣٠- الاحتقار، والازدراء، والتكبُّر عليهم: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ، قال: «لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ»، فقال رجل: إن الرجلَ يُحِبُّ أن يكونَ ثوبُه حسنًا، ونعله حسنًا، قال: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ، الْكِبْرُ: بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ»(٤).

بطر الحق: دفعهُ ورده على قائله، غمط الناس: احتقارهم.

٣١- التقاتل على الدنيا، وسفك الدماء: عن جابر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ؛ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ؛ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ؛ حَمَلَهُمْ عَلَى سَفْكِ دِمَائِهِمْ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ»(٥).

٣٢- إظهار الشماتة في مسلم، أو إضمارها: فإن هذا من صفات المنافقين، قال تعالى: ﴿تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٧٠٧٢)، ومسلم (٢٦١٧)، ينزع: يرمي في يده، ويحقق ضربته ورميته.

(٢) حسن: رواه الترمذي (٢١٦٠)، وأبو داود (٥٠٠٣)، وحسنه الألباني في [«الإرواء» (١٥١٧)].

(٣) سبق تخريجه.

(٤) صحيح: أخرجه مسلم (٩١).

(٥) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٧٨).

٣٣- إشاعة الفاحشة في المسلمين: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

٣٤- التنافس على الدنيا: عن عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ؛ فَوَاللهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، فَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ**»(١).

٣٥- التجسس والتحسس لنفسك ولغيركم، وكشف عورات المسلمين: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَنَافَسُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا**»(٢).

٣٦- الرجوع في الهبة أو الصدقة بعد إمضائها: عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «**الَّذِي يَعُودُ فِي هِبَتِهِ كَالْكَلْبِ يَعُودُ فِي قَيْئِهِ**»(٣).

٣٧، ٣٨- المَنُّ بالعطية، والهبة: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

٣٩، ٤٠- الضرب بغير حق، والضرب في الوجه خصوصًا: عن أبي مسعود البدري رضي الله عنه، قال: كنت أضربُ غلامًا لي بِسَوْطٍ، فسمعت صوتًا من خلفي: «**اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ**»، فلم أفهم الصوتَ من الغضب، فلما دنا مني إذا هو رسول ﷺ فإذا هو يقول: «**اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ اللهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا**

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣١٥٨)، ومسلم (٢٩٦١).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٢٥٦٣)، ومسلم (١٦٦٢).
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٢٥٨٩)، ومسلم (٦٠٦٦).

الْغُلَامِ»(١)، فقلت: لا أضرب مملوكًا بعده أبدًا، وفي رواية: فسقط السوط من يدي من هيبته.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: نهى رسول الله ﷺ عن الضرب في الوجهِ، وعن الوَسْمِ في الوجه(٢).

٤١-٤٣- السب، واللعن، والبذاء: عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: **«سِبَابُ المُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»**(٣)، وعنه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لَيْسَ المُسْلِمُ بِالطَّعَّانِ، وَلَا اللَّعَّانِ، وَلَا الفَاحِشِ، وَلَا البَذِيءِ»**(٤).

٤٤، ٤٥- الطعن في نسبه، أو عرضه، أو قذفه، أو قذف أهله: قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا**﴾ [الأحزاب: ٥٨] وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: **«اثْنَتَانِ بِالنَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى المَيِّتِ»**(٥).

٤٦، ٤٧- الافتخار عليه، وتناجي اثنين دون الثالث: عن عياض بن حمار رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّ اللهَ قَدْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا، حَتَّى لا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ»**(٦) وتقدم، وعن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: **«إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فَلَا يَتَنَاجَ اثْنَانِ دُونَ الآخَرِ، حَتَّى تَخْتَلِطُوا بِالنَّاسِ؛ مِنْ أَجْلِ أَنَّ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ»**(٧).

عبدَ الله! انظر إلى هذه الحقوق المرغَّبِ فيها، وكذلك ما نُهيتَ عنه منها،

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٦٥٩).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢١١٧)، الوسم: وضع العلامة بالكيِّ.
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤).
(٤) صحيح: أخرجه الترمذي (١٩٧٧)، وصححه الألباني في [«صحيح الجامع» (٥٣٨١)].
(٥) صحيح: أخرجه مسلم (٦٧).
(٦) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٦٥).
(٧) صحيح: أخرجه البخاري (٦٢٩٠)، ومسلم (٢١٨٤)، التناجي: التحدث سرًّا.

واجلسْ مع نفسِـكَ جِلْسَةَ مُحَاسَـبَةٍ، هل أتممت ما ينبغي أن تفعلَه، وتركت ما ينبغي أن تَتْرُكَهُ؟ فإن كان هناك تقصيرٌ فتداركْ، ثُمَّ بعد أسبوع أو أكثرَ حاسبْ نفسك مَرَّةً أخرى، وكلَّما وجدت تقصيرًا تداركْ، واعلم أنَّ العلمَ بالتعلُّمِ، والحلمَ بالتَّحَلُّمِ، والصبرَ بالتصبُّرِ، وكل طاعة تحتاجُ إلى مجاهدةٍ بقدرها.

وحسنُ الخلقِ من الطاعات التي لا يُلَقَّاهَا إلا الذين صبروا، ولا يلقاها إلا كلُّ ذي حظٍّ عظيم، فينبغي أن تشارِط نفسك، فتتفق معها على القيام بهذه الأعمال، ومما يعينك على ذلك قراءةُ فضائِلِها وأحكامِها من مظانِّها في كتب الأخلاقِ والمعاملاتِ، وليكن مثلًا كتاب «**رياض الصالحين**» وشروحه.

فتتفق مع نفسك على هذه الأعمال، خاصَّةً الفرائض منها، وتُراقِبُها؛ لتَحُثَّهَا على الإتيانِ بها كما شارَطْتَها، ثم تحاسِبُها بعد فترةٍ، كم كان نصيبها من الزيارة في الله؟ كم كان نصيبُها من عيادَةِ المريضِ، وحضورِ الجنائزِ؟ هل ظلمتَ أخًا لك أو احتقرته؟ هل أفشيت سرًا أو ضَيَّعْت أمانةً؟ وهكذا، فإن وجدت تقصيرًا فتداركْ بالتوبةِ إلى الله وردِّ المظلمةِ إلى أهلِها، والتَّحَلُّلِ من المظلومِ.

ثم تجاهدُ نفسَك على الزيادةِ على القدر الواجب منها، وتحصيلِ الكمالِ المستحبِّ، وهذا يحتاجُ إلى بذل جهدٍ كبيرٍ وصبرٍ طويل حتى تصيرَ الأخلاقُ الحسنةُ والسلوكُ الطيبُ لك سَجِيَّةً[1] لا تحتاجُ إلى تكلُّفٍ في فعله، ولا تجد مشقةً في بذلِه، قال تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّـٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّـٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥]. نسأل الله أن يوفِّقَنا إلى ما يحبُّ ويرضى.

تربية النفس بالتحلِّي بالآداب الإسلامية والسَّمْتِ الوَقُور:

إن الآدابَ الإسلاميةَ والسَّمْتَ الظاهر لهما أعظم الأثر في تربية النفس وصلاح الباطن؛ وذلك لأن العَلاقة وثيقةٌ بين الظاهرِ والباطنِ، فكلٌّ منهما له

---

(١) سجيَّةٌ: طبيعة.

أثرُه الكبيرُ سلبًا وإيجابًا في الآخرِ.

فالثَّرْثـارُ وكثيـر التَّهْرِيـج والمِـزاح، والذي لا يتـأدَّبُ بـآداب الطريق ولا المجالس ولا اللباس، ولا الطعام، قلبُه لا شـكَّ مُشَـتَّتٌ مُهَلْهَلٌ كظاهرِه تمامًا، ولو سكن الباطن واطمأنَّ لسكن الظاهرُ واطمأن، والعكسُ بالعكس تمامًا.

فالشـخص الوقـورُ ذو السَّـمْتِ الهادئ، الـذي إذا نظرت إليـه في أيِّ حال وجدتَه يتأدَّبُ بالآدابِ الشرعيةِ المناسبةِ لهذا الحال، الشخصُ الذي إذا نظَرْتَ إليه وهو يأكلُ أو يشـربُ أو يجلسُ أو يمشي في الطريقِ أو يطلبُ العلمَ وجدْتَه يتـأدَّبُ بآدابه الشـرعية، هذا الشـخصُ لابُدَّ أن يكون باطنُه هكـذا مثلَ ظاهرِه، ثابتًا مطمئنًّا مسـتقرًّا، هذا الشـخص هو الحريُّ[1] بأن يزدادَ علمًا وأدبًا، وتربيةً وتزكيةً، وتَرَقِّيًا في سُلَّمِ العبوديةِ والتربيةِ والآدابِ والعلمِ والدعوةِ، قلبُه مستعد لاستقبالِ نسائمِ الإيمان إذا هبَّتْ؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «**إِذَا أَتَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَأْتُوا وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ**»[2].

أخـي الحبيـب! ينبغي أن تحـرِصَ علـى أن يجتمع في شـخصِك الأركانُ الثلاثةُ للشخصيةِ الناجحةِ الصالحةِ، التي يمكنُهَا أن تحمِلَ هَمَّ هذا الدينِ.

وهذه الأركان هي: «العُبُودِيَّةُ، والأخلاقُ الحسـنة، والسَّمْتُ الوَقور»، فإذا تحققت الشـخصية بهذه الثلاثـةِ الأركان كانت مُؤَهَّلَةً للترقِّـي في العلمِ بالدينِ، والعمـل بـه، والعمل لـه، والدعوةِ إليـه، فـإذا أردت أن تُوجِدَ من نفسِـكَ هذه الشـخصيةَ وتُكمِّلَ الخَلَلَ فيها من هذا الجانب الذي نحن بصدده، وهو جانب الأخلاق والآداب والسَّـمْتِ، فاعلم أن هذا الجانب مِثْلَهُ مِثْلُ جميعِ الجوانب السابقة يحتاج إلى مجاهدة للنَفسِ، ومصابرة، ومرابطة حتى تُقِيمَهَا شيئًا فشيئًا على طريق الجادَّة فيه.

---

(١) الحريُّ: الجدير.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٦٣٦)، ومسلم (٦٠٢).

ـ إذا علمت هذا؛ فاعلم أن هناك آدابًا خاصة وآدابًا عامةً، ينبغي عليك أن تتعلَّمها لتعمل بها، وتجاهد نفسك عليها.

أما الآداب الخاصة؛ فمنها:

آدابُ الطعام، والشراب، واللباسِ، والمجالسِ، والكلامِ، والزيارةِ، والطريقِ، والنومِ، والسفرِ، والأدبُ مع الكبيرِ والصغير.

ومن أهمِّ هذه الآداب الخاصَّةِ: آدابُ طالبِ العلمِ في نفسه، ومع أقرانه ومعلمه.

أما الآداب العامة؛ فمن أهمها:

السكينةُ، والوقارُ، والصَّمْتُ إلا بما لابُدَّ فيه من الكلام، وتركُ الثَّرْثَرَةِ والتَّهْرِيج، وقلةُ الضحك والمزاح، وتجنب فُحْش الكلام والتَّسرع في المواقف، وغيرُ ذلك من الآدابِ العامَّةِ.

ـ وسأسرد بعضَ الآدابَ الخاصَّة في عجالة؛ حتى تَحْفَظَها وتُذَكِّرَ نفسَك بها كلما جاءت مناسبتُها، وتجاهدَ نفسَك على امْتِثَالِهَا.

١- آداب المجلس، ومنها:

١ – أن ينوي نيةً صالحةً في كلِّ مجلس، وأن يتجنبَ مجالسَ المنكرِ، حتى تكونَ هذه المجالسُ في ميزان الحسناتِ، لا ميزانِ السيئاتِ.

٢ – إذا أراد أن يجلس يُسَلِّمُ على أهلِ المجلس أولًا.

٣ – ولا يُقِيمَنَّ أحدًا من مجلسه؛ ليقعُدَ فيه.

٤ – أن يجلسَ حيثُ انتهى به المجلسُ.

٥ – لا يجلس بين اثنين إلا بإذنهما.

٦ – لا يجلس في موضعِ قام عنه صاحبُه لحاجة عازمًا على الرجوع.

٧ – لا يجلس وَسْطَ الحَلْقَةِ.

٨- أن يجلسَ وعليه السكينةُ والوقارُ، فلا يُشَبِّكُ أصابعَه، ولا يَعْبَثُ بلحيتِه أو خاتَمِهِ، وليكن مجلسُه هادئًا قليلَ الحركةِ، فلا يُدْخِلُ أصبعه في أنفِه، ولا يُخَلِّلُ أسنانَهُ.

٩- ويَتَجَنَّبُ كثرةَ البُصَاقِ والتَّنَخُّمِ، والعطاس، والتثاؤُبِ.

١٠- لا يكثر من الكلامِ، ويتجنبُ المِزاحَ والمراء.

١١- لا يتحدثُ بإعجاب عن أهله وأولاده، أو صناعته أو إنتاجِه المادِّيِّ أو الأدبيِّ.

١٢- إذا تحدث غيرُه أصغى إليه، يسمعُ غير مُفْرِط في الإعجابِ بحديث من يسمعه، ولا يقاطِع الكلام، أو يطلب إليه إعادته؛ لأنَّ ذلك يسوءُ المتحدِّثَ.

١٣- أن يذكرَ الله، ويصلي على النبيِّ ﷺ في كلِّ مجلس، ويُذَكِّرَ جلساءَهُ بذلك.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللهَ تَعَالَى فِيهِ، وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَى نَبِيِّهِمْ فِيهِ، إِلَّا كَانَ عَلَيْهِمْ تِرَةٌ، فَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ**»(١).

١٤- أن يأمر بالمعروفِ، وينهى عن المنكرِ في المجلس إن وَجَدَ ما يحتاجُ إلى ذلك، فإن لم يستطع إزالةَ المنكرِ قام من المجلس.

١٥- أن يختِم المجلس بالذكر الوارد.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسٍ فَكَثُرَ فِيهِ لَغَطُهُ، فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ ذَلِكَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ ذَاكَ**»(٢).

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٣٨٠)، وصححه الألباني في [«صحيح الجامع» (٥٦٠٧)]، تِرَةٌ: تَبِعَة ومعاتبة أو نقصان وحسرة.

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٤٣٣)، وصححه الألباني في [«صحيح الجامع» (٦١٩٢)]، لغطه؛

٢- آداب الطريق:

- من آدابِ الجلوسِ في الطريقِ:

١- غضُّ البصرِ.

٢- كفُّ الأذى، ومن ذلك: ألا يَعْتَرِضَ طريقَ المارَّةِ، ولا يُضَيِّقَ عليهم.

٣- رَدُّ السلامِ.

٤- الأمرُ بالمعروفِ، والنهيُّ عن المنكرِ.

٥- إرشادُ الضالِّ، فلو اسْتَرْشَدَهُ أحدٌ إلى منزلٍ أَرْشَدَه، أو أرادَ مَعْرِفَةَ طريقٍ أو إنسانٍ دَلَّهُ عليه.

- ومن آدابِ المشي في الطريق:

١- ما يسبق من آداب الجلوس.

٢- أن تَمْشِي المرأةُ في جانب الطريقِ ما استطاعتْ.

٣- أن يلتزم التعليماتِ الإرشاديَّة؛ حتى لا يُؤْذِيَ نفسَه ويُعَرْقِلَ حركةَ النَّاسِ والسَّيَّارَاتِ.

٣- آداب الأكل والشرب:

- ينبغي أن يراعي قبل الطعام والشراب الآداب التالية:

١- أن يَسْتَطيبَ طعامَهُ وشرابَه، بأن يُعِدَّهُمَا من الحلالِ الطيِّبِ الخالي من الحرامِ والشُّبَهِ.

٢- أن يَنْوِيَ بأكلِه وشُرْبِه التقوِّيَ على طاعةِ اللـه وعبادته؛ ليثابَ على ما أكله وشربه، فالمباحُ يصيرُ بحسنِ النيةِ طاعةً يثابُ عليها المسلمُ.

٣- أن يغسل يديهِ قبل الأكلِ إن كان بهما أذى، أو لم يتأكدْ من نظافتِهما.

٤- أن يضع طعامَه على سفرةٍ فوقَ الأرض، لا على مائدة مرتفعةٍ؛ إذ هذا

اللَّغَطُ: اختلاط الأصوات وارتفاعها بما لا يفهم.

أقربُ إلى التواضعِ.

٥- أن يتجنَّبَ الأكلَ أو الشربَ في أواني الذهب والفضة.

٦- أن يجلسَ متواضعًا؛ بأن يجثو على ركبته ويجلس على ظهر قدميه، أو ينصبَ رِجْلَه اليمنى ويجلس على اليسرى، ولا يأكل متكئًا.

٧- أن يرضى بالموجود من الطَّعام وألَّا يعيبه، فإن أعجبه أكل، وإن لم يعجبه ترك.

٨- أن يأكل مع غيرِه؛ من ضيفٍ، أو أهلٍ، أو ولدٍ، أو خادم.

من الآداب التي ينبغي أن يُرَاعِيَها أثناء الطَّعام:

١- أن يبدأ «باسم الله».

٢- أن يأكلَ بثلاثةِ أصابعَ من يدِهِ اليمنى، ولا يأكلَ بأقلَّ؛ لأنه كِبْرٌ، ولا بأكثرِ؛ لأنه نَهَمٌ.

٣- أن يأكلَ مما يليه، لا من وَسْطِ القصعةِ.

٤- أن يُصَغِّرَ اللقمةَ، ويجيد المضغ.

٥- ألَّا يَنْفُخَ في الطعامِ الحارِّ، وألا يَطْعَمَهُ حتى يَبْرُدَ.

٦- أن يتجنَّبَ الشِّبَعَ المُفْرِطَ.

٧- أن يَلْعَقَ الصحْفة وأصابِعَه قبل مَسْحِها بالمنديلِ، أو غسلِها بالماء.

٨- إذا سقط منه شيءٌ مما يأكل أزالَ عنه الأذى وأكله.

٩- أن يحمدَ الله عقب أكله، وأن يدعو لمن قدَّم له الطعام.

١٠- أن يُخَلِّلَ أسنانه، ويتمضمض.

١١- أن يمسح يديه، أو يغسِلَهُما بعد الطعام.

من آداب الطعام مع الغير:

إذا كان يأكل مع غيره ينبغي أن يتأدَّبَ بالآداب الآتية:

١- ألَّا يبدأ بتناول الطعام أو الشراب وفي المجلس من هو أولى منه بالتقديم؛ لكِبَرِ سِنٍّ أو زيادةِ فضلٍ؛ لأن ذلك مخلٌّ بالآداب، يُعَرِّضُ صَاحِبَه لوصف الجَشَعِ المذموم.

٢- أن يتناولَ الطعامَ أو الشرابَ أكبرُ الجالسين ثُمَّ يديرَه الأيمنُ فالأيمنُ، وأن يكونَ الساقي آخرَ القوم شربًا.

٣- أن يَرْفُقَ برفيقه في الأكل، فلا يحاوِلُ أن يأكلَ أكثرَ منه، ولا سيما إذا كان الطعامُ قليلًا، وإذا كان يأكل تمرًا أو ما أشبهه فلا يقرِنُه إلا بإذنه.

٤- ألَّا ينظرَ إلى الرُّفقاء أثناءَ الأكل، بل يحاول أن يَغُضَّ بصره عن الأَكَلَةِ حَوْلَهُ؛ حتى لا يؤذِيَهُم ويُحْرِجَهُم.

٥- ألا يفعل ما يستقذره الناسُ عادةً، فلا ينفُضُ يدَه في القَصْعَةِ، ولا يُدْنِي رأسَه منها عند الأكل والتناول؛ لئلا يَسْقُطَ من فَمِهِ شيءٌ فيقعُ فيها، وإذا أخذ بأسنانِه شيئًا من الخبزِ لا يغمِسُ بقيته في القَصْعَةِ.

٦- ألا يتكلمَ بالألفاظ الدالَّةِ على القاذوراتِ، والأوساخِ؛ إذ ربما يتأذى بذلك أحدُ الرفقاءِ.

٧- ألا يُحْوِجَ رفيقَه أو مُضِيفَه إلى أن يقولَ له: كل، ويُلِحَّ عليه، بل عليه أن يأكل في أدب كفايته من الطعام من غير حياءٍ أو تكلُّفٍ للحياءِ؛ إذ في ذلك إحراجٌ لرفيقِه، كما فيه نوعُ رياءٍ.

٨- أن يكون أكلُه مع الفقيرِ قائمًا على إيثارِه، ومع الإخوان قائمًا على الانبساطِ والمداعبَةِ المَرِحَةِ، ومع ذوي الرُّتَبِ والهيئات على الأدبِ والاحترامِ.

آداب الشرب هي:

١- أن يَسْتَطِيبَ شرابَه كما يستطيبُ طعامَهُ.

٢- أن يَنْوِيَ بشُرْبِه التَّقَوِّي على الطاعَةِ.

٣- أن يبدأ (باسم الله).

٤- أن يشربَ جالسًا.

٥- ألَّا يَنْفُخَ في الشرابِ، ولا يَتَنَفَّسَ فيه.

٦- أن يشربَ على ثلاثةِ أَنْفَاسٍ.

٧- ألَّا يشربَ من فِيِّ السقاءِ.

٨- أن يحمد اللَه بعد الانتهاء، ويدعوَ لمن قدَّمَ له الشرابَ.

٤- آداب الضيافة:

من آداب الدعوةِ إلى الضيافةِ:

١- أن يَدْعُوَ لضيافتِه الأتقياءَ دونَ الفُسَّاقِ والفَجَرَةِ.

٢- ألَّا يخصَّ بضيافتِه الأغنياءَ دُونَ الفقراءِ.

٣- ألَّا يقْصِدَ ضيافَتِهِ التَّفاخُرَ والمباهاةَ، بل يقصدُ الاستنانَ بسنةِ النبيِّ ﷺ والأنبياءِ من قبلِهِ في إكرامهم للضيفِ، وينوي إدخالَ السُّرورِ على المؤمنين، وإشاعةِ الغِبْطَةِ والبَهْجَةِ في قلوبِهم.

٤- ألَّا يدعو إليها من يعلم أنه يَشُقُّ عليه الحضورُ، أو أنَّهُ يتأذَّى ببعضِ الحضورِ تجنبًا لأذى المسلم.

من آداب إجابة الدعوة:

١- أن يُجِيبَ الدعوةَ ولا يتأخرَ إلا من عذرٍ.

٢- ألَّا يفرق في الإجابة بين بعيد المسافة وقريبها طالما أنه لا يَشُقُّ عليه، وإن وُجِّهَتْ إليه دعوتان أجاب السابقَ منهما واعتذرَ للآخرِ.

٣- ألَّا يتأخَّرَ من أجلِ صومِه، بل يحضرُ ثم إن شاء أفطرَ وأكل؛ ليُدْخِلَ السرورَ على أخيه، وإن شاء دعا له بخير.

٤- أن يَنْوِيَ بإجابته إكرامَ أخيهِ المسلمِ؛ ليُثَابَ عليه.

٥- ألا يُطِيلَ الانتظارَ عليهم قبل الحضورِ فيُقْلِقَهُم، وألا يُعَجِّلَ المجيءَ فيُفَاجِئَهم قبل الاسْتِعْدَادِ.

٦- إذا دخلَ فلا يَتَصَدَّرَ المجلسَ، بل يتواضعُ في المجلسِ، وإذا أشار إليه صاحبُ المحلِّ بالجلوس في مكان جلس فيه ولا يفارقُه.

٧- إذا نزل المغترب ضيفًا على أحدٍ فلا يزيدَنَّ على ثلاثةِ أيام، إلا أن يُلِحَّ عليه مُضِيفُه في الإقامةِ أكثرَ، وإذا انصرفَ استأذنه لانصرافِه.

٨- أن ينصرف الضيفُ طيِّبَ النفسِ، ليس في نفسِه شيءٌ على مُضِيفِهِ، وإن جرى في حقه تقصير؛ لأن ذلك من حسنِ الخلقِ.

من آداب المضيف:

١- أن يُحْسِنَ استقبالَ ضيفه ويكرِمَه في المجلسِ، ومن الإكرامِ أن يكونَ للأضيافِ فراشٌ خاصٌّ غيرُ فراشِه وفراشِ أهلِه.

٢- أن يُقَدِّمَ للضيفِ أَطْيَبَ ما عنده خاصَّةً ما قد يعلم أنه يحبُّه.

٣- أن يُعَجِّلَ بتقديمِ الطعامِ للضيفِ؛ لأنَّ في تعجيله إكرامًا له.

٤- ألَّا يكثرَ النظر إليه أثناء الطعامِ حتى لا يُحْرِجَهُ.

٥- ألَّا يُبَادِرَ برفعِ الطعام قبل أن ترتفعَ الأيدي عنه.

٦- أن يُشَيِّعَ الضيفَ بالخروج معه إلى خارج المنزلِ، ويُشْعِرَهُ بالابتهاجِ لحضورِه، والسعادةِ بتلبيةِ الدعوةِ.

٥- آداب السفر:

مما ينبغي أن يراعى استعدادًا للسفر:

١- أن يَنْوِيَ بسفره نيَّةً صالحةً.

٢- أن يَرُدَّ المظالِمَ والودائعَ إلى أهلِهَا؛ إذ السفرُ مَظِنَّةُ الهلاكِ.

٣- أن يُعِدَّ زادَه من الحلالِ وأن يتركَ نفقةَ من تَجِبُ عليه نفقَتُه؛ من زوجةٍ وولدٍ ووالدٍ.

٤- أن يُصَلِّيَ قبلَ سفرِه صلاةَ الاستخارةِ.

٥- أن يتواعدَ مع رُفْقَةٍ صالحةٍ للسفر معه، والأولى ألَّا يَقِلَّ المجموعُ عن ثلاثةٍ، ويُؤَمِّرُوا أحدَهم يقودُهم في سفرِهم بمَشُورَتِهِمْ.

٦- ألا تَهُمَّ المرأةُ بسفرٍ إلا مع ذي محرم.

من آداب السفر:

١- أن يخرج أولَّ النهارِ، والأولى أن يكون يومَ الخميسِ.

٢- أن يُوَدِّعَ أهلَه وإخوانَه وأصدقَاءَه، وأن يدعُوَ بهذا الدعاءِ: أستودعُ اللهَ دينَك وأمانَتَك وخواتيمَ عملك، ويقول المودِّعُ له: زوَّدَكَ اللهُ التقوى، وغفر ذنبك، ويَسَّرَ لك الخيرَ حيثُما كنت.

٣- أن يَدْعُوَ بدعاءِ ركوب الدَّابة:

عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجًا إلى سفرٍ كبَّرَ ثلاثًا، ثم قال: «**سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ، وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَى، وَمِنْ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى، اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وكَآبَةِ الْمَنْظَرِ، وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ فِي الْمَالِ وَالْأَهْلِ وَالْوَلَدِ**»، وإذا رجع قالهن وزاد فيهن: «**آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ**»[1].

٤- أن يُكَبِّرَ كُلَّما صَعِدَ مُرْتَفَعًا، ويُسَبِّحَ إذا نزل.

٥- إذا خاف ناسًا قال: اللهم إنا نجعلُك في نحورِهم ونعوذُ بك

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٣٤٢)، الوعثاء: الشدة والمشقة، المنقلب: الرجوع، آيبون: راجعون.

من شرورِهِم.

٦- أن يَدْعُوَ في سفره، ويسأَلَ اللَّه من خير الدنيا والآخرةِ؛ إذ الدعاءُ في السفر مستجابٌ.

٧- إذا نزل منزلًا قال: أعوذ بكلماتِ اللهِ التَّامَّاتِ من شرِّ ما خَلَقَ.

٨- أن يُعَجِّلَ الأَوْبَةَ والرجوعَ إلى أهلِه وبلادِه إذا هو قضى حاجته من سفرِه.

٩- أن يَدْعُوَ بدعاءِ العَوْدَةِ: عن أنس رضي الله عنه، قال: أقبلنا مع النبي صلى الله عليه وسلم حتى إذا كنا بظهر المدينة، قال: «**آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ**»، فلم يزلْ يقول حتى قدمنا المدينة [(١)].

١٠- ألَّا يَطْرُقَ [(٢)] أهله ليلاً، وأن يبعثَ إليهم من يُبَشِّرُهم حتى لا يفاجِئَهُم بمَقْدِمِه عليهم.

١١- أن يبدأ بالمسجدِ إذا قدم من سفره فيصلي ركعتين.

٦- آداب اللباس، ومنها:

١- أن يتجنَّبَ ما يَحْرُمُ منه كلبسِ الذهبِ والحريرِ للرجالِ، ولباس الشُّهْرَة والخيلاءِ، وما فيه تشبُّهٌ بالكفار، أو تشبُّهُ الرجالِ بالنساءِ، أو النِّساءِ بالرِّجَالِ.

٢- أن يتحرَّى الرجلُ ما يستُر عوْرَتَه، وكذلك سَتْرُ ما لا يحسنُ كَشْفُه، فيلبَسُ القميصَ والسراوِيلَ والعِمَامَةَ، أو الإزارَ والرِّدَاءَ والعِمَامَةَ، أو ما يقومُ مقام ذلك.

٣- يُستحبُّ لبسُ القميصِ وأن يكونَ أبيضَ، ويجوزُ غيرُ الأبيض من الثياب.

٤- بالنسبة للإناث يجب أن يكون واسعًا فضفاضًا، وأن يكون ساترًا

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٠٨٥)، ومسلم (١٣٤٥).

(٢) الطروق: الإتيان في الليل فجأة.

لجميع بدنها، وأن يكون صفيقًا لا يشف عما تحته، ويحرم أن يكون زينة في نفسه.

٥- يستحب أن يتوسط في الثياب، فلا يغالي فيه إلى حدِّ السَّرَف والشُّهْرَة، ولا يقتصر على ما يُزْرِي لغيرِ حاجةٍ ولا مقصودٍ شرعي.

٦- أن يبدأ باليُمْنَى في اللِّباسِ وباليُسْرَى في النَّزْعِ.

٧- أن يَدْعُوَ بالدعاءِ المأثورِ عند لبسِ الثِّيابِ أو النَّعْلِ الجديدِ:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا اسْتَجَدَّ ثوبًا سَمَّاه باسْمِه، عِمَامَةً، أو قميصًا، أو رِدَاءً، يقول: «**اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ، أَنْتَ كَسَوْتَنِيهِ، أَسْأَلُكَ خَيْرَهُ، وَخَيْرَ مَا صُنِعَ لَهُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ وَشَرِّ مَا صُنِعَ لَهُ**»[(١)].

وأن يَدْعُوَ له من رَأَى عليه ذلك، فيقولُ: أَبْلِ وأَخْلِقْ.

٧- آداب النوم، ومنها:

١- أَلَّا يُؤَخِّرَ نومَه بعد صلاةِ العشاءِ إلا لحاجةٍ كمذاكرةِ علمٍ، أو محادَثة ضيفٍ أو مؤانَسَة أهلٍ.

٢- أن ينوِي بنومِه التقوِّي على العبادَة، وخاصَّةً القيامِ في الثُّلُثِ الأخيرِ من الليلِ، وصلاة الفجرِ.

٣- أن يجتهدَ ألا ينامَ إلا على وضوءٍ.

٤- أن يَنْفُضَ الفراش بداخِلَة إزَارِه قبل أن ينامَ.

٥- أن يضْطَجِعَ على شِقِّهِ الأيمنِ، ويقولَ من الأذكارِ المسنونةِ عند النومِ ما استطاعَ:

عن البراء بن عازب رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشِه نام على شِقِّهِ الأيمنِ، ثم قال: «**اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ،**

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٠٢٠)، والترمذي (١٧٦٧)، وصححه الألباني في [«صحيح الجامع» (٤٦٦٤)].

وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لا مَلْجَأَ وَلا مَنْجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ» (١).

وعن حذيفة رضي الله عنه، قال: كان النبيُّ ﷺ إذا أخذ مَضْجَعَهُ من الليل وضع يَده تحتَ خدِّه، ثم يقولُ: «**اللَّهُمَّ بِاسْمِكَ أَمُوتُ وَأَحْيَا**»، وإذا استيقظ قال: «**الحَمْدُ لِلهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**» (٢)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ، قال: «**مَنْ قَعَدَ مَقْعَدًا لَمْ يَذْكُرْ اللَّهَ تَعَالَى فِيهِ كَانَتْ عَلَيهِ مِنْ اللهِ تِرَةٌ، وَمَنْ اضْطَجَعَ مَضْجَعًا لا يَذْكُرُ اللهَ تَعَالَى فِيهِ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ اللهِ تِرَةٌ**» (٣).

التِّرةُ؛ بكسر التاء: وهي النقص، وقيل التَّبِعَةُ.

عن عليٍّ رضي الله عنه أن رسولَ الله ﷺ قال له ولفاطمةَ رضي الله عنها: «**إِذَا أَوَيْتُمَا إِلَى فِرَاشِكُمَا، أَوْ إِذَا أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا، فَكَبِّرَا ثَلاثًا وَثَلاثِينَ، وَسَبِّحَا ثَلاثًا وَثَلاثِينَ، وَاحْمَدَا ثَلاثًا وَثَلاثِينَ**»، وفي رواية: التسبيح أربعًا وثلاثين، وفي رواية التكبير أربعًا وثلاثين (٤).

٥- أن يتجنَّبَ الاضطجاعَ على بَطْنِه.

٦- أن يقول إذا استيقظ من نومِه أو تقلَّبَ في فراشِه ما في الحديث: «**مَنْ تَعَارَّ مِنْ اللَّيْلِ فَقَالَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ، سُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ للهِ، وَلا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، ثُمَّ دَعَا اسْتُجِيبَ لَهُ، فَإِنْ قَامَ فَتَوَضَّأَ فَصَلَّى قُبِلَتْ صَلاتُهُ**» (٥).

ومما يشرع من الآداب عند الاستيقاظ أيضًا:

٧- أن يقول الأذكار الواردة ما استطاع، ومن ذلك: «الحمد لله الذي أحيانا

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٤٧)، ومسلم (٢٧١٠).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٦٣١٤)، ومسلم (٢٧١١).

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٨٥٦)، والترمذي (٣٣٨٠)، وقد سبق.

(٤) صحيح: رواه البخاري (٦٣١٨)، ومسلم (٢٧٢٧).

(٥) صحيح: أخرجه البخاري (١١٥٤).

بعد ما أماتنا، وإليه النشور».

٨- إذا رأى رؤيـا يحبُّها فليحمد الله، وليحـدث بها من يحب، وإذا رأى ما يكرَهُ فليستعذ به ولينفث عن يساره ثلاثًا، ولا يخبر بها أحدًا.

٩- السواك.

١٠- الاستنثار ثلاثًا.

١١- غسل اليدين ثلاثًا.

٨- آداب الخلاء، ومنها:

١، ٢- الدخولُ باليسـرى، وذكر الدخول فيقول: باسم الله، اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث [١].

٣- تركُ استقبالِ القبلة واستدبارِها في الصحراء بلا حائل [٢].

٤- أن لا يمسَّ ذكرَه بيمينِه، ولا يتَمَسَّحْ بيمينه [٣].

٥- أن يتجنَّب ما يَحْرُمُ في الاسـتجمارِ، وهو الاسـتجمارُ بالعظم والروث والطعام [٤].

٦- الأولى الاسـتنجاء بالماء، وإن استجمر بالحجارة جاز، بشرط ألا تقل عن ثلاث مسحات، وأن يزيد حتى يخرج آخر حجر بلا بلل عليه.

٧- أن يخرج باليمنى، ويقول: غفرانك [٥].

---

(١) الاسـتعاذة رواها البخاري (١٤٢)، ومسلم (٣٧٥)، وزيادة: باسم الله رواها الترمذي (٦٠٦)، وابن ماجه (٢٩٧)، وصححه الألباني في [«الإرواء» (٥١)].

(٢) أما النهي عن الاسـتقبال والاسـتدبار فلحديث أبـي أيوب مرفوعًا، رواه البخاري (٣٩٤)، ومسـلم (٢٦٤)، وغيره من الأحاديث، وتخصيص ذلك بالصحراء لحديث ابن عمر رضي الله عنهما: رقيت يومًا على بيت حفصة فرأيت النبي ﷺ قاعدًا على حاجته مستقبل الشام مستدبر القبلة، رواه البخاري (١٤٥)، ومسلم (٢٦٦).

(٣) لحديث أبي قتادة رضي الله عنه، رواه البخاري (١٥٣)، ومسلم (٢٦٧).

(٤) يُنْظَرُ حديث أبي هريرة رضي الله عنه في صحيح البخاري (٣٨٦٠).

(٥) عن عائشة رضي الله عنها، قالت كان النبي ﷺ إذا خرج من الخلاء قال: «**غفرانك**»، أخرجه الترمذي (٧)، =

آداب الفِطْـرَةِ ذكرهـا النبـيُّ ﷺ في قوله:«**خَمْسٌ مِنْ الْفِطْرَةِ: الْاسْـتِحْدَادُ، وَالخِتَانُ، وَقَصُّ الشَّارِبِ، وَنَتْفُ الإِبِطِ، وَتَقْلِيمُ الْأَظَافِرِ**» .

وفي قوله :«**عَشْرٌ مِنْ الْفِطْرَةِ:...**».

١ – الاستحدادُ: وهو حَلْقُ العانةِ، وإزالتها بأيِّ مُزِيلٍ.

٢– الختان للذكورِ والإناثِ.

٣– قصُّ الشاربِ، فالمسلمُ يَجُزُّ شارِبَهُ، ويعفو عن لِحْيَتِهِ.

٤– نتف الإِبطِ.

٥– تقليمُ الأظافر، ويستَحَبُّ أن يَبْدَأَ باليُمْنَى، ولا يجوزُ أن يترك نَتْفَ الإِبطِ ولا قَصَّ الشَّوَارِبِ ولا الاستحدَاد أكثرَ من أربعين يومًا.

مما ينبغي أن يُرَاعَى كذلك:

٦– أنه إذا حلق شَعْرَ رأْسِه حَلَقَهُ كُلَّه أو تركه كُلَّه، لنهْيِه عن القَزَعِ .

٧– إن ترك شعره أن يكرمَه.

٨– أن يغيِّرَ الشَّيْبَ، ويَتَجَنَّبَ السَّوَادَ.

٩– أن يحافِـظَ على السـواكِ، خاصَّةً عند الصلاةِ، والوضـوءِ، والقيامِ من النومِ، ودخولِ البيتِ، وتلاوة القرآنِ.

١٠ – أن تتجنَّبَ النساءُ النَّمْصَ والوَشْمَ والتَّفْلِيجَ ووَصْلَ الشعرِ .

آداب الدخول [illegible] الخروج من البيت، ومنها:

١ – ذكرُ الله عندَ الدخولِ، فيقول: باسم الله.

= وأبو داود (٣٠)، وابن ماجه (٣٠٠)، وصححه الألباني في [«الإرواء» (١/ ٩١)].

صحيح: رواه البخاري (٥٨٨٩)، ومسلم (٢٥٧).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٥٩٢٠)، ومسلم (٢١٢٠).

(٣) النمص: ترقيق الحواجب، الوشـم: وخز الجلد بإبرة وحشوه كحلًا ونحوه، والتفليج: تفريق ما بين الأسنان، والوصل: وصل الشعر بشعر آخر (الباروكة ونحوها).

٢- السلام على أهلِه.

٣- السواكُ.

٤- إذا أراد الخروجَ يُوَدِّعُ أهلَه، ويقول عند خروجه: بسم الله، تَوَكَّلْتُ على الله، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله (١).

١١- آداب الذهاب إلى المسجد، ومنها:

١- التبكير بالذهاب إلى المسجد، ليدرك فضيلة الصف الأول، وانتظار الصلاة.

٢- الوضوء قبل الخروج إلى المسجد.

٣- ذكر الخروج من البيت، وتقدم.

٤- المشي بسكِينَةٍ ووَقَارٍ.

٥- الذهابُ إلى المسجد ماشيًا.

٦- أن يتأدب بآداب الطريق؛ من: غضِّ البصرِ، وكفِّ الأذى، والأمر بالمعروف؛ ومنه الصلاة، والنهي عن المنكر، وأن يمشي النساء على جانب الطريق.

٧- الذكر عند دخول المسجد، فيقول: باسم الله، اللهم صل على محمد، اللهم افتح لي أبواب رحمتك (٢).

٨- تقديم اليُمْنَى عند الدخول.

٩، ١٠- أن يتقدَّمَ إلى الصفِّ الأَوَّل إذا وَجَدَ له مكانًا فيه، ولا يتخطَّى الرقابَ، ولا يَمُرُّ بين يَدَيْ مصلٍّ.

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٥٠٩٥)، والترمذي (٣٤٢٦)، وصححه الألباني في [«صحيح الترمذي» (٣٤٢٦)].

(٢) ينظر: صحيح مسلم (٧١٣)، سنن ابن ماجه (٧٧١)، وصححه الألباني في [«صحيح الجامع» (٤٧١٦)].

١١- يصلِّي تحيةَ المسجد.

١٢- أن ينشغل في المسجد بالذكر والتلاوة والصلاة، ولا يتكلم بأمور الدنيا إلا لحاجة، وألا يَرْفَعَ صوته فيؤذي الناس ويشغلهم.

١٣، ١٤- أن يخرج باليسرى، ويدعو بالدعاء المسنون، فيقول: باسم الله، اللهم صل على محمد، اللهم افتح لي أبواب فضلك[١].

١٢- آداب السلام:

إلقاء السلام سنة والرد واجب.

من آداب السلام:

١- أن يَقْرَأَ السلامَ على من عَرَفَ ومن لم يَعْرِفْ.

٢- لا يكتفي بقوله: السلام عليكم، بل يقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ويكون الرد كذلك.

٣- أن يتحرَّى أن يَبْدَأَ هو بالسلام.

٤- أن يُسَلِّمَ الماشي على الراكب، والصغير على الكبير، والأقل على الأكثر.

٥- إذا سلَّم على أخيه ثم حال بينهما حائل ثم لقيه بعده أن يُعِيدَ السلام.

٦- أن يُسَلِّمَ إذا فارق المَجْلِسَ كما سلَّم إذا أتاهم.

١٣- آداب اللقاء، ومنها:

١- أن يتحرى أن يبدأ هو بإلقاء السلام.

٢- بشاشة الوجه.

٣- المُصَافَحَة.

٤- استقبالُه بكلمةٍ طيبةٍ من السلامِ والدُّعاء، والتبشير يَسُرُّ.

---

(١) صحيح: رواه ابن ماجه (٧٧١)، وصححه الألباني في [«صحيح الجامع» (٤٧١٦)].

٥- توديعَه عند المفارَقَة بالسلام.

[illegible]

اعلم أن الاستئذانُ واجب، فإن أُذِنَ لك وإلَّا فارجع، ومما ينبغي أن يتأدب به من آداب الاستئذان:

١- أن يقف على جانب الباب، ولا يستقبله بوجهه؛ حتى لا يَسْبِق بصرُه إلى الدَّاخل فيقع على ما لا يجوزُ.

٢- أن يَدُقَّ البابَ، أو يقولَ: السلام عليكم، أأدخل؟ فإن قيل: من؟ أجاب باسمه، ولا يقول: أنا.

٣- إن لم يجبه أعادَ إلى ثلاثٍ، فإن أجيبَ وإلا رَجَعَ.

٤- إذا أجابه فقال: ارجع، رجع ولا يجد شيئًا في نفسِه، ولْيُحْسِنَ الظنَّ بأخيهِ.

٥- وينبغي لمن اسْتُؤْذِنَ عليه ألَّا يتأخرَ في الجواب، ولا يرده، فلعله في حاجة هامة، ولعل ردَّه يؤذيه، فمن الإحسان ألَّا يرُدَّه.

١٦- [illegible]

١- أن يَنْوِيَ بها نيةً صالحةً، سواءٌ كانت عيادةَ مريضٍ، أوصلةَ رحمٍ، أو زيارةَ أخيك في الله [illegible].

٢- أن يتخيَّرَ لها الوقتَ المناسِبَ للمَزُورِ؛ حتى لا يَشُقَّ عليه.

٣- أن يَصْطَحِبَ معه هَدِيَّةً، و قليلة؛ فإن ذلك يُدْخِلُ السرورَ عليه، «**تَهَادُوا تَحَابُوا**»(١).

٤- أن يتأدَّبَ بآداب الاستئذانِ.

٥- أن يجلسَ حيثُ أمرَهُ المَزُورُ، ولا يَجْلِسَ على تَكْرِمَتِهِ إلا بإِذْنِهِ.

---

(١) حسن: رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٩٤)، وحسنه الألباني في [«الإرواء» (٦/ ٤٤)].

٦- أن يَغُضَّ بصَرَه، ولا يَجُولَ عينيه في بيتِه فيَطَّلِعَ على عَوْرَاتِهِ.

٧- أن يَكْتُمَ ما رآه أو سمعه مما يَسُوءُ مَزُورَهُ.

٨- أن ينفـع المزورَ؛ بتذكيـرٍ بطاعةٍ، أو أمرٍ بمعروفٍ، أو نهيٍ عن منكرٍ، أو نصيحةٍ، أو رقية إذا كان مريضًا.

٩- أن يتأدَّب بآدابِ الضيافة إذا قدم له شيئًا.

١٠- ألَّا يطيل عنده فيَشُقَّ عليه.

من آداب المزور:

١- أن يجتهدَ ألا يَرُدَّ الزائرَ إذا استأذنَ عليه.

٢- أن يَسْتَقْبِلَهُ بالبشاشة والترحيب، ويظهِرَ سعادَتَه بقُدُومِه.

٣- ألَّا يَرُدَّ هديَّتَهُ إذا أَهْدَاه؛ فإن النبيَّ ﷺ كان يقبل الهدية[(١)].

٤- أن يُجْلِسَـه في موضعٍ مُنَاسِـبٍ، فمن السنةِ أن يكون هناك فراشٌ خاصٌّ بالمَضِيفِ.

٥- أن يقدِّم له ما يُكْرِمُه به؛ من طعامٍ، أو شـرابٍ، أو غيرِه، ويتأدَّبَ بآدابِ الضيافةِ.

٦- أن يَقْضِيَ حاجَتَهُ إن كانت له حاجةَ، ولا يُشْعِرُه بالمللِ من زيارتِهِ.

٧- أن يُوَدِّعَه إذا أراد أن يَخْرُجَ؛ بالخروجِ معه إلى خارج البيتِ، وبالبشاشةِ والكلمة الطيِّبةِ.

١٦- آداب طالب العلم، ومنها:

١- إخلاص النية: قال ﷺ: «**مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ، لا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنْ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرَفَ الجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[(٢)] يعني: ريحها.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٥٨٥).

(٢) صحيـح: أخرجه أبو داود (٣٦٦٤)، وابـن ماجه (٢٥٢)، وصححه الألبـاني في [«صحيح الجامع» (٦١٥٩)].

٢- أن يحـرِصَ الطالـبُ على أن يَعْمَـلَ بما عَلِمَ، ويدعو إليه بلسـان حالِه ولسانِ مقالِه.

٣- أن يحرص على التَّدرُّجِ في الطلبِ؛ بحيث يبدأ بصغارِ العلم قبلَ كِبَارِه، فيأَخـذُ المختصراتِ، ثم المتوسـطاتِ، ثـم المُطَوَّلاتِ، وأن يتَعَلَّمَ ما لا يسـعُ جهلُه من العلوم أولًا.

٤- مـن آدابِ طالب العلم كذلك: طهارةُ الظاهرِ والباطـنِ، فَيُطَهِّرُ ظاهِرَه بمجانبـة البِـدَعِ والتَّحلِّي بالسُّـنَنِ النبويـةِ في أحوالـه كلِّها، والتـأدُّبِ بالآدابِ الإسـلاميةِ ويحافِـظُ على الوضـوءِ ونظافةِ الجسـم والمَظْهَرِ من غيـرِ تكلُّفٍ، ويتحلَّى بالسـكينةِ والوقارِ والخشـيةِ، ويتجنَّبُ اللَّعِبَ والعبـثَ وكثرةَ المزاحِ والضحكِ.

وكذلـك يُطَهِّرُ باطِنـه كما قال الغزالـي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أن يقدِّمَ طهـارة النفس عن رذائل الأخلاقِ، ومذمومِ الصِّفاتِ؛ إذ العلم عبادةُ القلبِ، وصلاةُ السِّرِّ، وقربةُ الباطنِ إلى الله تعالى، وكما لا تصحُّ الصلاةُ - التي هي وظيفةُ الجوارحِ الظاهرةِ - إلا بتطهير الظاهرِ عن الأخباثِ، فكذلك لا تصحُّ عبادةُ الباطنِ وعمارةِ القلبِ بالعلمِ إلا بعدَ طهارتِه عن خبائثِ الأخلاقِ، وأنجاسِ الأوصافِ».

فينبغـي لطالـب العلم أن يُطَهِّـرَ قلبَه من كل غشٍّ، ودَنَسٍ، وغِلٍّ، وحسـدٍ، وسـوء عقيدة، وسـوء خُلُـق، ويطيِّبَه بالتوبـةِ والإنابـةِ، والإخباتِ والخشـيةِ، والخوفِ والرجاءِ، والإقلاعِ عن المعاصي.

٥- مـن آداب طالب العلمِ كذلك: إدمانُ الذكـر، وتلاوة القرآن، والصلاة، والاستغفار، والدعاء، والصلاة على النبي ﷺ.

٦- التورع عن الشبهات، وترك ما لا يعنيه من الأمور.

٧- ترك فضول النوم والأكل.

٨- أن يكون ممن يعد كلماته، ولا يتكلم إلا بخير.

٩- تجنب فضول المخالطة؛ فلا يخالط إلا من يفيده، أو يستفيد منه، ولا يصاحب إلا صاحبًا صالحًا، دَيِّنًا، تقيًّا، ورعًا، زكيًّا، كثير الخير، قليل الشر، حسن المداراة، قليل المماراة، إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه.

١٠- أن ينظرَ عمن يأخذُ دينَه، قال بعضُ السلف: إن هذا العلمَ دينٌ، فانظروا عمَّنْ تأخذون دينكم.

فينبغي أن يكونَ ممن يكتَسِبُ من حسنِ الخُلُقِ والآداب، وأن يكون ممن كملت أهليته، وتحققت شفقته، وعرفت عفته، وظهرت مروءته، ولا يرغب الطالب في زيادة العلمِ مع نقصٍ في ورعٍ أو دينٍ، أو عدمِ خلقٍ جميلٍ، وليحذر من التقيُّدِ بالمشهورين وتركِ الأخذ عن الخاملين.

ومن آداب طالب العلم مع شيخه:

١- التواضعُ للشيخ، وإجلالُه، والانقيادُ له في أموره، ولا يخرج عن رأيِه وتدبيرِه، بل يكون معه كالمريض مع الطبيب الماهر، فيشاوِرُه فيما يقصِدُه، ويتحرَّى رضاه فيما يتَعمَّدُه، ويبالغُ في حُرْمَتِهِ، ويتقرَّبُ إلى الله بخِدْمَتِه.

٢- ومن الآداب مع الشيخ كذلك: أن يعرِفَ للشيخِ حقَّه، ولا يَنْسَى فضلَه، وأن يُعَظِّمَ حُرْمَتَه، ويَرُدَّ غيبته، ويكثر من الاستغفار والدعاء له.

٣- ومن الآدابِ كذلك: أن يصبِرَ على جَفْوَةٍ تصدر من شيخِهِ، أو سوءِ خلقٍ، ولا يصدَّهُ ذلك عن ملازَمَته، ويتأوَّلُ أفعالَه التي يظهرُ أن الصوابَ خلافُها على أحسنِ تأويلٍ.

٤- ترك مماراة الشيخِ ومجادَلَتِه، وإنما هو الاستفسارُ والسؤالُ بغاية الأدبِ، ولا يردُّ على الشيخِ قولَهُ.

٥- أن يشكرَ الشيخَ على توقيفِه على ما فيه فضيلةٌ وتوبيخِه على ما فيه

نقيصَةٌ أو كسَلٌ، ويَعُدَّ ذلك من نِعَمِ اللهِ عليه باعتناءِ الشيخِ به.

٦- أن يتأدَّبَ بآدابِ الاستئذانِ على الشيخِ، ولا يَشُقَّ عليه في طلب الإقراءِ أو السؤالِ.

ومن آدابِ طالبِ العلم مع الأقرانِ:

١- أن يَبْذُلَ لهم حقوقَ الأُخُوَّةِ الإسلامية من: الحبِّ في اللهِ، والنصيحَةِ، والفرحِ لفرحِهِم، والألَم لألَمِهِم، وأن يَكُفَّ عنهم أذى يدِه ولسانِه وقلبِه، فلا يَسُبُّ أحدَهم، ولا يغتابُه، ولا يمازِحُه بما يكرَه، ولا يُثْقِلُ عليه بقولٍ أو فعلٍ، وكذلك لا يَحْمِلُ لأحد منهم غِشًّا، ولا حقدًا، ولا حسدًا.

٢- أن يفرحَ بكون أحدِهم أُوتِيَ فهمًا أو علمًا، أو حفظًا أكثر، أو توفيقًا في الدعوة، ولا يتمنى زوال ذلك منه؛ لأن تمني زوالِ ذلك من الحسدِ، والمشروعُ الغِبْطَةُ وهي أن يتمنى أن يكون له مثلُ أخيهِ دونَ زوالِ ما عندَ أخيه.

٣- ألا يمنع عنه نفعًا يستطيعُ أن يُقَدِّمَه إليه من كتابٍ، أو مالٍ، أو نصيحةٍ، أو دلالةٍ على خيرٍ، أو تحذيرٍ من شرٍّ.

تربية النفس بطلب العلم:

أصل تربية النفس وأساسها: أن تَتَعَلَّم ما تتربى عليه ثم تَمْتَثِلُه، هذا هو العلم النافع، العلم المقترن بالعمل، هذا هو العلم الذي يرفع الله أصحابه، قال الله ﷻ: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾[المجادلة: ١١]، هذا هو العلم الذي تَحْصُلُ به الخشيةُ، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾[فاطر: ٢٨].

أخي الكريم:

- هيا إلى طلب العلم؛ فإن «طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ»(١).

---

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٢٢٤) عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وصححه الألباني، انظر [«صحيح ابن ماجه» (١٨٣)].

ـ هيـا إلى طلب العلم؛ فإن «**مَنْ سَـلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَـهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ**»(١).

ـ هيـا إلى طلب العلـم والتَّفقُّه في الدين؛ فإنه «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِـهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»(٢).

أخي الكريم في أثناء طلبك للعلم هناك تنبيهات مهمة، افهمها جيدًا، ولتكن على بالك:

١- لابـد أن تكـون البداية بالعلـوم التي يَسْـتَقِيمُ بها العمـل (عمل القلب والجـوارح)، العلم الذي يَصْلُـحُ به ما بينك وبين الله، ومـا بينك وبين الخلق، العلـم الذي يَصْلُحُ به دينُك ودنياك؛ فالعلم علمان: فرض عين، وفرض كفاية، ففرض العين: ما لا تَسْتَقِيمُ العقيدةُ إلا به، ولا تستقيم العبادة إلا به، ولا تستقيم المعاملة إلا به، ولا تستقيم الأخلاق والآداب والسلوك إلا به.

٢- لابُـدَّ أن تكـون البدايـة بمُخْتَصَـرٍ في كل علم من هذه العلـوم، فلا يبدأ الطالـب في علم مـن العلوم بكتاب مُطَوَّلٍ أو حتى متوسـط، بل يبدأ السـلم من أوله.

وكذلـك لا يأخذ علمًا واحـدًا من العلوم ويقول آتي علـى آخره أولًا، فيقرأ فيـه كتابًـا ثم كتابًا آخر ثم كتابًا آخر أوسـع وهو لا يدري عن بقيـة العلوم العَيْنِيَّةِ شيئًا، بل لابُدَّ أن يكون الترقِّي في طلب العلم بطريقة متوازية، خاصة في الفروض العينية.

٣- اعلـم أن طلـب العلم له هـدف جامع وغاية جامعة تحتـوي في ثناياها هدفين جزئيين:

فأمـا الهـدف الجامع فهـو: ابتغاء مرضاة الـرب سـبحانه وتعالى، وجزيل

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٩٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٧١)، (٣١١٦)، ومسلم (١٠٣٧) عن معاوية رضي الله عنه.

مثوبته في الدنيا والآخرة.

وأما الهدفان الجزئيان، فأولهما: تَعْبِيدُ النَفْسِ لربها، فيتعلَّمُ العبد ما تَسْتَقِيمُ به عبادته بمعناها الشامل، وهو فرض العين من العلوم، وهو ما لا تستقيم العقيدة إلا به، ولا تستقيم العبادة ولا تستقيم المعاملة إلا به، ولا تستقيم الأخلاق والآداب والسلوك إلا به. **والهدف الثاني**: تعبيد الناس لربهم، فيتعلم العبد ما به يأمرُ بالمعروف وينهى عن المنكر، وما به يقوم بالنصيحة الشرعية للناس من حولِه.

ويتعلم العبد العلم الذي يدعو به الناس إلى مرضاة ربِّهم، وذلك من فروض الكفايات التي قد تَتَعَيَّن على العبد إذا لم يكن هناك من يَقْدِرُ على تعلُّمِه غيرُه، فإنه يلزم أن يكون في كل مَحِلَّةٍ من حصَّلَ ما يُفْتِي به النـاسَ فيما يحتاجون إليه من فتاوى ويَدُلُّهم به على ما تستقيم به حياتُهم على شرع الله ﷻ؛ فإن الناس اليوم قد ابتعد واقِعُهم كثيرًا عما يرضي الله ﷻ، فأصبح غالب مجالات الحياة مليئةً بالمخالفاتِ الشرعيةِ، وذلك لجهل الناس بأحكام الدين، وهذا هو الغالب؛ فإن كثيرًا من الناس لو علم مُرَادَ الشرع ما خالفه، ولكن لجهلهم أو لاستفتائِهم الجُهَّال حدث هذا الانحرافُ عن شرع الله ﷻ.

ولذلك فالواجب على كل مستطيع أن يُوجِدَ من نفسه هذه الشخصية، التي يمكن أن تصل إلى الخلق بالحقِّ، شخصية جديرة باحترام الناس وثِقَتِهِم علميًّا وعمليًّا، شخصية تُسْعِفُ الناسَ في استفساراتِهم واستفتاءاتِهم؛ بل يبادرُ الناسَ بما يلزمهم من أحكام الدينِ وإن لم يسألوا عنها؛ لأن الناس إذا لم يُوجَدْ بينهم مثل هذا الرجل من أهل السنة فإنهم يسألون أيَّ أحد ممن يَتَجَرَّأُ على الفتوى، وكثيرٌ ما هم خاصة مع تساهل الناس في الاستفتاءِ وقبولهم فتوى أي مفتٍ، ولذلك ليس من السائغ الآن أن يقول قائل: أنا أتخصص في علم من

العلـوم قبل تحصيل ما يلزمه من فروض الأعيان التي يصلح بها عبادته بمعناها الشامل الذي ذكرناه، وكذلك ما يلزمه من فروض الكفاية التي بها يدعو الناس إلـى إصلاح عبادتهم بمعناها الشـامل «تصحيح الاعتقاد - والعبادة - والمعاملة - والأخلاق والآداب».

صور من علو الهمة في طلب العلم:

عـن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: لما تُوُفِّيَ رسـولُ ﷺ قلتُ لرجلٍ من الأنصار: هلمَّ نسـأَلُ أصحـابَ رسـولِ الله ﷺ فإنهم اليوم كثيـرٌ، فقـال: واعجبًا لك يا ابـنَ عبـاس! أترى النـاسَ يحتاجون إليـك وفي الناسِ من أصحـاب النبيِّ ﷺ مَنْ تَرَى؟! فترك ذلك، وأقبلتُ على المسـألةِ، فـإن كان ليبلغني الحديثُ عن الرجلِ فآتيه وهو قَائِلٌ[١]، فأتوسَّـدُ ردائي على بابِه، فَتَسْفِي الريحُ عليَّ الترابَ، فيخرجُ فيراني، فيقولُ: ابنَ عمِّ رسـول الله، ألا أرسـلتَ إليَّ فآتيَك؟ فأقول أنا أحقُّ أن آتِيَك فأسأَلَكَ.

قال: فبقِي الرجل حتى رآني وقد اجتمع الناسُ عليَّ، فقال: هذا الفتى أعقل مني[٢].

عن هشام عن أبيه أنه كان يقول لنا -ونحن شبابٌ-: ما لكم لا تَعَلَّمون، إن تكونوا صغارَ قوم يوشـكُ أن تكونوا كبارَ قوم، وما خيرُ الشـيخ أن يكون شيخًا وهـو جاهل؟! لقـد رأيتُني قبلَ موتِ عائشـةَ رضي الله عنها بأربعِ حِجَـجٍ وأنا أقول: لو ماتـت اليوم ما ندمت على حديثٍ عندهـا إلا وقد وَعيتُه، ولقد كان يبلغني عن الصحابيِّ الحديثُ، فآتيه فأجده قد قال، فأجلس على بابه ثم أسأله عنه[٣].

عن سـعيد وأبي سـلمة أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: إنكـم تقولون: إن أبا هريرة

---

(١) أي وهو نائم وقت القيلولة، وهو وقت الظهيرة.

(٢) صحيح: رواه الحاكم (٣٦٣)، والدارمي (٥٧٠).

(٣) «تهذيب الكمال» (٢٠/ ١٧)، «فتح المغيث» (٣/ ١٦٠)، «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٤٢٥).

يكثرُ الحديثَ عن رسول الله ﷺ، وتقولون: ما للمهاجرين والأنصارِ لا يُحَدِّثُون مثلَه، وإن إخواني المهاجرين كان يشغَلُهم الصَّفْقُ بالأسواقِ، وكان إخواني من الأنصارِ يشغَلُهُم عملُ أموالِهم، وكنت امرأً مسكينًا من مساكين الصُّفَّةِ، ألزَمُ رسولَ الله ﷺ على مِلْءِ بطني، فأحضرُ حين يغيبون، وأعِي حين يَنْسَون، وقد قال رسول الله ﷺ في حديث يُحَدِّثُه يومًا: «**إِنَّهُ لَنْ يَبْسُطَ أَحَدٌ ثَوْبَهُ حَتَّى أَقْضِيَ جَمِيعَ مَقَالَتِي، ثُمَّ يَجْمَعَ إِلَيْهِ ثَوْبَهُ إِلَّا وَعَى مَا أَقُولُ**» فبَسَطْتُ نَمِرَةً عليَّ، حتى إذا قضى رسول الله ﷺ مقالته جمعتها إلى صدري؛ فما نسِيتُ من مقالةِ رسولِ الله ﷺ تلك من شيءٍ(١).

قال القعنبي: سمعت مالكًا يقول: كان الرجلُ يَخْتَلِفُ إلى الرجل ثلاثين سنة يَتَعَلَّمُ منه(٢).

روى غير واحد أن ابنَ المبارك قيل له: إلى متى تكتبُ العلم؟ قال: لعل الكلمةَ التي أنتفع بها لم أكْتُبْها بعدُ(٣).

عن أبي بكر بن عياش، قال: اختلفت إلى عاصمٍ نحوًا من ثلاث سنين، في الحرِّ والشتاءِ والمطرِ، وحتى ربما استحييتُ من أهلِ مسجدِ بني كاهلٍ(٤).

قال محمد بن يحيى بن سعيد: قال أبي: كنت أخرجُ من البيتِ أطلبُ الحديثَ، فلا أرجع إلا بعد العتمةِ(٥).

عن أبي عبيد القاسم بن سلام أنه كان يقول: كنت في تصنيف هذا الكتابِ أربعين سنة، وربما كنت أستفيد الفائدة من أفواهِ الرجالِ فأضعُها في الكتابِ فأبيتُ ساهرًا فرحًا مني بتلك الفائدةِ، وأحدكم يجيئني فيقيمُ عندي أربعةَ

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٠٤٧)، ومسلم (٢٤٩٢).
(٢) «حلية الأولياء» (٦/ ٣٢٠).
(٣) «الجرح والتعديل» (١/ ٢٨٠)، «تاريخ دمشق» (٣٢/ ٤٠٨)، «شرف أصحاب الحديث» (١/ ٦٨).
(٤) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٥٠٢).
(٥) «تاريخ الإسلام» (١٣/ ٤٧٠)، «سير أعلام النبلاء» (٩/ ١٨٣).

أشهرٍ، خمسة أشهر، فيقول: قد أقمت الكثير (١).

قال خلفُ بن هشام: أشكَلَ عليَّ بابٌ من النحو؛ فأنفقتُ ثمانين ألفَ درهمٍ حتى حذقته (٢).

قال ابن معين: أشتهي أن أقعَ على شيخٍ ثقةٍ عنده بيتٌ مليءٌ بكتبٍ أكتب عندَه وحدي (٣).

قال أحمد بن سعيد الرباطي: سمعت أحمدَ بن حنبل يقول: أخذْنا هذا العلمَ بالذُّلِّ فلا ندفعُه إلا بالذُّلِّ (٤).

عن حجاج بن الشاعر، قال: جمعتْ لي أمي مائةَ رغيف، فجعلتُها في جراب وانحدرْتُ إلى شبابةَ بالمدائنِ، فأقمتُ ببابه مائةَ يوم، أغمسُ الرغيفَ في دجلةَ وآكلُه، فلما نفِدَت خرجتُ (٥).

مراحل طلب العلم:

اعلم أن طلب العلم ينبغي أن يكون على مراحل، نبدأ بالمختصرات، ثم المتوسطات، ثم المطولات.

أذكر لك منها الثلاث مراحل التي ينبغي لكل قادر على تحصيلها أن يُحَصِّلَها؛ ليُصْلِحَ بها من حال نفسه وحال الناس من حوله، فإنه لا صلاح لهذه الأمة إلا بما صلح به أوَّلُها وهو العلم بمعناه الشامل، والعمل بمعناه الشامل، والعَوْدُ الحميدُ إلى الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة.

(١) «تاريخ بغداد» (١٢/ ٤٧)، «تاريخ دمشق» (٤٩/ ٧٥)، «السير» (١٠/ ٤٩٦).
تنبيه: الكتاب المقصود هو كتاب: «غريب الحديث».
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٢٥٦)، «تاريخ الإسلام» (١٦/ ١٥٥)، «النجوم الزاهرة» (٢/ ٢٥٦).
(٣) «تاريخ دمشق» (٥٦/ ١٤).
(٤) «الآداب الشرعية» (٢/ ٢٥).
(٥) «تهذيب الكمال» (٥/ ٤٦٨)، «تاريخ بغداد» (٨/ ٢٤٠)، «المقصد الأرشد» (١/ ٣٥٧).

المرحلة الأولى:

الأهداف المنشودة من هذه المرحلة:

الأول: تحصيلُ قَدْرٍ لا بأس به مما ينبغي تعلُّمه من فروضِ الأعيان، في مسائل العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والآداب والسلوك، ومعرِفة إجمالية لبعضِ القضايا المهمَّة وعلوم الآلة.

الثاني: إيجاد مادَّةٍ مُيَسَّرَة حاضرة في الذهن، يتمكن المسلم من خلالها من تعليم من يلزمُه من زوجة، وولد، وإخوةٍ صِغَارٍ.

الثالث: وهو أهمها، العمل على إيجاد هذا الرِّباط المفقود بين العلم والعمل، وذلك بأن يَهْتَمَّ الإنسانُ بكتابة كل فائدة عملية من كل جزئية يتعلَّمُها [١]، ويُلْزِم نفسه بالعمل بها ويحاسِبُ نفسه على امتثالها كل لحظة.

لذلك كان لابُدَّ أن تكون هذه المرحلة سهلة مُيَسَّرَةً لا حَشْوَ فيها ولا تطويل [٢]؛ حتى يُتِمَّ بنجاح الربطَ بين العلم والعمل حتى يكونَ العلم حقيقة علمًا نافعًا، وحتى يجانب العبد صراط المغضوب عليهم والضالين، حتى إذا تَدَرَّجَ في السُّلَّمِ العلمي صاحبه التدرج في السلم العبادي والترجمة العملية لما يتعلَّم.

المنهج المقترح للمرحلة الأولى:

---

(١) مثال ذلك: من قرأ مثلًا بابًا من «**رياض الصالحين**» مثل باب الإخلاص، فيتعلم من خلاله أن الله ﷻ أمر بالإخلاص وحض عليه، وأن العمل لا يصلح إلا بالنية، وأنه بفساد النية يفسد وإن كان في صورته صحيحًا، وأن العبد بالنية يأخذ أجر العاملين وإن لم يستطع العمل، وأن العمل المباح بالنية الصالحة يصير طاعة، فإذا علم العبد هذا كله لابُدَّ من فائدة عملية يستخلصها ألا وهي: أنه لابُدَّ من الانتباه للنية والحرص على أن يكون لكل عمل نية صالحة، فيحول حياته كلها إلى عبادة، وهكذا كلما قرأ معلومة استخلص منها الفائدة العملية، وألزم نفسه بها كما كان الصحابة يعملون، فقد كانوا يتعلمون العشر آيات فلا يجاوزونها حتى يعملوا بها، قالوا: فتعلمنا العلم والعمل جميعًا.

(٢) وقد لخصت ما يناسب هذه المرحلة في صورة سؤال وجواب؛ ليسهل استذكارها واستحضارها والعمل بها، وذلك في فروع العلم الهامة وسيأتي ذكرها قريبًا في المنهج المقترح للمرحلة الأولى.

المادة	الكتب المقترحة
العقيدة	«شرح عقيدة أهل السنة والجماعة» -«عقيدة أهل السنة والجماعة» -«ماذا يعني انتمائي لأهل السنة والجماعة» -«المنة شرح اعتقاد أهل السنة» -«شرح لمعة الاعتقاد».
الفقه	«الملخص الفقهي» للشيخ الفوزان -«العدة شرح العمدة» للبهاء المقدسي.
أعمال القلوب والأخلاق والآداب	كتاب «رياض الصالحين» -«مختصر منهاج القاصدين».
السيرة	«الرحيق المختوم» -«وقفات تربوية في السيرة».
القرآن والتفسير	حفظ خمسة أجزاء ودراسة تفسيرها، أو على الأقل جزئي تبارك وعم من «أيسر التفاسير» للشيخ أبو بكر الجزائري أو الشيخ السعدي، وقراءة مختصر في علم التجويد كـ«علم التلاوة» أو «البرهان في تجويد القرآن».
قضايا هامة	«أساليب الغزو الفكري» -«أسئلة وأجوبة في السلفية».

- وبالنسبة لطلاب العلم ينبغي أن يضيفوا إلى ذلك مدخلًا لكل علم من علوم الآلة، وهي:

المادة	الكتب المقترحة
علوم القرآن	«أصول التفسير» -«شرح مقدمة أصول التفسير» للشيخ العثيمين.
مصطلح الحديث	«تيسير مصطلح الحديث» للطحان -«مباحث في علوم الحديث» للقطان.
أصول الفقه	«شرح الأصول من علم الأصول» للشيخ العثيمين -«الواضح في أصول الفقه» للأشقر.
النحو	«التحفة السنية شرح الأجرومية» -«القواعد الأساسية في النحو والصرف».

ملاحظات:

(أ) هـذه الكتـب المقترحة لـكل فرع لا يَلْـزَمُ التقيُّدُ بها، وإنما يَنْسِـجُ على منوالها فيختار ما هو في مرتبتها للمبتدئ [١].

(ب) ما ذكرناه إنما هو للدراسة المنهجية ولا يستغنى الدارس عن المطالعة الحَّرة، ويُقْتَرحُ لذلك ما يأتي:

«جامـع العلـوم والحكـم» ـ**«صور من حيـاة الصحابـة، وصور مـن حياة التابعيـن»** للشـيخ رأفت الباشـا ـ**«البحر الرائق»** للشـيخ أحمد فريـد، وكذلك كتاب**«إلى الهدى ائتنا»** للشيخ محمد حسين يعقوب.

وفي الجملة كتابات الشيخ محمد جميل زينو، والشيخ أحمد فريد، والشيخ مصطفى العدوي، والشـيخ وحيد بالي، والشـيخ محمد حسـان، والشيخ سيد حسـين العفاني، والشـيخ محمد يعقوب، والشـيخ محمد عبـد المقصود فإنها مفيـدة في هـذه المرحلـة، وكذلك ما يصدر من المادة المسـموعة للشـيخ أبي إسحاق الحويني والشيخ محمد حسان حفظ الله الجميع.

المرحلة الثانية:

الأهداف:

الأول: التأكيد على ما سبق من أهداف المرحلة الأولى.

---

(١) قمت بعمل أسئلة تشمل كل ما ينبغي تعلمه في هذه المرحلة من العلوم الأساسية وعلوم الآلة، وألحقتها بأصل هذا الكتاب«غاية الرفق»، حتى يختبر طالب العلم نفسه عن طريقها فإن حصل الإجابة عليها فقد تمت له المرحلة الأولى بنجاح، وهي أهم مرحلة لأنها الأساس الذي ينطلق منه في دعوته وتربيته لنفسه ولغيره، وكذلك فإن هذه المرحلة بمثابة القواعد والأساسات التي يبني عليها بقية المراحل، وقد جاءت العلوم الأساسـية في حوالي ثلاثة آلاف سـؤال (٣٠٠ سـؤال في العقيدة وأعمال القلوب ـ ١٥٠ سؤال في الأخلاق والآداب ـ ١٥٠٠ سؤال في الفقه ـ ٣٠٠ سؤال في السيرة ـ ٣٠٠سؤال في التفسير)، وجاءت أسئلة علوم الآلة في حوالي سبعمائة سؤال (١٥٠ سؤال في التجويد وعلوم القرآن ـ ١٥٠ سؤال في أصول الفقه ـ ١٥٠ سـؤال في مصطلح الحديث ـ ٢٠٠ سـؤال في النحو)، وقد قمت بالإجابة عن هذه الأسئلة كلها في سلسلة«تقريب علوم الشريعة».

الثاني: توسيع الدائرة العلمية وبالتالي العملية لإيجاد هذه الشخصية التي يمكنها أن تبدأ التواصل مع الناس علميًا وعمليًا، بحيث تُظْهِر لهم الصورة الصحيحة للفرد المسلم الذي يعبد الله ويدعو إليه على بصيرة.

المنهج المقترح للمرحلة الثانية:

المادة	الكتب المقترحة
العقيدة	«فتح المجيد» ـ«معارج القبول».
الفقه	«منار السبيل».
الزهد وأعمال القلوب	«تهذيب مدارج السالكين» للعزي-«البحر الرائق» - «الداء والدواء».
الأخلاق والآداب	«الجامع لآداب الراوي والسامع»، أو«شرح حلية طالب العلم» للشيخ ابن عثيمين.
التاريخ	«الدولة الأموية والدولة العباسية» للشيخ الخضري ـ«حُقْبةٌ من التاريخ» الخميس ـ«الأندلس» للشيخ مجدي فتحي السيد.
التراجم	«صور من حياة الصحابة» ـ«من أعلام السلف».
التفسير	استكمال حفظ وتفسير خمسة عشر جزءًا من«تفسير ابن كثير» أو«أيسر التفاسير».
الحديث	«سبل السلام» للصنعاني.
أصول الفقه	«الوجيز في أصول الفقه» .
مصطلح الحديث	«الباعث الحثيث».
علوم القرآن	«مباحث في علوم القرآن» للقطان.
التجويد	«غاية المريد في علم التجويد» للشيخ عطية قابل نصر قابل.

النحو والصرف والبلاغة	«القواعد الأساسية في النحو والصرف» إن لم يكن درسه، أو «شرح قطر الندى» ـ «البلاغة الواضحة» لعلي الجارم.
قضايا هامة	دراسة وعمل أبحاث في قضايا (الإيمان والكفر ـ العذر بالجهل ـ الأسماء والصفات ـ توحيد الربوبية وصور المخالفة فيه ـ توحيد الألوهية وصور المخالفة فيه ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ الجهاد ـ الإيمان بالقدر ـ العقيدة في الصحابة والإمامة والخلافة ـ الاتباع ومناهج الاستدلال ـ فقه التعاون على البر والتقوى ـ ضوابط الخلاف ـ معرفة المناهج الدعوية المطروحة وما يسوغ الخلاف فيه من ذلك وما لا يسوغ).
الدعوة	«٣٠ طريقة لخدمة الدين» – «أصول الدعوة» لعبد الكريم زيدان.

المطالعة في هذه المرحلة:

إصدارات: د. محمد إسماعيل، الشيخ بكر بن عبد الله أبي زيد، الشيخ المنجد، الشيخ أبو إسحاق الحويني، د. أحمد فريد، د. سعيد عبد العظيم، د. على السالوس، د. ياسر برهامي، د. علاء بكر، بالإضافة إلى من سبق ذكرهم في المرحلة الأولى.

ومما ينبغي أن يهتم به أيضًا: مطالعة أخبار المسلمين من المصادر التي يغلب عليها تحري الدقة في النقل؛ ليعيش آلام الأمة وآمالها وما يَلْزَمُه تجاهها، فإن ذلك يَسْتَثِيرُ هِمَّتَهُ ويحرِّك ما كمن من نشاطه وقوته.

المرحلة الثالثة:

قبل الشروع في بيان المنهج المقترح لهذه المرحلة يجدر التنبيه على أنه يمكن للطالب أن يتخصَّصَ أثناء دراسته لهذه المرحلة في العلم الذي يمكن أن يحصِّل فيه ويُثْمِرَ، كالفقه أو الحديث أو التفسير أو غيرها، لكن الأولى أن يتم المرحلة الثالثة قبل التخصص.

المنهج المقترح للمرحلة الثالثة:

المـــادة	الكتـــب المقترحـــة
الفقه	«**الكافي**» لابن قدامة.
التفسير	استكمال حفظ وتفسير القرآن من «**تفسير ابن كثير**»، أو «**أيسر التفاسير**».
قضايا الاعتقاد والاتباع وما يتعلق بها	«**التوحيد**» لابن خزيمة - «**شرح أصول اعتقاد أهل السنة**» للالكائي الإيمان، الأسماء، والصفات، والواسطية، «**درء تعارض العقل والنقل**»، «**اقتضاء الصراط المستقيم**»، «**الصارم المسلول على شاتم الرسول**»، الإيمان لشيخ الإسلام - «**شفاء العليل**» لابن القيم - «**منهج الأشاعرة في العقيدة**» د. سفر الحوالي - «**مختصر العلو**» للألباني - «**الاعتصام والموافقات**» للشاطبي - «**الفرق بين الفرق**» للشهرستاني.
القضايا المعاصرة	«**مذاهب فكرية في الميزان**» د. علاء بكر - «**عودة الحجاب**» د. محمد إسماعيل المقدم - «**العلمانية**» د. سفر الحوالي - «**الطغيان المادي المعاصر**» د. سعيد عبد العظيم - «**الموسوعة الميسرة في المذاهب والأديان المعاصرة**».
السير والتاريخ	«**الدولة العثمانية**» - «**الدولة السنوسية**» - «**الدولة الفاطمية**» - «**دولة المرابطين**» للصلابي.
أصول الفقه	«**مذكرة الشنقيطي على الروضة**».
الحديث	«**تدريب الراوي**» للسيوطي -«**شرح مسلم**» للنووي.
النحو والبلاغة	«**شرح شذور الذهب**» للأنصاري - «**شذا العرف في فن الصرف**» - «**مختار الصحاح**».
الزهد والرقائق	«**الزهد**» لابن المبارك - «**الرقة والبكاء**» لابن قدامة.

تنبيهات هامة تتعلق بمراحل طلب العلم:

١ - ما ذكرناه من كتب ومصنفات مختارة في كل مرحلة إنما هي على سبيل المثال؛ لينسج على مِنْوالها ولا يلزمه أن يلْتَزِمَ بها، فإن اختار في الفقه كتابًا آخر

أو في التفسير أو في العقيدة أو في غيرها فلا بأس إذا كان يناسب تلك المرحلة.

٢- إذا وجد في المحلة أو القرية من حصَّلَ هذه المراحل العلمية، وتَوَسَّعَ في العلوم الشرعية التي بها يستطيع أن يُسْعِفَ الناس في فتاواهم واستفساراتهم، ويُبَيِّنَ لهم ما يلزَمُهم من أمور دينِهم، إذا وجد مثل هذا وحَصَلَتَ به الكفاية في هذا المجال؛ فيمكن لطالب العلم أن يقتصر على المرحلة الأولى أو الثانية، ثم يتخصص في فرع من فروع العلم الذي يجيده ويحسنه خاصة إذا كانت الدعوة في حاجة إلى مثل هذا التخصص، لكن لا ينبغي أن يتخصَّصَ قبل أن يُحَصِّلَ العلوم العينية التي تستقيمُ بها عقيدته، وعبادته ومعاملته، وتربيتُه لنفسه ولأولاده، وكذلك ما يحتاج إليه في مسيرته الدعوية.

٣- ليس كلُّ أحد يمكنه أن يواصل في طلب العلم، وينتقل إلى المرحلة الثانية والثالثة أو حتى يتخصص في فرع من فروع العلم، بل إن كثيرًا من إخواننا لا يمكنه أن يحصل أكثر من العلوم العينية عليه، ولذلك نقول: لا أقلَّ من أن يختم المرحلة الأولى التي يُرَبِّي بها نفسه وأولاده وعشيرته، ثم يُفَتِّشُ في نفسه وفي ميوله وإمكانياته؛ ليكتشف المجال الذي يمكن أن يخدم الدين من خلاله، ويتعلم الضوابط الشرعية لهذا المجال، وينطلق لخدمة الدين من خلاله.

* * *

فصل في وجوب الاهتمام بأعمال القلوب وتربية النفس

اعلم أن كل ما سبق من طاعات فرضها ونفلها إذا خلت من أعمال القلوب فهي أجساد بلا أرواح.. أشباح لا خير فيها، بل قد تكون وبالًا على صاحبها، فإن أول من تُسَعَّرُ بهم النار ثلاثة: قارئ، وشهيد، ومُنْفِقٌ، عملوا أعظم الأعمال ظاهرًا، لكن لم يُوَافِقْها ما تعظم به باطنًا، بل وافقها عكس ذلك فكان صاحبها من أول من تسعر بهم النار[1].

لذلك يجب تعاهد القلب وتَحَسُّسُه، في كل وقت وحين، فإن أعمال القلوب أخطر وأعظم من أعمال الجوارح.

يقول شيخ الإسلام: «واعلم أن أعمال القلوب هي الأصل المراد المقصود، وأعمال الجوارح تَبَعٌ لها ومُكَمِّلَة ومُتَمِّمَةٌ».

يقول العز بن عبد السلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «صلاح الأجساد موقوف على صلاح القلوب، وفساد الأجساد موقوف على فساد القلوب». ولذلك قال النبي ﷺ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»[2].

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: القلب مَلِكٌ والأعضاء جنودُه، فإذا طاب الملكُ طابت جنودُه، وإذا خَبُثَ الملِكُ خَبُثَتْ جنودُه[3].

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٩٠٥) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) عن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٣) أخرجه عبد الرزاق (١١/ ٢٢١) ومن طريقه البيهقي في الشعب (١٩).

أقسام القلوب:

القلوب على ثلاثة أقسام:

١- القلب السليم:

هو القلب الذي سَلِمَ من كل شهوة تُخَالف شرع الله، ومن كل شُبْهَةٍ تعارض خبره، سَلِمَ من عبودية غير الله، وخَلَصَتْ عبوديته لله: إرادة ومحبة، وتوكلًا وإنابة وإخباتًا، ورجاء وخشية، فإن أحبَّ أحبَّ لله، وإن أبغض أبغض لله، وإن أعطى أعطى لله، وإن منع منع لله، يُقَدِّمُ محبَّة الله ومحبة رسوله ﷺ على محبة من سواهما.

٢- القلب الميت:

هو القلب الذي لا يَعْرِفُ ربه، ولا يعبده بأمره، ولا بما يحبه ويرضاه، بل هو عبد لهواه يدور مع شهواته ولذاته حيث دارت، وإن أوردته موارد سخط الله وغضبه.

٣- القلب المريض:

وهو قلب له حياة وبه علةٌ، تُمِدُّهُ هذه مرةً وهذه مرةً وهو لما غلب عليه منهما، وهو بين داعيين: داع يدعوه إلى الله ورسولِه والدارِ الآخرة، وداع يدعوهُ إلى العاجلة وهو بحسب أقربهما منه بابًا.

علامات صحة القلوب ،ومنها:

- إيثار ما يحبُّه الله ويرضاه على ما يدعوه إليه هواه.
- العزُوفُ عن الدنيا وشهواتها وملذاتها (بأن تكون الدنيا في يده، وليست في قلبه).
- ومن علاماته: أنه إذا فاته وِرْدُه من الطاعة تألم أشدَّ الألمِ أعظم من تَألُّمِ الحريص بفوات ماله وفَقْدِهِ.
- أن يكون همه واحدًا، وهو الله ﷻ.

- ومن علامات صحة القلب: أن تكون الصلاة قُرَّةَ عين له بحيث إذا دخل فيها ذهب عنه همُّه وغمُّه بالدنيا، ووجد فيها راحته ونعيمه وقُرَّةَ عينه، وسرور قلبه.

- أن يكون شحيحًا بوقته أن يذهب سُدىً كأشد الناس شحًا بماله.

- ومن علامات صحة القلب: أن يكون اهتمامه بتصحيح العمل أعظمَ منه بالعمل؛ فيحرِصُ على الإخلاص فيه، والمتابعة، والإحسان، وشهود مِنَّةِ الله عليه وتقصير نفسه وتفريطه، وإذا فقد شيئًا من ذلك أو قَصَّرَ فيه كان دليلًا على مرض القلب.

- ومن علاماته أيضًا: ألا يفتر عن ذكرِ ربِّه ولا يأنس بغيره إلا من يدله عليه ويذكره به.

أسباب مرض القلب، ومنها:

أ- **الفتن**: التي تعرض على القلوب، فتن الشهوات والشبهات: عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَعَرْضِ الحَصِيرِ عُودًا عُودًا؛ فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَعُودَ الْقُلُوبُ عَلَى قَلْبَيْنِ: قَلْبٍ أَسْوَدَ مِرْبادًّا [(١)] كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا [(٢)] لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ، وَقَلْبٍ أَبْيَضَ لا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتْ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ»** [(٣)].

ب- **فضول الكلام**: من أكثر أسباب الهلاك حصائد الألسنة، عن معاذ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»** [(٤)]، وقال النبي ﷺ: **«مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ**

---

(١) مربادًا: أي بين السواد والغبرة.

(٢) مجخيًا: مائل عن الاستقامة.

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (١٤٤) عن حذيفة رضي الله عنه.

(٤) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وصححه الألباني، انظر [«السلسلة الصحيحة» (١١٢٢)].

لِيَصْمُتْ»[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ فِيهَا يَزِلُّ بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ»[٢].

فمن أطلق العنان للسانه أفسد قَلْبَه أعظمَ فسادٍ؛ وذلك لأن آفات اللسان كثيرة من الكذب والغيبة والنميمة، والفحش والخوض في الباطل، والخصومة والإيذاء وهتك العورات، وغير ذلك من الآفات التي تُشَتِّتُ القلب وتُفَرِّقُهُ، أما الصمت ففيه جمع الهَمِّ ودوام الوقار، والفراغ للفكر والذكر والعبادة.

جـ- **فضول النظر**: وفضول النظر يدعو إلى الاستحسان ووقوع صورة المنظور في قلب الناظر؛ فيَحْدُثُ أنواعٌ من الفساد في القلب، منها:

١- النظرة سهم مسموم من سهام إبليس[٣].

٢- دخول الشيطان مع النظرة؛ ليُزَيِّنَ صورَة المنظور، ويَشْغَلَ القلبَ به، ويُوقِدَ على القلب نارَ الشهوات، ويدفعه إلى المعصية.

٣- يشغل القلب، ويُنْسِيهِ مصالحه، ويُوقعُهُ في اتِّباع الهوى، وكذلك فإن إطلاق البصر يُعْمِي القلبَ عن رؤية الحق؛ لأنه يُضْعِفُ نور البصيرة.

(د) **فضول الطعام**: عن المقداد بن معد يكرب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَا مَلأَ ابْنُ آدَمَ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ؛ فَإِنْ كَانَ لا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ»[٤].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٤٧٥)، ومسلم (٤٧).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٦٤٧٨)، ومسلم (٢٩٨٨).

(٣) ضعيف جدًّا: أخرجه الحاكم في مستدركه (٤/ ٣٤٩)، والطبراني في «المعجم» (١٠٣٦٢) (١٠/ ١٧٣)، وضعفه الألباني، انظر «ضعيف الترغيب والترهيب».

(٤) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٣٣٤٩)، والترمذي نحوه (٢٣٨٠)، وصححه الألباني، انظر «صحيح ابن ماجه» (٢٧٠٤).

هـ- **فضول المخالطة**: والناس بالنسبة للمخالطة على أربعة أقسام:

القسم الأول: مَنْ مُخَالَطَتُهُ كالغذاء، وهم العلماء الناصحون لله، ولكتابه، ولرسوله، ولعامة خَلْقِه، فهؤلاء مخالطتهم الرِّبْحُ كلُّ الربح.

القسم الثاني: مَنْ مُخَالَطَته كالدواء تحتاج إليه عند المرضِ، ولا حاجة بك إليه ما دُمْتَ صحيحًا، وهم من يُحْتَاجُ إليهم في مصلحة المعاش والمشاورَة فيه، فتكون مخالَطَتُهُم على قَدْرِ الحاجةِ.

القسم الثالث: مَنْ مُخَالَطَتُهُ كالداءِ، وهو من لا تَرْبَحُ عليه دينًا ولا دنيا، وإنما هو تضييع للأوقات بغير طائل ، بل في الغيبة والنميمة والكذب، والمزاح المحرم وغير ذلك.

القسم الرابع: مَنْ مُخَالَطَتُهُ الهلاك كلُّه فهي بمنزلة أكل السُّمِّ، وهم أهل البدع والضلالة الصادُّون عن سنة رسول الله الداعون إلى خلافها.. وهؤلاء لا ينبغي للعاقل أن يجالِسَهم، أو يخالِطَهم مطلقًا وإلا عَرَّضَ قلبَه للموت أو المرض.

أسباب حياة القلب هي الطاعات والمداومة عليها، والبعد عن المعاصي والمداومة على ذلك، كما في حديث حذيفة مرفوعًا: «**تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَعَرْضِ الحَصِيرِ عُودًا عُودًا؛ فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَعُودَ الْقُلُوبُ عَلَى قَلْبَيْنِ: قَلْبٍ أَسْوَدَ مِرْبادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ، وَقَلْبٍ أَبْيَضَ لا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ**» .

ففعل الطاعات والبعد عن المعاصي والشهوات يَصْقُلُ القلبَ يومًا بعد

بغير طائل: بغير فائدة.

سبق تخريجه.

يوم، ويَمُدُّه بمادة حياته يومًا بعد يوم حتى يَقْوَى ويَشْتَدَّ فلا تضرُّه فتنة.

ومن الطاعات التي لها دور كبير في تغذية القلب والتي هي سبب حياته: الذكر، وتلاوة القرآن، والاستغفار، والدعاء، والصلاة على النبي ﷺ، وقيام الليل، قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[الرعد: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[الإسراء: ٨٢]، قال رجل للحسن: يا أبا سعيد أشكو إليك قسوة قلبي، قال: أدِّبه بالذكر[1]، وقال مكحول: ذكر الله شفاء، وفي الاستغفار قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[النساء: ١١٠].

وقال الله تعالى في الدعاء: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾[النمل: ٦٢]، وأيُّ سوء أعظم من مرض القلب وقسوته، وأيُّ اضطرار أعظم من اضطرار رجل يخشى على قلبه الموت والهلاك.

وفي قيام الليل قال الله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾[المزمل:٦]، أي: القيام من النوم لصلاة الليل أشدُّ مواطئة بين القلب واللسان والجوارح.

قيل للحسن: ما بال المتهجدين أحسن الناس وجوهًا ؟ قال: لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نورًا من نوره.

وفي فضل الصلاة على النبي ﷺ قال ﷺ: «**مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا**»[2].

الإخلاص:

الإخلاص هو: إفراد الله ﷻ بالقَصْدِ في الطاعة.

وقيل: هو تصفية العمل مما يَشُوبُه من إرادات النفس، إما بطلب التَّزَيُّنِ

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد، ص (٣٢٦)، وإسناده حسن.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٤٠٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

في قلـوب الخلق، وإما طلب مدحِهم والهرب من ذمِّهم، أو طلب تعظيمهم أو طلبِ أموالهم أو خدمتهم أو محبتهم، أو قضاء حوائجه عندهم أو غير ذلك من العِلَلِ والشوائب التي جِمَاعُها إرادة ما سوى الله بعمله.

فَمن خَلَّصَ عَمَلَه من كلِّ ذلك، وأراد الله وحده به فهو المُخْلِصُ، ومن شابَ عمَلَه شائِبةٌ من ذلك فهو المرائي، فالرياء مُشْتَقٌّ من الرؤية، والمُرائي يُرِي الناس من عمله ما يطلب به الحظوة عندهم، قال ﷻ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

وقال على لسـان أهل الجنة وهم يصفون حالهـم وهم يُطْعِمُون الطعام لمن كان في حاجة إليه: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩].

وفي الحديث: **«إِنَّمَـا الْأَعْمَالُ بِالنيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْـرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهَجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»**[(١)].

فالإخلاص شـرط قبول العمل، وبالإخلاص ينال العبد أجر العاملين وإن لم يسـتطع العمل، كما أنه بسـوء النية يكون عليه إِثْمُ المذنبين وإن لم يتمكن من العمل، والإخلاص من أسباب وقاية العبد من تَسَلُّطِ الشياطين عليه وبإخلاص العمل لله ينجو العبد من المهلكات، وبإخلاص النية يَعْظُمُ العمل ولو كانت صورَتُه صغيرة، وبسـوء النية يَصْغُرُ العمل ولو كانت صورتُه كبيرة، وبالإخلاص تصير العادةُ عبادةً، كما في الحديث: **« وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ»**[(٢)].

فالعبـد منا لـه أعمال في اليـوم كثيرة: من قيـام وقعود، ودخـول وخروج، وكلام وصمـت، وأخذ وعطاء، ونوم واسـتيقاظ، وصـلاة وذكر وصدقة وغير ذلك من الأعمال، فالمُوفَّقُ هو الذي يُحاسِبُ نفسه على كل عمل لماذا عملته؟

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٥٥) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٠٠٦) عن أبي ذر رضي الله عنه. والبُضع أي: جماع الزوجة.

ويجتهد في استحضار نية لكل عمل، ثم يحاسب نفسه آخر كل يوم فإن كان من تقصير تدارك في الليل بأعمال صالحة، وشارط نفسه على أنه لن يعمل عملًا إلا ونوى فيه نية صالحة، ومع المجاهدة والصبر والمصابرة سيكون استحضار النية سجِيَّةً حتى تصيرَ حياتُه كلَّها عبادة لله رب العالمين حتى ما ينفقه على أهله وحتى ضحكُه وابتسامتُه.

لقد ضرب السلف أروعَ المَثَل في تحرِّي الإخلاص وإخفاءِ العمل مخافةَ الرياء؛ **فمن ذلك:**

ما قاله الحسن : إنْ كان الرجلُ جمع القرآنَ وما شعر به الناسُ، وإن كان الرجلُ فقه الفقهَ الكثيرَ وما يشعرُ به الناسُ، وإن كان الرجل ليصلي الصلاةَ الطويلةَ في بيته - وعنده الزُّوَّارُ - ولم يشعرْ به الناسُ، ولقد أدركت أقوامًا ما كان على ظهر الأرض مِنْ عَمَل يقدِرُون أن يعملوه في السرِّ فيكون علانيةً أبدًا

يقول عبدةُ بن سليمانَ: كنا مع سريَّةٍ مع عبدِ الله بن المباركِ في بلاد الروم، فصادفْنا العدوَّ، فلما التقى الصفان خرج رجل من العدوِّ فدعا للبراز، فخرج إليه رجل مسلم فطاردَه ساعةً فطعنَه فقتله، ثم خرج آخر يتحدَّى فذهب إليه فقتله، ثم جاء ثالثٌ فطاردَه فطعنَه فقتله، فازدحم الناس عليه ليعرفوا من هو، فإذا هو يُلَثِّمُ وَجْهَهُ، وقال عبدة: كنت فيمن زاحم ليعرفَ، فأخذت بطرف كُمِّه فمددتُه، فإذا هو عبدُ الله بن المبارك، فقال لائمًا لهذا الذي كشف وَجْهَه: وأنت يا أبا عمر من يشنِّعُ علينا؟! .

ومن ذلك: ما حصل لصاحب النفق: فقد حاصرَ المسلمون حِصنًا من الحصون واشتدَّ عليهم رَمْيَ الأعداءِ، فقام أحدُ المسلمين، وحفَرَ نفقًا فانتصر

الزهد لابن المبارك (١٤٠).

«تاريخ بغداد» (١٠/ ١٦٧)، «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٣٩٥)، «تاريخ الإسلام» (١٢/ ٢٣٢).

المسـلمون، وفُتِحَ الباب للمسـلمين وقاتلـوا، ولا يُعْرَفُ من هـو هذا الرجلُ، وأراد سـلمة أن يعرف الرجل لمكافأتِه، ولما لم يجدْه سـأله بالله أن يأتيه، فأتاه طارق بليل وسـأله وشـرط شـرطًا، وهو أنه إذا أخبره من هو لا يبحث عنه بعد ذلك أبدًا، فعاهده، فأخبره أنه هو، وكان يقول: اللهم احشرني مع صاحب النفق لما رأى من عجيب إخلاصه.

كان أيـوب ربما حدث الحديث فيرقُّ في المجلـس، فجاءته عَبْرَةٌ ودمعَتْ عينُه فجعل يتمخط ويقول: ما أشدَّ الزكامَ[1] فيُظهرُ الزكام لإخفاءِ البكاءِ.

قال محمد بن واسع: إنْ كانَ الرجلُ ليبكي سنة وامرأتُه معَهُ لا تَعْلَمُ[2].

صـام داود بـن أبي هند أربعين سـنة لا يعلم بـه أهلُه، فكان يَحْمِـلُ غذاءَه ويتصدَّقُ به على المساكين، ويرجع عشِيًا فيُفْطِر معهم[3].

المحبة:

المحبة: قيل أن أصلَها في اللغة: الصفاء والبياض، وقيل: مأخوذ من اللزوم والثبـات، يقـال: أَحَبَّ البعير، إذا برك، وقيل: مأخـوذ من القلق والاضطراب، ومنه سمي القرط حبًا لقلقه في الأذن.

وقيل: مأخوذ من الحب وهو لباب الشيء. وحبة القلب: هي سُوَيْدَاؤُه.

والحب: وهو إناء واسع يوضَع فيه الشَيْءُ حتى يمتلئ فلا يسعُ غيره.

وكل ذلـك يجتمع في محبة الله ﷻ، فالمحبة صفاء القلب وبياضه، وركونه إلى جَناب الرَّبِّ، وقلقه واضطرابه شوقًا إليه، وهي لُبُّ أعمال القلوب، فتملك زمام القلب، وتتمكن من سويدائه، وتملأ جنباته.

(١) مسند ابن الجعد (١٢٤٦)، «الثقات» (١٢٦٦٨)، «العلل ومعرفة الرجال» (٨٣٧).

(٢) «حليـة الأوليـاء» (٢/ ٣٤٧)، «السـير» (٦/ ١٢٢)، «تاريـخ الإسـلام» (٨/ ٢٦٢)، «المنتظـم» (٧/ ٢٠٥).

(٣) «حلية الأوليـاء» (٣/ ٩٤)، «تاريخ دمشـق» (١٧/ ١٢٩)، «تاريخ الإسـلام» (٨/ ٤١٥)، «المنتظم» (٨/ ٢٥).

ولمَحَبَّةِ العبدِ ربَّه علامات، منها:

١- أن يكـون مُولعًـا بذكـر الله لا يأنـس إلا به، لا يفتر عنه لسـانه في جميع أحواله وأعماله، إذا قام من النوم سبق ذكره سبحانه إلى لسانه، ينامُ على ذِكْرِه، ويقـوم على ذِكْرِه، يدخل ذاكرًا ويخـرج ذاكرًا، فهو من ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] و ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١].

٢- إذا ذكر الله خاليًا وَجِـلَ قلبُه، وفَاضَتْ عينُه ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]. وذكر النبي ﷺ من السـبعة الذين يظلهم الله يوم القيامَةِ في ظلِّه يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّه: «**وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّه خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ**»(١).

٣- الخشـوع في الصـلاة؛ فـلا يَشْـغَلُ قلبـه في الصـلاة إلا بـالله سـبحانه وبذكره.

٤- محبة كلام الله؛ فإن من أحب الله كان كلامه وحديثه أحبَّ شيء إليه.

٥- أن يكون أُنْسُه الأعظم وسلواه بالخلوة به، والتفكر في آلائه ومناجاته ﷻ، قال بعض السلف: «أهل الليل في ليلِهم ألذُّ من أهل اللهو في لهوهم»(٢).

٦- ومن علامات محبة العبد لربه كذلك: إيثارُ ما يُحِبُّه الله ويرضاه على ما يحبه العبد ويهواه، فيجد نفسه خفيفًا إلى الطاعة مقبلًا عليها، ثقيلًا عن المعصية متباعدًا عنها.

٧- أن يكون صابرًا على المكَارِه ابتغاءَ مرضاة الله.

٨- أن يغار لله، فيغضب إذا انْتُهِكَتْ محارمه.

٩- أن يتأسَّـفَ على التقصيـر في طاعته، وعلى ما يَفُوته مـن وِرْدِه، ويتألم

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٦٠، ١٠١٣)، ومسلم (١٠٣١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه ابـن عسـاكر «تاريخ دمشـق» (٣٤/ ١٤٦)، والدينـوري في «المجالسـة» (١/ ٣٢) من قول أبي سليمان الداراني.

أشدَّ الألم إذا مرت لحظة ولم يُحَصِّلْ فيها طاعة وقربة.

١٠- أن يكون حبه، وبغضه، وولاؤه، وبراؤه لله ﷻ.

الأسباب الجالبة لمحبة الله ﷻ:

١- من الأسباب الجالبة لمحبة الله ﷻ: التقرُّبُ إلى الله سبحانه بالنوافل بعد الفرائض.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ ﷻ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ**»(١).

٢- إيثارُ مَحبَّة الله ومرضاته على محابِّ النفس وما تهواه.

٣- كثرة الذكر، وتلاوة القرآن.

٤- مطالعة آثارِ أسمائِه، وصفاته، وآياته في الكون، وفي النفس، فمن عرف الله بأسمائِه وصفاتِه وأفعالِه أحبَّه لا محالةَ.

٥- الخَلْوة به وقت النزول الإلهي بمناجاته، وتلاوة كتابه.

٦- انكسار العبد بين يديْ ربه والتذلُّل له؛ فإن أحبَّ القلوب إلى الله قلبٌ تمكن منه الانكسارُ، وملكته الذلة.

٧- الإكثار من الأعمال التي جاء في الكتاب والسنة أن الله يُحِبُّها، ويحب أهلَها، فمن ذلك: الإحسان والصبر والتوكل.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤]، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ

---

(١) صحيح: سبق تخريجه.

﴿ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وفي الحديث: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ النَّقِيَّ»(١) ، وسُئل النبيُّ ﷺ عن أحبِّ عبادِ الله إلى الله، قال: «أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»(٢) .

الخوف:

الخوف: هو الخروج عن طمأنينة الأمن باستحضارِ ما أخبر الله به من الوعد والوعيد.

وقيل: هو اضطرابُ القلب وحركتُه عند تذكُّرِ ما يخاف وقوعه من الوعيد، أو ما يَخَافُ حرمانه من الوعد؛ فيدفَعُه ذلك إلى العمل على ما ينجيه منه.

وكلما زاد إيمان العبد ومعرفته بأسماء الله وصفاته ووعده ووعيده؛ زاد خوفه، قال الله تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨]؛ ولذا كان أبو الدرداء رضي الله عنه يقول: «لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموتِ لما أكلتم طعامًا على شهوةٍ، ولا شربْتم شرابًا على شهوةٍ، ولا دخلتم بيتًا تَسْتَظِلُّون به، ولخرجتم إلى الصعيد تضربون صدوركم وتبكون على أنفسِكم، ولودِدْت لو أني شجرةٌ تُعَضَدُ ثم تُؤْكَل»(٣) .

وقال النبي ﷺ : «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا»، قال أنس: ما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يوم أشد منه، غطوا رؤوسهم ولهم خنين(٤) ، الخنين: صوت البكاء مع اختناق الصوت من الأنف.

فمن تَيَقَّنَ اطلاعَ الرب ـ سبحانه وتعالى ـ عليه وقيامه على كل نفس بما كسبت وآمن بأسمائه «الجبار ـ المتكبر ـ ذو الانتقام ـ الكبير ـ القوي ـ المتين»،

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٦٥) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

(٢) صحيح: أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٤٤٣)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١/ ١٨١) عن أسامة بن شريك رضي الله عنه ، وصححه الألباني في [«السلسلة الصحيحة» (٤٣٢)].

(٣) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٦/ ٢٦٨)، وضعفه الألباني، انظر [«ضعيف الجامع» (٤٨١٧)]، تعضد: تقطع.

(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٥٤٠)، ومسلم (٢٣٥٩) عن أنس رضي الله عنه .

وعلم أنه يوم القيامة سَيُعْرَضُ عليه ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمنَ منه فلا يـرى إلا ما قَدَّمَ، وينظرُ أشـأمَ منه فلا يرى إلا ما قَـدَّم، وينظرُ بين يديه فلا يرى إلا النـارَ تلقـاء وجهه، فمن علم ذلك وآمن به لم يَطِـبْ له في الدنيا عيشٌ خوفًا وفَرَقًا[١]، وخجلاً وخشية، ورهبة أن يُخْفِقَ أو يُخْذَلَ في هذا الموقف الرهيب.

ومن علم أن كثيرًا من الناس يعملون ويُجِدُّون، ويظنون أنهم يحسـنون صنعًا مع أنهم إلى أنفسـهم يسـيئون بوجود آفة من الآفات المُحْبِطَةِ للأعمال من البِدَع والرياء وغيرها، ثم يبدو لهم يوم القيامة ما لم يكونوا يحتسبون. من علم ذلك لم يَثِقْ بعمل له، وإنما هو في خوف ألا يُقْبَلَ؛ فيكون ذلك سببًا لخذلانه يوم القيامة.

فهذا أبو هريرة رضي الله عنه يُغْشَـى عليه ثلاثَ مـراتٍ وهو يحدِّث بحديث: «**أَوَّلُ مَنْ تُسَعَّرُ بِهِمْ النَّارَ ثَلَاثَةٌ: الْقَارِئُ، وَالْشَّهِيدُ، وَالمُنْفِقُ**»، وذلك أنهم كانوا يظنون أنهم يحسنون صنعًا، وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون[٢].

مـن علم أخبار العصاة السـابقين واللاحقين، وما فعـل الله بهم، وكيف أن أَخْذَه أليم شديد، وأن بطشه سبحانه شديد، وعَلِم كثرةَ صُوَرِ انتقامه من العُصَاةِ، فهـؤلاء يُغْرِقُهُـم، وهؤلاء يرسـل عليهم الريح، وهؤلاء يَخْسِـفُ بهم الأرض، وغيرهم وغيرهم. وعلم أن ذلك ليس من الظالمين ببعيد؛ لكان ذلك داعيًا إلى الخوف فلا يهنأ بمعصية أبدًا، وكان ذلك سـوطًا زاجرًا له عن مُقَارفةِ المعصية واسْـتِصْغَارها؛ ولذا قالوا: «لا تنظر إلى صغرِ المعصية، ولكن انظر إلى عظمة من عصيت».

ومن علم أن أقوامًا يكون ظاهر حالهم الصلاح لكنهم يَسْبِقُ عليهم الكتابُ بسـوء الخاتمة؛ فيهلكون عند المـوت، وينطق أحدُهم بكلمة الكفر، وعلم أنه ليس أحد بمعصوم من ذلك حتى أن أصحابَ النبي ﷺ والسلفَ الصالحَ كانوا

---

(١) الفرق: شدة الخوف.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٩٠٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

يخافون سوءَ الخاتمة.. لو علم ذلك لما اطمأن له بال، ولا طاب له عيشٌ خوفًا أن يكون ممن سبق عليهم الكتاب، أخرج أبو داود والنسائي أن النبي ﷺ كان يدعو: « **اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ يَتَخَبَّطَنِيَ الشَّيْطَانُ عند المَوْتِ** » (١)، وكان بعض السلف يبكي على فراش الموت، فيُسْأَلُ عن ذلك فيقول: أخاف ما سبق به الكتاب، أو أخاف أن أكونَ في أمِّ الكتاب شقيًا.

من علم ما يكون في حياة البرزخ من صفةِ الملكين، وسؤالِهم، وكونِ القبرِ إما روضة من رياضِ الجنة، أو حفرة من حُفَرِ النارِ، وعلم صور العذاب التي تكونُ في البرزخ للعصاةِ؛ فهؤلاء في تَنُّورٍ من نارٍ.. وهذا في نهر من الدَّم يُلْقِمُه آخر حجرًا كلما أراد أن يخرج.. وهؤلاء تُشَرْشَرُ أَشْدَاقُهُم إلى أَقْفِيَتِهِم (٢)، وغيرهم وغيرهم على حسب معاصيهم.

من علم ذلك لم يكن له هَمٌّ بالمعصية أبدًا، ولكان همُّه الأكبر أن يعمل ما يَنْجو به من هذا المَضِيقِ. من علم أهوال القيامة، وما يكون فيها من أحداثٍ عظام تَذْهَلُ بسببها المرضعةُ عما أَرْضَعَت، وتضعُ كلُّ ذاتِ حمل حملَها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد.

وعلم ما جاء في الكتاب والسنة من وصف أهوال هذا اليوم، وأمرَّ ذلك على قلبه، وتدبَّره لما أكل طعامًا على شهوة، ولما شرب شرابًا على شهوة، ولما دخل بيتًا يَسْتَظِلُّ به، ولخرج إلى الصُّعُدَاتِ يَجْأَرُ إلى الله أن يجيره من عذابه.

فهذا سيد الأولين والآخرين ﷺ يقول: « **كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدْ الْتَقَمَ الْقَرْنَ يَنْتَظِرُ أَنْ يُؤْمَرَ** » (٣)، وكان يقول: « **شَيَّبَتْنِي هُودُ، وَالْوَاقِعَةُ، وَالْمُرْسَلاَتُ،**

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (١٥٥٢)، والنسائي (٥٥٣١ ـ أبو غدة) عن أبي اليسر رضي الله عنه، وصححه الألباني، انظر [«مشكاة المصابيح» (٢٤٧٣)].

(٢) الشرشرة: القطع بمنشار أونحوه، والشدق: جانب الوجه.

(٣) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٤٣١، ٣٢٤٣)، وبنحوه ابن ماجه عن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعًا (٤٢٧٣)، وصححه الألباني في [«الصحيحة» (٤٢٧٣)].

وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ»[(١)]؛ وذلك لما فيها من وصف أهوال يوم القيامة.

من علم أن الناس سَيَنْصَرِفون من هذا الموقف بعد خمسين ألف سنة إما إلى الجنةِ دارِ النعيم المقيم، وإما إلى النار دار الشقاء والخسار والبوار، وهو لا يدري إلى أين سيُذْهَبُ به، فهل يطيبُ له عيشٌ بعد ذلك.

فإذا وجد الإنسان من نفسه الأمنَ وقِلَّةَ الخوف من هذه المخوفات فَلْيُطَالِعْ تفاصيل ما ذكرنا في مظانِّه من كتب أهل العلم، ولْيُكثر من قراءة القرآن بِتَدبُّرٍ وفهم، فإن فيه شفاءً لما في صدره من الأمن وقلة الخوف، ولْيُطَالِعْ سيرةَ النبيِّ ﷺ وسيرةَ السلفِ وأحوالِهم، ولْيُكْثِرْ من الدعاء، واللجوءِ إلى الله ﷻ أن يَهْدِيَ قلبه، ولْيُجَاهِدْ نفسَه بترك المعاصي؛ فإن المعاصي تحول بين القلبِ وبين التذكُّر والاعتبارِ بالعِبَرِ والعِظَاتِ.

واعلم أن الخوف المحمودُ هو: الخوف الذي يَدْفَعُ إلى العمل للنجاة من المخوفات، لا الخوف الذي يؤدِّي إلى اليأس والقنوط؛ ولذلك لابُدَّ من الحديث عن الرجاء والمحبة؛ لأن العبد في رحلة سَيْرِه إلى الله ﷻ بمثابة طائر: رأسه المحبة، وجناحاه الخوف والرجاء، والنجاة في التعبد بها جميعِها، وإذا سقَطَ أحدُها أو ضعُفَ اختل طيرانُه ولابُدَّ.

صور من علو الهمة في الخوف:

أخبر ربنا ﷻ عن الملائكة أنهم ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل: ٥٠].

قال النبي ﷺ: «مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي بِجِبْرِيلَ، فَإِذَا بِهِ كَالحِلْسِ البَالِي مِنْ الْبُكَاءِ»[(٢)].

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٢٩٧)، صححه الألباني، انظر [«صحيح الجامع» (٣٧٢٣)] عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) حسن: رواه الطبراني في «الأوسط» (٤٦٧٩)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٩٢١)، وحسنه الألباني في

وهـذا إمـامُ الأنبياء وسـيد الأوليـن والآخريـن ﷺ، يقول: «شَـيَّبَتْنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا»(١).

وهذا عمر رضي الله عنه، يسمع قول آية فيمرض فيعاد أيامًا.

وأخـذ يومًا تِبْنَةً من الأرض، فقال: يا ليتني هذه التِّبْنَةَ، يا ليتني لم أك شـيئًا مذكورًا، يا ليت أمِّي لم تَلِدْنِي.

وكان في وجهه خطان أسودان من البكاء.

وكان مجرى الدمع في خد ابن عباسٍ كالشِّراك البالي.

قـال علي : والله لقد رأيـت أصحابَ النبيِ ﷺ ، فمـا أرى اليوم أحدًا يُشْـبِهُهُم، لقد كانوا يصبحون شُـعْثًا غبرًا وبين أعينهم أمثال رُكَبِ المعزى، قد باتوا لله سـجَّدًا وقيامًا، يتلون كتـابَ الله ﷻ، يُرَاوِحُون بين جباهِهِم وأقدامِهِم، فإذا أصبحوا فذُكروا مادوا كما يميد الشـجرُ يوم الريـحِ، وهَمَلَتْ أعينُهُم حتى تبُلَّ ثيابَهَم، والله لكأن القوم باتوا غافلين(٢).

وهذا عمران بن حصين رضي الله عنه يقول: يا ليتني كنت رمادًا تذروه الرياح(٣).

كان عمر بن عبد العزيز إذا ذكر الموتَ انتَفَضَ انتفاضَ الطيرِ، ويبكي حتى تجـريَ دموعُه على لحيتِه، وبكى ليلةً حتى أبكى أهل الدارِ، فلما تجلتْ العَبْرَةُ قالـت فاطمةُ زوجُه: بأبي أنت وأمي يـا أميرَ المؤمنين، ما يُبْكِيكَ؟ قال: ذكرت مُنْصَـرَفَ القـومِ بين يديْ الله تعالى؛ فريقٌ في الجنةِ وفريق في السـعيرِ. ثم صرخ وغُشِيَ عليهِ .

[«صحيح الجامع» (٥٨٦٤)].

صحيح: رواه الترمذي (٣٢٩٧)، وصححه الألباني في [«صحيح الجامع» (٣٧٢٠)].

سبق.

«تاريخ دمشق» (٢٥/ ٤٨٢)، «أسد الغابة» (٣/ ١٢٦)، «الزهد» لابن المبارك (١/ ٨١).

«البداية والنهاية» (٩/ ٢١٤)، «صفة الصفوة» (٢/ ١٢١).

الرجاء:

الرجاء: هو الاستشعار بفضل الله ﷻ وجوده والارتياح لمُطالعة كرمه سبحانه في الدور الثلاثة: الدنيا والبرزخ والآخرة، والرغبة إليه، وطلب هذا الكرم منه.

فالرجاء: طمعٌ، ورغبةٌ، وطلبٌ لما عند الله ﷻ مع بذل الجهد في الأسباب المُوصِلَة لذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[الأنبياء: ٩٠]، والرجاء خلاف التمني، فالتمني يكون مع الكسل، والرجاء يكون مع بذل الجهد، وحُسْنِ التوكل.

قال الكِرْماني: علامة صِحَّة الرجاء حسن الطاعة، فالراجي يعمل بالطاعة يرجو المَثُوبة، ويتوب من الذنب يرجو المغفرة، أما القاعد عن الطاعة المقيم على المعصية فليس براجٍ، وإنما هي الأماني التي تورد أصحابها المهالك.

قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾[الإسراء: ٥٧]، وابتغاء الوسيلة إليه: طلب القرب منه بالعبودية والمحبة، فذكر الله ﷻ في هذه الآية مقامات الإيمان الثلاث التي عليها مداره «الحبُّ، والخوفُ، والرجاءُ»، وكل ذلك مع العمل، وبذل الجهد. قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[الكهف: ١١٠].

قال معروف الكرخي: «رجاؤك رحمةَ من لا تُطِيُعه خُذْلانٌ وحُمْقٌ».

ومما يوجب للعبد الرجاء: التعلُّق بالله من حيث اسمِه المُحْسِنُ، البَرُّ، المعطي، الغفور، الجَواد، الوَهَّاب، الرزَّاق، الكريم، الرحيم.. ذلك التعلق والتعبد لله ﷻ بهذه الأسماء والمعرفة بآثارها يوجب للعبد الرجاء من حيث يدري ومن حيث لا يدري، فقوة الرجاء بحسب قوة المعرفة بالله وأسمائه وصفاته وسعة رحمته

سبحانه، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[الأعراف: ١٥٦]، قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[الزمر: ٥٣].

عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قدم على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبْيٌ، فإذا امرأة من السَّبْيِ تَسْعَى إذ وَجَدَت صبيًا في السَّبْي فأخذته فَأَلْزَقَتْهُ ببطنها فأرضعته، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟**» قلنا: لا والله فقال: «**للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا**».

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِذَا ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِذَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَإِذَا تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِذَا أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً**»[(١)].

وعن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ وَالنَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ الْعَمَلِ**»[(٢)]، وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ، فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا لَا يُشْرِكُونَ بِاللهِ شَيْئًا إِلَّا شَفَّعَهُمْ اللهُ فِيهِ**»[(٣)].

التوبة:

التوبة: هي الإقلاعُ عن الذنب والتقصير والغفلة مع الندم على ما كان منه من ذلك، والعزمِ على عدم العودة إليه.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٣٤٣٥)، ومسلم (٢٨).

وقد أمر الله ﷻ بها وأجمع العلماء على وجوبها، قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، وقال رسول الله ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ، فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ مِئَةَ مَرَّةٍ»(١)، وما منا من أحد إلا وله ذنوب ومخالفات قد لا يعلمها غيره من البشر، وإنما هي بينه وبين ربه.

فَفَتِّشْ في نفسك أخي الكريم! وحدِّدْ كل ذنب اسْتَعْصَى عليك علاجُه، وكلَّ تقصير اسْتَعْصَى عليك التخلُّصُ منه، واكتبه في مذكِّرة خاصة وابدأ بإعلان التوبة منه والاستعانة بالله ﷻ، واللجوء إليه أن يتوب عليك منه؛ لتتوب، فإنه سبحانه هو الذي يُوَفِّقُ من أحبَّ إلى التوبة فيتوبُ عليهم؛ ليتوبوا، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة: ١١٨].

واعلم أن الله ﷻ أرحم الراحمين، وهو الغفور الرحيم، ومن رحمته أن فتح باب التوبة لكل العُصاة مهما كانت معاصِيهم صغيرةً كانت أم كبيرةً، عظيمةً كانت أو حقيرةً، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

قال بعض أهل العلم: فتح الله بهذه الآية باب التوبة لكل العصاة مهما كانت معاصيهم، عظيمةً كانت أو حقيرةً، حتى إنه فتح باب التوبة للذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة، والذين قالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء، فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤]، ولو تابوا لتاب الله عليهم.

بل فتح باب التوبة للذين حفروا الأخاديد، وأضْرَمُوا(٢) فيها النيران، وألقوا فيها أولياء الرحمن، ولو تابوا بعد هذا لتاب الله عليهم سبحانه، قال تعالى:

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٩٤٨) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠]، فعلَّق عذابَهم على عدم توبتهم، ولو تابوا بعد أن فعلوا بالمؤمنين ما فعلوا لتاب التواب الرحيم عليهم.

ومن رحمته كذلك: أنه يبسط يدَه بالليل؛ ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار؛ ليتوب مسيء الليل(١)، فليكن لك أخي الحبيب وِرْدٌ من المحاسبة آخرَ كل يوم، وآخر كل ليلة، فإن كان منك زَلَلٌ أو تقصير في النهار فاعلم أنه سبحانه يبسُط يده بالليل؛ ليتوب مسيء النهار، فهو سبحانه يدعوك إليه؛ لتتوب وتتدارك، وإن كان منك تقصير بالليل فهو سبحانه يبسُط يده بالنهار؛ ليتوب مسيء الليل، فتُبْ إليه، وتدارك ما فات.

ومن رحمته ﷻ: أنه أَفْرَحُ بتوبة التائب إليه من رجل في فلاة انفلتت منه دابَّته، وعليها طعامه وشرابه فبحث عنها حتى آيسَ منها، فقال: أنام حتى أموت، ففتح عينيه، فإذا دابته أمامه عليها طعامه وشرابه، فالله - سبحانه وتعالى - أشد فرحًا بعبده إذا تاب إليه من هذا بعودة الأملِ في الحياة إليه(٢).

واعلم أن شروط التوبة ثلاثة:

١- الإقلاع عن الذنب.

٢- الندم على ما بدر حتى تلقى الله ﷻ.

٣- العزمُ على عدم العودة إلى هذا الذنب أبدًا.

هذا إذا كان الذنب في حق الله تعالى، أما إذا كان في حق المخلوقين فيُضَافُ إلى هذه الشروط شرطٌ رابعٌ؛ وهو: إيصال الحق إلى صاحبه إذا كان حقًّا ماديًّا، أما إذا كان غيبة، أو نميمة، أو غيرها فلابُدَّ من التحلل وطلب العفو منه.

***

(١) أضرموا: أشعلوا.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧٥٩).

فصل في المحاسبة

المحاسبة: هي عَدُّ العيوب والتقصير، والسيئات ولَحَظَات الغفلة، وتدارُكُ ذلك بالتوبة والاستقامة.

قال بعضهم: المحاسبة هي قيام العقل على حراسة النفوس، وتَفَقُّدُ زيادتها ونقصانها، وأن يَسْأَلَ عن كلِّ فعلٍ يفعله: لِمَ فَعلته؟ ولِمَنْ فَعَلْته؟ فإن كان لله سعى فيه، وإن كان لغير الله امتنع عنه. وأن يلومَ نفسه على التقصير والخطأ وإذا أمكن التدارك فعل واستكثر من الحسنات الماحية، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٨-١٩].

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حاسِبُوا أنفسكم قبل أن تحاسَبوا، وزِنُوا أعمالَكم قبل أن تُوزنوا، فإن أهونُ عليكم من الحسابِ غدًا أن تحاسبوا أنفسَكم اليوم»(١).

قال الحسن في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]: لا يلقى الله المؤمنُ إلا وهو يُعَاتِبُ نفسه، ماذا أردت بكلمتي ؟! ماذا أردت بأَكْلتي ؟! ماذا أردت بشَرْبتي ؟! والفاجرُ يمضي قُدُمًا لا يعاتب نفسه(٢).

كيف تكون المحاسبة ؟

ـ المحاسبة تكون على الأوقات في العموم، وتكون على كل عمل بخصوصه.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٣٠٨)، ومسلم (٢٧٤٧) عن أنس رضي الله عنه، وأخرجاه عن صحابة آخرون.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ٩٦) (٣٤٤٥٩)، وابن المبارك في «الزهد» (٣٠٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٥٢)، بأسانيد فيها انقطاع.

أمَّا المحاسبة على الأوقات: فرأس مال العبد الذي ستكون المحاسبة عليه هو «الصِّحَّةُ والفراغ»، فالفراغ الذي هو الوقت، الذي هو اللحظات، هو الذي تقع فيه الأعمال التي تحتاج إلى صحَّةٍ لتحصيلها كل عمل بحسبه فهو يُسَلِّم نفسه رأسَ ماله، ويشْتَرِطُ عليه أن تجلِبَ له أعلى قدرٍ من الرِّبح يمكن تَحْصِيلُه.

ففي بداية اليوم يقول لنفسه: هاك رأسَ مالي، واعلمي أنه يجب عليك كذا وكذا، ويُعَدِّدُ لها الواجبات التي يعلم أنها ستجب عليها؛ لعلمه بتكرارها كل يوم، ويزيد على ذلك أن يشارطها أنه إذا حدث وتجدد واجب من الواجبات لم أكن أعلم أنه سَيُطْلَبُ مني اليوم فلابُدَّ من فعله على الفور دون تردد، كأن يَحِلَّ ضيف مثلًا فتجب ضيافته، أو أن يستغيثَ به ملهوف ولا يُوجَد من يُغِيثُه غيرُه فيتعيَّن عليه فيفعل، وهكذا.

ثم يعَدِّدُ لها المُحَرَّمات التي يعلم أنها تتكرر، ويغلُبُ على ظَنِّه اعتراضها طريقه في هذا اليوم، ويحذرها أشد التحذير منها، كسماع الغيبة والنميمة، والكذب والنظر إلى ما يحرم النظر إليه، مع الاتفاق معها على الامتناع عن أيِّ مُحَرَّم يطْرَأ عليه في هذا اليوم، وكذلك يعدِّدُ لها المكروهات التي ينبغي تركُها في هذا اليوم.

ثم يعدِّدُ لها المُسْتَحَبَّاتِ التي سَيُلْزِمُها بها في هذا اليوم، ثم يَتَّفِقُ معها على مَلْءِ اللحظات، واستغلال جميع الأنفاس في الطاعات، إما ذكر وإما تلاوة، وإما صلة رحم أو برٌّ والدين، أو إحسان إلى الخلق أو غير ذلك. ويتفق معها أن لا تستكثِرَ من المُباح، وإنما تأخذ منه بقدْرِ الحاجة.

ويظلُّ طِيلَة يومه يُرَاقِبها، ويجاهدُها على الوفاء بوعدها معه. وفي نهاية اليوم يحاسبها على ما تَمَّ بالفعل؛ فإن وجد خيرًا فَلْيَحْمَد الله فإنما هو مَحْض

توفيق من الله، وإن وجد تقصيرًا - ولابُدَّ أن يَجِدَ - فلابُدَّ من التدارُكِ بأن يُعَوِّضَ تقصيرَ النهار بالليل، وتقصيرَ الليل بالنهار.

فمن قصَّر بالنهار ففي الليل مُسْتَعْتَبٌ من القيام، والاستغفار، والذكر والدعاء، ومن قصَّر بالليل ففي النهار مُسْتَعْتَبٌ من الصيام، والقرآن، والذكر، والإحسان إلى الخلق.

وهناك مُحَاسبة ستكون على كل عمل بخصوصه، وهي تكون: قبل العمل، وأثناءَ العمل، وبعد العمل.

- **فقبل العمل**: إن كان مُحَرَّمًا أَلْزَمَها الامتناع عنه، وإن كان مكروهًا فلابُدَّ من تركه أيضًا إلا إذا وُجد داعٍ قويٌّ إليه، وإن كان مباحًا فلا يأخذ منه إلا بما تدعو الحاجة إليه، وإن كان مستحبًا فيَحْمِلُ نفسه عليه إلا إذا كان هناك أولى منه، وإن كان واجبًا فيُلْزِمُها به إلا إذا تعارضت الواجبات فيُقَدِّمُ أوجبها.

ثم يسأل نفسه: ما هو الباعثُ على هذا العمل ؟ وما هي الطريقة التي سَيُؤَدَّى بها؟ فإن كان لله وعلى سنة رسول الله ﷺ أَقْدَم عليه، وإن كان لغير الله أو على خلاف السنة امتنع حتى يحصل ما فقد من شروط العمل.

- **أما في أثناء العمل**: فالمُحَاسبة على استمرارِ الإخلاص فيه، واستكمال شروطه التي بها يصح العمل، واستكمال السنن والآداب من بدايته إلى نهايته.

والمحاسبة بعد العمل، فيحاسب نفسه على عدة أمور:

١- هل كان من تقصير في أداء العمل؟

٢- هل كان هذا العمل غيرُه خيرٌ منه؟

٣- هل حدث في نفسه عُجْبٌ بهذا العمل؟

وهكذا يحاسِبُ نفسه على كل صغيرة وكبيرة، وعلى كل لحظة ونَفَسٍ، ومن فعل ذلك كان حَرِيًّا أن يُوَفَّقَ، والله ﷻ لا يضيع أجر المحسنين، قال ﷻ:

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾[العنكبوت: ٦٩].

ومع تكرار ذلك؛ ستُصْبِحُ محاسبة النفس سجِيَّة للعبد لا يحتاج إلى كثير تكلُّف؛ بل ستستَيْقِظُ عنده هذه الحاسَّة، وهي حاسَّة المحاسبة، وتكون بصورة تلقائية في كل لحظاته وأحواله.

ثمرات المحاسبة، ومنها:

١- **معرفة عيوبِ النفسِ**: ومن ثَمَّ العمل على علاجِهَا؛ فإنه إن لم يطَّلِعْ على عيوبِ نفسه فلن يقدِرَ على إزالَتِها.

قال محمد بن واسع: لو كان للذنوب ريح ما قَدَرَ أحدٌ أنْ يجلسَ إليَّ [(١)]، وما قال ذلك إلا لأنه حاسَبَ نفسه وعدَّ ذنوبه وعيوبَه.

٢- **التعرُّفُ على أمراضِ قلبِه وخباياه**: فكلما حاسَب نفسَه تعرَّف على المخالفاتِ والتقصيراتِ المتكررةِ، وتعرف على أصلِها في القلبِ، وهذا مما يُعِينُه على سلوكِ الطريقةِ النافعةِ للعلاج.

٣- **التعرُّفُ على حقِّ الله تعالى**: فإنَّ مِنْ حقِّه ـ سبحانه ـ أن يُطَاعَ فلا يُعْصَى، وأن يُذْكَرَ فلا يُنْسَى، وأن يُشْكَرَ فلا يُكْفَرَ، يرى العبدُ بالمحاسبةِ تقصيرًا، فيتخلَّصُ بذلك من العُجْبِ ورؤيةِ العمَلِ، ويُفْتَحُ له بابُ الخضوع والذُّلِّ والانكسارِ بين يديْ ربِّه، ويتبرأُ من حولِ نفسِه وقوَّتِها، ويعلمُ أن النجاةَ لا تحْصُلُ إلا بعفوِ اللهِ ومغفرَتِه ورحمتِه.

قال يونس بن عبيد: إني لأجدُ مائة خصْلَةٍ من خصالِ الخيرِ، ما أعلمُ في نفسي منها واحدة [(٢)].

٤- **المحاسبة تُسَهِّلُ على صاحبِها الطاعةَ**، وتحبِّبُها إليه، وتُصَعِّبُ عليه

---

(١) أخرجه أحمد في«الزهد» بسند صحيح، ص (٣٤٣).

(٢) «تاريخ دمشق» (٥٦/ ١٥٨)،«السير» (٦/ ١٢٠)،«تاريخ الإسلام» (٨/ ٢٦٠)،«الورع» لأحمد بن حنبل (١/ ١٥٢).

المعصيةَ، وتُبَغِّضُها إليهِ.

٥- مداوَمَةُ المحاسبةِ تجعلُ العبدَ لا يترُكُ لحظةً إلا واغتنمَها في تحصيلِ الأجرِ، بل وأعظمَ ما يعلمُ من الأجرِ، فيكون همُّه اغتنامَ الأوقاتِ في الأفضلِ من الأعمال.

من أقوال السلف في المحاسبة:

قال عمرُ بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حاسِبُوا أنْفُسَكُم قبل أن تُحَاسَبُوا، وزِنُوا أعمَالكم قبل أن تُوزَنُوا، فإنهُ أهوَنُ عليكم في الحساب غدًا أن تحاسبوا أنفسكم اليومَ [(١)].

قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ المؤمنُ قوَّامٌ على نفسِه يحاسِبُها لِله دائمًا، وقد خَفَّ الحسابُ على قومٍ حاسبوا أنفُسَهُم في الدنيا، وإنما شَقَّ الحسابُ على قومٍ أخذوا هذا الأمر من غير مُحَاسَبَةٍ.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ رَحِمَهُ اللَّهُ المؤمن يفجأه الشيء يعجبه، فيقول: والله إنك لتعجبني وإنك من حاجتي، ولكن هيهات، حِيلَ بيني وبينَك [(٢)]، ويَفْرُطُ منه الشيءُ فيرجعُ إلى نفسِه، فيقول: ماذا أردتَ بهذا؟

قال مالك بن دينار رَحِمَهُ اللَّهُ رحم الله عبدًا قال لنفسه: أَلَسْتِ صاحبةَ كذا؟ -يعني من السَّيِّئات التي فعلها- أَلَسْتِ صاحبةَ كذا؟ أَلَسْتِ صاحبةَ كذا؟ ثم زَمَّها، ثم خَطَمَها، ثم أَلْزَمَها كتاب الله تعالى فكان لها قائدًا [(٣)]. فاحرص على المحاسبة، ليكن لك في هؤلاء أسوة.

يقول أبو علي الثقفي رَحِمَهُ اللَّهُ كان أبو حفصٍ النيسابوري يقول: من لم يَزِنْ

---

(١) «مسند ابن الجعد» (١٣٣٥)، «حلية الأولياء» (٣/ ١٨)، «تاريخ الإسلام» (٨/ ٥٧٤).

(٢) «مصنف ابن أبي شيبة» (٣٤٤٥٩)، «تاريخ دمشق» (٤٤/ ٣١٤)، «أسد الغابة» (٤/ ١٨٣).

(٣) وهذا في المباحات التي تركها خير من فعلها، زَمَّها: جعل لها زمامًا، خطمها: جعل لها خطامًا، والمقصود أن يتحكم فيها ولا يتركها على هواها.

أحوالَه كل وقتٍ بالكتاب والسُّنَّةِ، ولم يَتَّهِم خواطِرَه، فلا تعدَّه(١).

قال عن ميمون بن مهران رَحِمَهُ اللَّهُ: لا يكون الرجلُ تقيًّا حتى يكون لنفسه أشدَّ محاسَبة من الشريكِ لشريكه، حتى يعلمَ من أين ملبَسُه ومطعمُه ومشربُه.

قال حاتم الأصم رَحِمَهُ اللَّهُ: تعاهَدْ نفسَكَ في ثلاثٍ: إذا عَمِلْتَ فاذكر نَظَرَ اللهِ إليك، وإذا تكلَّمْتَ فاذكرْ سَمْعَ اللهِ منك، وإذا سَكَتَّ فاذكر عِلْمَ الله فيك(٢).

قال بلال بن سعد رَحِمَهُ اللَّهُ: لا تكن وليًا لله في العلانيةِ، وعدوَّه في السِّرِّ.

قال سفيان رَحِمَهُ اللَّهُ: ما عالجتُ شيئًا أشد عليَّ من نفسي؛ مرة عليَّ ومرة لي.

عن المنكدر بن محمد عن أبيه: أن تميمًا الداريَّ نام ليلةً لم يقُمْ يتهجَّدُ؛ فقام سنةً لم ينَم فيها؛ عقوبةً للذي صَنَعَ.

قال ابن طاهر: لما عزم الزنجاني سعدُ على المجاوَرَةِ(٣) عزم على نيِّفٍ وعشرين عزيمةً أن يُلْزِمَها نفسَه من المجاهَدات والعباداتِ، فبقي به أربعين سنة لم يخلَّ بعزيمة منها(٤).

قيل للأحنفِ بن قيسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: إنك كبيرٌ، والصومُ يُضْعِفُك، قال: إني أعدُّه لسفرٍ طويل.

وقيل: كانت عامَّةُ صلاتُه بالليلِ، وكان يَضَعُ أصبُعَه على المصباحِ، ثم يقول: حِسْ(٥)، ويقول: ما حمَلك يا أحنف على أن صنعت كذَا يوم كذا؟(٦)

قال بكير بن عتيق: سقيتُ سعيدَ بن جبير شربةً من عسلٍ في قدَح، فشربها، ثم قال: والله لأُسْأَلَنَّ عنه. قلت: لِمَ؟ قال: شَرِبْتُه وأنا أسْتَلِذُّه.

---

(١) «تاريخ دمشق» (٥٦/ ٤٢٠).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٥١٢)،«تاريخ الإسلام» (٢٠/ ١٤٤)،«إغاثة اللهفان» (١/ ١٢٥).

(٣) المجاورة: الاعتكاف.

(٤) «حلية الأولياء» (٨/ ٧٥)،«سير أعلام النبلاء» (١/ ٤٨٥).

(٥) حِسْ: كلمة تقال عند التوجع.

(٦) «السير» (١٨/ ٣٨٧).

الباب الثالث

تربية الأسرة والمجتمع

تفسير قول الله تعالى

﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ ﴾

تربية الأسرة والمجتمع

تفسير قول الله تعالى: ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ﴾

قال الإمام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «معنى ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ﴾ أي: تحابُّوا، أَوْصَى بعضهم بعضًا بالحقِّ: أي التوحيد، كذا روى الضحاك عن ابن عباس. وقال قتادة: بالحق؛ أي: بالقرآن، وقال السدي: الحقُّ هنا هو الله عَزَّ وَجَلَّ»[(١)] اهـ.

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ﴾؛ أي: أوصى بعضُهم بعضًا بلزوم العمل بما أنزل الله عَزَّ وَجَلَّ في كتابه من أمره، واجتناب ما نهى عنه فيه »[(٢)] اهـ.

قال في «أيسر التفاسير »: «﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ﴾؛ أي: أوصَى بعضُهم بعضًا باعتقادِ الحقِّ، وقولِه، والعملِ به» اهـ.

أخي الكريم: هذه الآية دليل على وجوب الدعوة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، **وأنَّ هذا هو الشرط الثالث من شروط النجاة من الخُسْرِ.**

فتَعَالَ معي نعيشُ مع الدعوة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، **نتعرَّف على: فضائلها، وسماتها، وأصولها، وأهدافها، وصفاتها، وكيفيَّتِها.**

الدعوة إلى الله تعالى: «فضائل ـ وسمات ـ وأصول ـ وأهداف»

فضائل الدعوة إلى الله تعالى:

ـ مما يدل على فضل الدعوة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ: أنها وظيفة خير خلق الله عَزَّ وَجَلَّ ـ الأنبياء والمرسلين ـ وعلى رأسهم سيد الأولين والآخرين ﷺ، قال له ربه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ [القصص: ٨٧].

---

(١) «تاريخ دمشق» (٢٤/ ٣٢٣)، «تاريخ الإسلام» (٥/ ٣٥٠)، «السير» (٤/ ٩١).
(٢) «تفسير القرطبي» (٨/ ٧٤٦٦).

- ومما يدل على شرفها ومنزلتها كذلك: أن خَيْرِيَّةَ هذه الأمَّةِ مَنُوطَةٌ[(١)] بها، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

- ومما يدل على فضلها كذلك: ما أخبر به النبي ﷺ من الأجرِ الذي يترتَّبُ عليها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدَىً كَانَ لَهُ مِنْ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا**»[(٢)].

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «**فَوَ اللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمُرِ النَّعَمِ**»[(٣)].

وقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ، وَأَهْلَ السَّمَاوَاتِ وَأَهْلَ الْأَرْضِ، وَحَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا، وَحَتَّى الحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الخَيْرَ**»[(٤)].

الدعوة إلى الله عز وجل: عبودية، ورحمة: عبودية للرب، ورحمة بالخلق:

عبودية للرب؛ لأن الشرع الحنيف أمر بها، وتوعد وتهدد من تركها، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وعن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعًا: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ**»[(٥)]، فهنا أمر الشارع بها.

وأما عن توعُّده من ترك هذه العبادات عند وجوبها، فقد قال الله عز وجل في بني إسرائيل: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى

---

(١) «تفسير الطبري» (١٢/ ٦٨٥).

(٢) منوطة: مُعَلَّقَة.

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٧٤).

(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٢٩٤٢)، ومسلم (٢٤٠٦).

(٥) حسن: أخرجه الترمذي (٢٦٨٥) عن أبي أسامة الباهلي رضي الله عنه، وحسنه الألباني، انظر [«مشكاة المصابيح» (٢١٣)].

ﭐبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾[المائدة: ٧٨-٧٩].

وعن أبي بكر رضي الله عنه قال: يا أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾[المائدة: ١٠٥]، وإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمْ اللهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ**»(١).

ـ **وكما أن الدعوة عبوديةٌ للربِّ، فهي رحمةٌ بالخلق**: كيف لا وهي استنْقاذٌ للناس من ظلماتِ الشرك والمعاصي إلى نورِ التوحيدِ والطاعةِ، كيف لا تكون رحمة وهي اسْتِنْقَاذٌ للناس من مُوجِبات غضب الربِّ وانتقامه في الدنيا إلى مُوجِبات عفوِه ورحمته ومننه، كيف لا تكون رحمة وهي اسْتِنْقَاذٌ للناسِ من موجبات عذاب القبر وحسراته إلى موجبات النعيم فيه، والراحة والسرور والحبور، كيف لا تكون رحمةً وهي استنقاذ للناس من مُوجبات الخسار والبوار والنار يوم القيامة إلى موجبات الفوزِ والفلاح والجنان وجِوَارِ الرَّحْمنِ.

أخي الكريم: لو أن لكَ في الله أخًا تُحِبُّه ورأيته يتحرَّك مُتَوَجِّهًا في اتجاه حفرةٍ عميقة لا يدري بها، وأوشك أن يقَعَ فيها، أليس من الرحمة به أن تقول له: أخي احذر؛ فإن حفرة خطيرة أمامك! ولا تمشِ في هذا الطريق، أليس من الرحمة به أن تمنعه بكل ما تستطيع! فإذا كان هذا في شأن حفرةٍ غاية ما يصيبُه منها أن تجرحه، أو تكْسِرَ له عظمًا، أو حتى تقتله، فكيف إذا كانت هذه الحفرة نارًا أُوقِدَ عليها ألف سنة حتى احمرَّتْ، وألف سنة حتى ابيضت، وألف سنة حتى اسودت، فهي سوداء مظلمة، أليس من الرحمة أن تعمل على وقايته منها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٤٩).

غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦].

في الصحيح أن النبي ﷺ كان له غلام يهودي يخدمه، فمرض الغلام، فذهب إليه رسول الله ﷺ يعوده، فجلس عند رأسه، فقال: «**يَا غُلَامُ أَسْلِمْ**»، فنظر الغلام إلى أبيه، فقال: يا بُنَيَّ أطعْ أبا القاسم، فأَسْلَمَ الغلام، فقال النبي ﷺ: «**الحَمْدُ لله الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنْ النَّارِ**»(١).

صور من علو الهمة في الدعوة إلى الله ﷻ (٢):

نوح؛ علوُّ همةِ نوح؛ في الدعوةِ إلى الله ﷻ، وله القَدَحُ المُعَلَّى في ذلك، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٤].

قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ [نوح: ٥-١٣].

قال أبو القاسم الغرناطي: ذكر أولًا أنه دعاهم بالليلِ والنهارِ، ثم ذكرَ أنه دعاهم جهارًا، ثم ذكرَ أنه جمع بين الجهر والإسرار، وهذه غاية الجِدِّ في النصيحةِ وتبليغِ الرسالةِ.

قال القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بذل نوحٌ؛ غاية الجهدِ دائمًا بلا فُتُور ولا توانٍ، وضاقت عليه الحِيَلُ في تلكَ المُدَدِ الطِّوَالِ.

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٣٣٨)، والترمذي (٢١٦٨)، وصححه الألباني في [«صحيح الجامع» (١٩٧٣)].

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (١٣٥٦).

نبي الله محمد ﷺ:

أعلى الهمَّةِ هِمَّةُ نبيِّنا محمد ﷺ بأبي هو وأمِّي ﷺ كان حِرْصُه أشدَّ الحرصِ على هدايةِ الناسِ وتعليمِهم وتزكيتِهم، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [النحل: ٣٧].

بل كادَ يموتُ غمًّا وأسفًا عليهم، قال تعالى: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨]، ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]. **والبخع**: قتل النفس غمًّا [(١)].

عن جابر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَارًا، فَجَعَلَ الجَنَادِبُ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهَا، وَهُوَ يَذُبُّهُنَّ عَنْهَا، وَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنْ النَّارِ، وَأَنْتُمْ تَفَلَّتُونَ مِنْ يَدِي**» [(٢)].

لقد دعا في جميعِ الأماكنِ والأزمانِ والأحوالِ، ودعا جميعَ أصنافِ الناسِ، واسْتَخْدَمَ جميعَ الأساليبِ المشروعةِ، دعا فوقَ الجَبَلِ، وفي المسجدِ، وفي الطريقِ، والسوقِ، وفي منازلِ الناسِ في المواسِمِ، وحتى في المقبَرَةِ، دعا في الحَضَرِ والسَّفَرِ، وفي الأمْنِ والقتالِ، في صِحَّتِه ومَرَضِه، وحينما كان يزورُ أو يزار.

دعا من أحبُّوه ومن أبغضُوه وآذَوْه، ومن استمعوا إلى دعوتِه ومن أعرضوا عنه، وبعث الرسائلَ والرُّسُلَ إلى المُلُوكِ والرُّؤَساءِ مِمَّنْ لَمْ يَتَمَكَّنْ من الذَّهَابِ إِلَيْهِم بنَفْسِهِ.

عن جابر رضي الله عنه: أن النبيَّ ﷺ لَبِثَ عشْرَ سنين يَتْبَعُ الناس في منازِلهم في الموسم، ومِجَنَّةَ، وعكاظ، ومنازلهم في منى، يقول: «**مَنْ يُؤْوِينِي؟ وَمَنْ يَنْصُرُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَاتِ رَبِّي فَلَهُ الجَنَّةُ؟**»، فلم يجد أحدًا ينصرُه ولا يُؤْوِيه، حتى إن

(١) باختصار من «صلاح الأمة في علو الهمة»، د: سيد حسين العفاني حفظه الله.
(٢) كما قال الراغب الأصفهاني في «المفردات في غريب القرآن».

الرجلَ يرحلُ من مصرَ أو اليمنِ إلى ذي رحِمِهِ، فيأتيه قومُه فيقولون له: احذرْ غلامَ قريشٍ، لا يفتننك.

ويمشي ﷺ بين رِجَالِهم يدعوهُم إلى الله ﷻ، ويشيرون إليه بالأصابعِ حتى بعثنا الله من يثرب، فيأتيه الرجل منا فيؤمن ويُقرئه القرآن، فينقلِبُ إلى أهله، فيسلمون بإسلامِه حتى لم يَبْقَ دارٌ من دورِ الأنصارِ إلا وفيها رهْطٌ من المسلمين يظهرون الإسلامَ، وبعثنا اللهُ إليه، فائتمرنا واجتمعنا، وقلنا: حتى متى رسول يُطْرَدُ في جبالِ مكة ويَخَافُ؟ حتى قَدِمْنا عليه في الموسِم، فَوَاعَدَنا بيعةَ العقبةِ[1].

ـ كان الرجلُ من أصحابِ النبيِّ ﷺ بِمُجَرَّدِ أَنْ يُسْلِمَ يصيرُ داعيةً إلى الإسلامِ، ونضربُ مثالين: عروةَ بنَ مسعود رضي الله عنه، وضمامَ بنَ ثعلبة رضي الله عنه.

عن عروة بن الزبير رضي الله عنه قال: لما أنشأ الناس الحج سنة تسع، قَدِمَ عروةُ بن مسعود رضي الله عنه على رسول الله ﷺ مسلمًا، فاسْتأذنَ رسول الله ﷺ أن يرجع إلى قومِه، فقال رسول الله ﷺ: «**إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَقْتُلُوكَ**»، قال: لو وجدوني نائمًا ما أيقظوني.

فأذن له رسول الله ﷺ، فرجع إلى قومه مسلمًا، فرجع عشاءً، فجاء ثقيف يحيونه فدعاهم إلى الإسلام، فاتهموه، وأغضبوه وأسمعوه، فقتلوه، فقال رسول الله ﷺ: «**مَثَلُ عُرْوةَ مَثَلُ صَاحِبِ يس؛ دَعَا قَوْمَهُ إِلَى الله تَعَالَى فَقَتَلُوهُ**»[2].

أخرج ابن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بعث بنو سعدِ بنِ بكرٍ ضمامَ بنَ ثعلبة إلى رسولِ الله ﷺ، فقدمِ علينا، فأناخ بعيرَه على بابِ المسجد، فعَقَلَهُ ثم دخل على رسولِ الله ﷺ ـ وهو في المسجد، جالسٌ مع أصحابه ـ فقال: أيُّكم ابنُ عبد المطلب؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أَنَا ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِبْ**»، قال: محمدٌ؟

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٣/ ٣٢٢)، وصححه الألباني في [«الصحيحة» (١/ ٩٣)].

(٢) ضعيف: رواه الطبراني في الكبير (١٧/ ١٤٧)، وضعفه الألباني في [«الضعيفة» (١٦٤٢)].

قال: «**نَعَـمْ**»، قال: يا محمد، إني سـائلك ومغلِّظٌ عليكَ في المسـألةِ، فلا تَجِدَنَّ عَلَيَّ في نفسِـك، فإني لا أجِدُ في نفسـي، قال: «**سَـلْ عَمَّا بَدَا لَكْ**»، قال: أنشدك الله؛ إلهـك وإلـهَ مـن قبلك وإلهَ مـن هو كائن بعـدَك، آللّه بعثك إلينا رسـولًا؟ قال: «**نَعَـمْ**»، قال: فأنْشُـدُكَ اللَه؛ إلهَك وإلهَ من قبلـك وإلهَ من هو كائن بعدَك، آلله أَمَرك أن نَعْبُدَه ولا نشْرِكَ به شيئًا، وأن نخلعَ هذه الأوثانَ والأندادَ التي كان آباؤُنا يعبدون؟ فقال: «**اللَّهُمَّ نَعَمْ**»، فجعل يذكرُ فرائِضَ الإسـلامِ كلَّها؛ يَنْشُـدُه عند كل فريضةٍ كما أنشـده في كان قبلها، حتى إذا فرغ قال: فإني أَشـهدُ أن لا إله إلا الله، وأنك عبد الله ورسوله، وسَأُؤدي هذه الفرائضَ وأجتنب ما نهيتني عنه، ولا أزيـد ولا أنقـص، ثم انصرف راجعًا إلى بعيره، فقال رسـول الله ﷺ حين ولّى: «**إِنْ يَصْدُقْ ذُو الْعَقِيصَتَيْنِ يَدْخُلْ الجَنَّةَ**».

وكان ضمـام رجـلًا جلدًا، أَشْـعَرَ ذا غديرتين، ثم أتى بعيـرَه فأطلق عِقَالَه، حتـى قَدِمَ على قومِـه، فاجتمعوا إليه فـكان أولَّ ما تكلم به وهو يسـبُّ اللاتَ والعزى، فقالوا: مهْ يا ضمامُ اتَّقِ البرصَ والجُذام والجنونَ، قال: ويلكم، إنهما والله لا يَضُرَّانِ ولا ينفعان، إن الله قد بعث رسـولًا وأنزل عليه كتابًا اسـتنقذكم بـه مما كنتم فيه، وإني أشـهد أن لا إلـه إلا الله وأن محمدًا عبده ورسـوله، وإني قـد جِئْتكـم من عندِه بما أمركم بـه ونهاكم عنه، فو الله ما أمسـى ذلك اليومَ من حاضِرَتِه رجلٌ ولا امرأة إلا مسلمًا.

قال ابن عباس: فما سمعنا بوافد قوم كان أفضل من ضمام بن ثعلبة (١).

الداعي عالي الهمة رجلُ عامة:

الداعـي الفـذُّ هو رجـل العامَّـةِ، يقصِـدُ العامَّـةَ، يَتَّصِـلُ بهم ويُجَالِسُـهم ويعلِّمُهم، مثل سـيرةِ سـلفِه الجهابذةِ؛ كانوا أَئِمَّةً للعامةِ، يتصدّون لإرشاد كلِّ

---

(١) حسن: رواه الحاكم (٤٣٨٠)، وحسنه الألباني في تعليقه على «فقه السيرة» (١/ ٤٢٤).

الناسِ، فيتزايَدُ حبُّ القلوبِ لهم، ويَرَوْنَ فيهم القدوةَ الصحيحةَ التي لا مطعَنَ فيها، فيتبعونهم ويمتثلون أمرَهم.

منهم؛ إمامُ أهل السنةِ أحمدُ بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فهذا الزاهدُ المشهورُ بشرُ بن الحارثِ الحافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يعـدِّدُ ثلاثَ خصالٍ امتاز بها الإمام أحمد، وفُضِّلَ بها عليه، وقصر هو عنها، أحدها: أنه نُصِبَ إمامًا للعامَّـةِ، لم يحْمِلْه علمُه على حصْرِ نَفْسِه بين الجدرانِ، بـل نزل إلى الجموعِ وقادهـا في مواقفها في معارَضَـةِ الجَهْمِيَّةِ والمعتزلةِ الذيـن أرادوا حرف عقيدةِ الأمةِ ببدعـةِ خلقِ القرآنِ، ونازعَ الدولةَ كلَّها حيـن أرادتْ فرضَ البدعةِ بالقوةِ حتـى نصرَه اللُّه بالمتـوكلِ، وإنما نعنـي بالعامَّةِ جمهورَ النـاسِ المثقفِ منهم والأمِّـيِّ، لا الاصطلاحَ الحادثَ الذي يعني الجهالَ، وقد كان إمام أهل السـنةِ يترَصَّدُ أخبارَ الرجالِ في المجتمع فيحتكُّ بهم ويتعرَّفُ عليهم ويزورُهم.

كان إذا بلغه عن شـخص صلاحٌ أو زهدٌ أو قيامٌ بحقٍّ أو اتباعٌ للأمرِ، سـأل عنه وأحبَّ أن يجري بينه وبينه معرفةٌ، وأحبَّ أن يعرِفَ أحوالَه.

نعـم لا يكون رجل عامة إلا من فَتَّش عن الناسِ وبحث عنهم، وسـأل عن أخبارِهم، ورحل للقائِهم، وزارهم في مجالسِهم ومُنْتَدَيَاتِهِم.

والإمام الزهريُّ زعيم المُحَدِّثين:

رَبَّى أجيالًا من أهلِ الحواضِرِ الإسلاميةِ، وجعلهم أَئِمَّةً في الحديثِ، ما كان ذلـكَ يكفيـه، بل كان ينزِل بالأعرابِ يُعَلِّمُهم يُحَفِّـظُ من بقي صحيحَ العقيدةِ، ويَتَلَطَّفُ مع من نجح أهلُ البدعِ في حَرْفِه، فيرجعُه إلى التوحيد.

وجَدَّدَ آخرون سيرَةَ الزهريِّ، منهم الفقيهُ الواعظُ أحمدُ الغزالي، أخو الإمامُ صاحـبُ الإحياءِ؛ فإنه كان يَدْخُلَ القُـرَى والضِيَاعِ ويَعِظُ لأهلِ البوادي تَقَرُّبًا إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.

دعوة إلى الله تعالى في السجون:

يقول توماس. و. أرنولد: حتى الأسيرُ المسلمُ يَغْتَنِمُ الفُرَصَ في المناسباتِ لدعوةِ آسريه وإخوانه في الأسر إلى دينه.

ثم قال: وقد تَسَرَّبَ الإسلامُ إلى أوروبا الشرقيةِ أوَّلَ الأمرِ بفضلِ الله، ثم ما قام به فقيهٌ مسلم، سِيقَ أسيرًا وجيء به إلى بلادَ بنشنج في مُسْتَهَلِّ القرن الحادي عشر، وقد بَسَطَ بين يديْ كثيرٍ منهم تعاليمَ الإسلامِ، فاعتقدوه في إخلاص حتى أنه أخذ في انتشار بين هذا الشعبِ، ولم تأت نهاية القرن الحادي عشر حتى كان الشعب بأسرِه قد اعتنقوا الإسلام، وكان من بينهم مسلمون تعلموا الفقهَ والتوحيد.

وفي عهد الإمبراطور نجير (١٦٠٥-١٦٢٨) كان هناك عالم سُنِّيٌّ من علماء التوحيدِ يُدْعَى الشيخ أحمد مجدد، وقد تَمَيَّزَ بقُدْرَتِهِ على مجادلةِ الشِّيعَةِ في عقائدِهم بنوعٍ خاصٍّ، ولما كان هؤلاء مقربين إلى البلاطِ في ذلك الحين نجحوا في إيداعه السجنَ بتُهْمَةٍ تافهة. وفي خلال السنتين اللتين قضاهما في الحبسِ أدخل في الإسلام عِدَّةَ مئات من عبد الأوثان الذين كانوا يرافقونه في هذا السجن نفسه.

ومنها: أن الحكومة البريطانية قضت بنفي أحد مولوية الهند إلى جزائر إندمان نفيًا مؤبدًا؛ لأنه كان قد قام بنصيب فعال في مؤامرة دَبَّرَها الوهابيون سنة ١٨٦٤، وهناك أدخل هذا المولوي في الإسلام - قبل وفاته - كثيرًا من المحكوم عليهم.

[illegible]

قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨]، هذه الآية بيَّنت أهمَّ السِّمات التي

ينبغي أن تَتَّسِمَ بها الدعوة حتى تكون حقًا دعوة ربانية.

وهذه السمات هي:

١- **دعوة سبيلها واحد لا تفرُّق فيه:** وهي سبيل النبي ﷺ، وسبيل أصحابه من بعده، ومن اتبعهم بإحسان، سبيل أهل السنة والجماعة الذي هو كسفينة نوح، فمن تمسَّك به نجا ومن تخلَّف عنه هلك، السبيل الذي صلح به أول هذه الأمة، ولا يصلح آخرها إلا به.

٢- **دعـوةٌ ربانيـة:** فشعارها ﴿ٱدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾، ولا تكون الدعوة ربَّانِيَّـةً حتَى تكون: ربانيـة في أصلها ومصدرها، في طريقها ومنهجها، وفي غايتها ومَقْصِدِها.

- **فهـي ربانيةٌ في أصلها ومصدرها**؛ لأنها ترجع إلى الكتاب والسنة وتنطلق منهما.

- **وربَّانيـةٌ في طريقهـا ومنهجهـا ووسـائلها:** فمنهجها هو منهج أهل السنة والجماعة، ووسـائلها لا تخرج عن المشـروع، فإن الغاية في الدعوة الربانية لا تُبَرِّرُ الوسيلة، لكنَّ الغاية إذا كانت مشروعة فلابد أن تكون الوسيلة مشروعة.

- **وربانيـةٌ في غايتهـا و مقصدهـا:** فينبغي أن تكون غايـة كل داع ابتغاء وجه الله والـدار الآخـرة بتعبيد النفس والناس لله رب العالميـن، في الضرَّاء بالصبر، وفي السـرَّاء بالشـكر، فالتمكين في حدِّ ذاته ليس غاية، وإنمـا الغاية هي تحقيق العبوديـة بـكلِّ معانيهـا وصُوَرِها، بكل مُسْـتَطَاع ومشـروع، وذلـك في جميع الأحوال والأوقات، في الشدَّة والرخاء، في الضرَّاء والسرَّاء.

٣- **دعـوة لهـا صفة الثبات والاسـتقرار:** فهـي واضحة المعالـم لا تتلوَّن بتلوُّن ما حولها، ولا تُغَيِّرُ جلدها ولا ولاءها حسـب المصلحة كسائر الدَّعَوَات الأرضية.

٤- **دعوة لها صفة الشمولية والاتساع:** فليست منحصرة في جانب واحد؛ بل تأخذ الدين وتقوم به من جميع جوانبه عِلمًا وعملًا، سلوكًا وخلقًا.

٥- **دعوة لها صفة العالَمية:** فليست منحصرة في بلدٍ، أو قبيلةٍ، أو شعبٍ، أو طائفةٍ؛ بل هي دعوة للإنس والجن إلى قيام الساعة.

٦- **دعوة لها صفة الواقعية:** فهي لا تعيش في الخيال، ولا تحارِبُ المعارك في الخيال؛ بل تُبدِّلُ الواقِعَ بإذن الله ﷻ بكل مقدور ومستطاع إلى ما يوافق الإسلامَ ويُرضي الرحمن.

٧- **هي دعوة على بَصِيرَةٍ:** والبصيرة علم بمُراد الشرع، وتوفيق في تطبيقه على الواقع، والبصيرة فيها بالنسبة للقلب كالبصر بالنسبة للعين، وبالبصيرة يُفَرِّقُ العبد بين السنة والبدعة، والحقِّ والباطل، وبين ما فيه توفيق الدعوة وتقدُّمها، وما فيه خُذْلانها وتراجُعها؛ لذا كان تحصيل البصيرة من الفرائض على كلِّ أحد، وعلى الدعاة خصوصًا.

من أسباب تحصيل البصيرة:

١- **صدق الإيمان بالله ورسوله:** قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

٢- **العلم النافع بما جاء به الرسول ﷺ:** قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

٣- **العمل الصالح بما علم:** فمن عَمِلَ بما عَلِمَ رُزِقَ عِلْمَ ما لم يعلم، وبالعلم والعمل تحصل التقوى التي يحب الله أهلها ويوفقهم إلى ما يحبه ويرضاه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٩].

٤- **صدق اتباع السنة ظاهرًا وباطنًا:** قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟

ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد: ٢٨].

٥- كثرة تلاوة القرآن، وتدبُّره والعمل به والاستدلال به: فبقدْرِ نصيبك من القرآن سيكون نصيبُك من البصيرة، ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢].

٦- كثرة العبادة: خاصَّة الصلاة، وإطالة السجود، والصدقة، والصبر والصوم، قال تعالى: [العلق: ١٩]، فكلما قَرُبَ العبد من ربه رأى الأمور على حقيقتها، ووُفِّقَ في معرفة الحقِّ منها، وفي الحديث: «**الصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ**» .

٧- غضُّ البصر، وحفظ الفرج، وتجنُّب الاختلاط المحرم، وسائر المعاصي:

قال النبي ﷺ: «**تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَعَرْضِ الْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّمَا قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّمَا قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَعُودَ الْقُلُوبُ عَلَى قَلْبَيْنِ: أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا لَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَقَلْبٍ أَسْوَدَ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ بِهَوَاهُ**» .

أصول الدعوة الربانية

ـ من أصول الدعوة الربانية التي تنطلق منها وتستصحبها وتربي أبناءها عليها:

التوحيد:

فالتوحيد هو الغاية التي من أَجْلِها خَلَقَ اللهُ ﷻ الخَلْقَ، ومن أجلها أرسل اللهُ الرُّسُلَ، وأنزل الكتب، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ

صحيح: أخرجه مسلم (٢٢٣)، عن أبي مالك الأشعري ﵁ .

صحيح: سبق تخريجه.

﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢٥ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ﴾ [هـود: ٢٥-٢٦]، وقال تعالى عن هود: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ﴾ [هود: ٥٠].

وهكذا جميع الأنبياء والرسل أُرْسِلُوا لدعوة الناس إلى عبادة الله وتوحيده، ولما أَرْسَلَ النبيﷺ معاذًا إلى اليمن أمره أن يدعوهم أولًا إلى توحيد الله ﷻ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسـول اللهﷺ قال لمعـاذ رضي الله عنه: «**إِنَّكَ تَقْدُمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْـلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللِه**»، وفي رواية: «**فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللُه، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله..**»[(١)] الحديث.

لذلـك كان لابـد للدعـوة الربانيـة أن يكـون أصلهـا الأصيـل وركنهـا الركين«التوحيـد»، عليـه تُرَبِّـى أبناءَهـا، وبه تنطلـق في دعوة الخلـق، توضح لهـم مـا يلزمهم مما يتعلق به أولًا وقبل كل شـيء، وتَنْتَقِلُ بـه إلى غيره، لا منه إلى غيره.

فـإن قيل: إن الناس كانوا في الماضي مشـركين، فلزم أن تكون الدعوة إلى التوحيـد حينئـذ أَوَّلَ ما ينبغي أن يدعـو إليه، ولكن اليوم الناس على الإسـلام يشـهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فما الداعي إذًا لدعوة الناس إلى التوحيد من جديد والمناداة فيهم به ؟

أجاب على هذا الاعتراض د. علاء بكر بما حاصله:

أن هذه مقالة خاطئة من جهات؛ منها:

أ - المسـلمون اليـوم لا يتجـاوزون ١/ ٦ سـكان العالم البالغ عدده سـتة آلاف مليون نسمة، فهناك خمسة آلاف مليون نسمة لا يدينون بالتوحيد؛ فيلزم

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٤٤٨)، ومسلم (١٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

المناداة فيهم به ودعوتهم إليه.

ب - الألف مليون مسلم أنفسهم فيهم من المآسي والانحرافات ما يصعب حصرُه، فكثير من البدع والضلالات والخرافات والخُزَعْبِلات والمعتقدات الباطلة تنتشر بينهم، وكثير من أعمال الشرك الظاهر والخفي الأكبر والأصغر يرتكبونها بألسنتهم، وجوارحهم، وتَسْتَوْلِي على قلوبهم وعقولهم، فأين هم من إفراد الله تعالى بالعبادة ؟!

ج - ومما يزيد حاجةَ الناس إلى فهم التوحيد بأدلته من الكتاب والسنة وعلى ما كان عليه السلف الصالح: ما ألحقه علماء الكلام وأتباع الفلسفة من استعمال اصطلاحات المتكلمين، وطرقهم في الاستدلال، حتى أصبحت قضايا التوحيد والاعتقاد عند كثير من الناس تَرَفًا عقليًا لا أثر له في القلوب. اهـ.

والتوحيد الذي جاءت به الرسل وأُنْزِلَت به الكتب نوعان:

- **الأول: إثبات ذات الربِّ وأسمائه وصفاته:** فهو سبحانه الخالق، الرزاق، المدبِّرُ، المالك لكل مالك وما ملك، الذي له السيادة المطلقة، الأمر والنهي لا شريك له في شيء من ذلك ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

- **الثاني: توحيد القصد والطلب:** فهو سبحانه الذي يَسْتَحِقُّ العبادة وحده بجميع أنواعها لا شريك له، والعبادة: اسم جامع لكل ما يُحِبُّه الله ويرضاه، من الأقوال، والأعمال، الظاهرة، والباطنة.

٢- الاتباع:

فكما أن مُقْتَضَى قولِك: أشهد أن لا إله إلا الله، أن يُوحَّد الله ﷻ ولا يُعبد غيرهُ، فمُقْتَضَى قولِك: أشهد أن محمدًا رسول الله، أن يُوَحَّد رسول الله ﷺ في الاتباع؛ فهو المتبوع وحدَه، إذ هو المُبَلِّغُ عن الله ﷻ شرعه إلى خَلْقِهِ، فلا يُعْبَدُ

الله ﷻ إلا بما شرع، ولا يُعرَف ما شرَع الله ﷻ إلا عن طريق رسوله ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ [النور: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣]، والمراد بـ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ هو القرآن والسنة المبيِّنة له لا آراء الرجال.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١]، وعموم الآية يُفيدُ أن من دُعِيَ إلى العمل بالكتاب والسنة وصَدَّ عن ذلك فهو من المنافقين. وقال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [النساء: ٥٩].

والرد إلى الله ﷻ هو: الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول ﷺ بعد وفاته: هو الرد إلى سنَّته؛ فيجب تقديمُ قول النبي ﷺ على قول كل أحد، وهَدْيِهِ على هَدْيِ كل أحد، وبيان ذلك للناس ودعوتهم إليه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما لعروة: «يُوشِكُ أن تنزِلَ عليكم حجارةٌ من السماء، أقول لكم: قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبو بكر وعمر!».

وليس ذلك مُقْتَصِرًا على أمرٍ دون أمر، وجانب دون جانب، بل إن اتباع السنة واجب في الأصول والفروع، وفي العقيدة والعمل، وفي الظاهر والباطن؛ لعموم الأدلة وإجماع الأمة.

قال الشافعي رحمه الله: أجمع العلماء على أن من استبانت له السُّنَّةُ لم يكن له أن يدَعها لقول أحد من الناس.

ومن فرَّق الدين فجعل بعضَ مسائله يُرْجَعُ فيها للسنة وبعضُها لا يَلْزَمُ، أو زادت جُرْأَتُهُ حتى قال عن شيء منها: إنه تافه، فقد ضلَّ وخالف الإجماع، فالدعوة مبناها على الاتِّباع، تدعو إليه به، فَتَدْعُوا إلى اتباع السنة بطرق لا

تخالف السنة.

أهداف الدعوة الربانية:

- إنَّ الهـدف الأعظم للدعوة الربانية هو: تعبيدُ النَّفْسِ والأُسْـرَةِ والمجتمع لله رب العالميـن؛ لما سـأل رسـتم رِبْعِيَّ بن عامر: ما الذي جـاء بكم إلى هنا؟ قال: « **الله ابتعثنا؛ لنُخْرِجَ العبادَ من عبادة العباد إلى عبادة ربِّ العباد، ومن جَوْرِ الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سَعَةِ الدنيا والآخرة** ».

- فالغايـةُ العظمى للدعـوة هي: تعبيد النـاس لربهم، وأن يُصْبَـغَ المجتمعُ بالصِّبْغَةِ الشرعية، وتعلوه الأحكام الشرعية فيكون بشرع الله ﷻ الأخذ والعطاء، والبيع والشـراء، والخصومة والقضاء، فيَنْعَمُ الخلق في ظـلال العبودية بمعناها الشامل الكامل الذي يشمل جميع مناحي الحياة.

- لكن ذلك لا يتأتى مرةً واحدةً أو طَفْرَة دون مقدِّمات، إنما هي خُطُوات لا بد أن يمر بها، وهي:

١- إيجاد الفرد المسلم.

٢- إيجاد الأسرة المسلمة.

٣- إيجاد الطائفة المؤمنة والمجتمع المسلم.

أولًا: إيجاد الفرد المسلم:

لا بد أن يكون الاهتمام الأكبر للدعاة في اتجاه إيجاد الفرد المسـلم، الذي يأخذ الإسـلام بقوة، ويدخل فيه بكُلِّيَّتِـه، ويُحَقِّقُهُ في جميع جوانب حياته علمًا وعملًا، عبادة وخلقًا، ومنهجًا وسـلوكًا. فإذا كان الداعية حريصًا على استمرار دعوتـه، وتوارُث الأجيال لها، بل واشـتداد عودها في حياته؛ فلا بد أن يحرص على إيجاد هذه الشخصية التي هي نواة الأسرة المسلمة، التي هي نواة الطائفة المؤمنة، التي هي نواة المجتمع المسلم، فهي بمثَابَة لَبِنَاتِ البناء التي إذا عُدِمَتْ

انعدم البناء.

وقد تقدم في الباب الأول من هذا البحث كيف يُوجِدُ الإنسان من نفسه هذه الشخصية. وسيأتي في تربية الأولاد: كيف يُوجِدُها من ولده. ثم بعد ذلك: كيف يوجدها من الآخرين عند الكلام على صناعة الرجال.

ثانيًا: إيجاد الأسرة المسلمة:

الأمر الثاني الذي ينبغي أن يحرِصَ عليه العاملون في الدعوة إلى الله ﷻ هو: إيجاد الأسرة المسلمة، التي تجعل من القرآن والسنة دُستورًا لها، فبه تُعطِي، وبه تَمْنَعُ، ومن أجله تحبُّ، وعليه تُعادي، وله تعمل.

- **وأول ما يلزم الداعية في هذا الباب هو**: أن يُوجِدَ ذلك من أسرته أولًا؛ لتكون مثلًا يُحْتَذَى به، فالأسرة صورة مصغَّرة للمجتمع؛ فإذا أوجد الداعية من نفسه الفرد المسلم الذي يعمل بالدين وللدين في كل مجال وعلى كل حال، وأوجد من أسرته تلك الأسرة التي دستورها الإسلام لا ترضى بغيره منهجًا لحياتها، وأوجد كذلك ما استطاع من الأفراد الذين يفهمون الإسلام هذا الفهم الشامل، واستطاع كلُّ فرد من هؤلاء الأفراد أن يُوجِدَ تلك الأسرة المباركة، إذا حدث هذا بنجاح سَهُلَ إيجادُ الطائفة المؤمنة، والمجتمع المسلم.

ثالثًا: إيجاد الطائفة المؤمنة ثم المجتمع المسلم:

إيجاد الطائفة المؤمنة، الملتزمة بالإسلام، العاملة من أجله، المجتمعة على إقامة فروض الكفاية المُضَيَّعَةِ وبكل ما أوتيت من قوة، الساعية في نفس الوقت لتحصيل أسباب القدرة لما تعجز عنه في الحال- تحديثًا للنفس به، وحبًّا للخير وحرصًا عليه، ونصيحة للمسلمين، واهتمامًا بشأنهم.

- **إن إيجاد هذه الطائفة المؤمنة على منهج أهل السنة والجماعة هو من أهمِّ الواجبات والأَوْلَوِيَّات**:

هـذه الطائفة التي تسـعى إلى أن يكـون أفرادها في خاصة أنفسـهم يُؤَدُّون الواجبـات العينيَّة عليهم في العقيدة، والعبادة، والسـلوك، والمعاملة، والخُلُقِ، ويتركون المحرمات.

كمـا أنهم مُلْتَزِمُـونَ بالتعاون المنضبط على إقامـة الفروض التي خُوطِبَتْ بهـا الأمـة ككل، كالتعليم، والتعلُّـم، والحِسـبة، والدعوة، وحـثِّ الأغنياء على الـزكاة والصدقة، ومعاونتهـم في إخراجها، وعيادة المرضـى ودعوتهم، وإحياء الرَّوابـط الأخويـة بين المسـلمين من اتبـاع الجنائـز، والتعزيـة في المصائب، وإجابة الدعوات، وتهنئة في الأفراح وغير ذلك، وكالسـعي في إيجاد نظام المال الإسلامي؛ لإبعاد الناس عن الربا، وجميع المعاملات المحرمة.

وكذلـك **تربية الأمـة على روح الجماعة**؛ بردِّ الناس إلـى أهل العلم منهم، وجمعهـم عليهم، ونهيهم عن التفرقـة، وكذلك تعليم الناس لزوم التحاكم إلى شرع الله ﷻ بردِّ موارد النِّزاع إلى أهل العلم الذين يجب السعيُ إلى إيجادهم في كل مـكان؛ لفـضِّ الخصومـات وِفْـقَ الكتـاب والسـنة، والقيـام بفـروض الكفايات، وحضِّ الناس عليها، وأمر كل قادر أن يقومَ بما يقدِرُ عليه منها، ولا يتـمُّ ذلك على الوجه الأكمل إلا إذا وُجِدَتْ الطائفة المؤمنة التي يتعاون أفرادها كما أمرهم ربهم: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[المائدة: ٢] ؛ **ولذلك لابد من إيجاد هذه الطائفة التي هي النواة الحقيقية للمجتمع المسلم.**

كيف تحقق الدعوة الربانية أهدافها:

ـ لكي تحقِّقَ الدعوة أهدافها؛ لابد أن تهتَمَّ بأربعة أمور:

١- العلم« تعلمًا وتعليمًا».

٢- التربية، والتزكية.

٣- الدعوة إلى الله ﷻ، وإقامة الحجة، والنصيحة العامة، والأمر بالمعروف،

والنهي عن المنكر.

٤- التعاون على البر والتقوى.

أولًا: العلم «تعلمه وتعليمه»:

- أمر الله ﷻ بالعلم، فقال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، وبَيَّنَ فضل أهل العلم فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

- وحضَّ النبي ﷺ على العلم، فقال: «طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ»[١].

وقال ﷺ: «**إِنَّ المَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ**»[٢].

- وحضَّ النبي ﷺ على تعليم الناس العلم، فقال: «بَلِّغُوا عَنِّي، وَلَوْ آيَةً»[٣]، وقال ﷺ: «**إِنَّ اللَّه، وَمَلَائِكَتَهُ، وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ، وَأَهْلَ الْأَرْضِ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا، وَحَتَّى الْحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرَ**»[٤].

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لكُمَيل -رجل من أصحابه-: «**احفظ ما أقول لك، إن الناس ثلاثةٌ: فعالم ربانيٌّ، ومتعلِّمٌ على سبيل النجاة، وهَمَجٌ رِعَاعٌ**[٥] **أتباع كل ناعق، يميلون مع كلِّ ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق**»[٦].

فإذا أراد المخلصون أن تُحقق دعوتهم أهدافها؛ فلابد من العمل على إيجاد العلماء الربانيِّين، والمتعلمين على سبيل النجاة، الذين يقومون باستنقاذ الناس

---

(١) صحيح: سبق تخريجه.

(٢) حسن لغيره: أخرجه أحمد في المسند (٧٠) (١/ ١٧)، وقال الألباني: حسن لغيره، انظر «صحيح الترغيب والترهيب».

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٣٤٦١) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا.

(٤) حسن: سبق تخريجه.

(٥) الرِّعاع: غوغاء الناس وسقَّاطهم.

(٦) أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه (٨/ ٣٧٩)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» س(١٤/ ١٨).

وانتشالهم من وَحْل الصنف الثالث، حتى لا يوجدَ في المجتمع هذا الصنف الرديء الذي ضرره أكثر من نفعه.

قال في «٣٠ طريقة لخدمة الدين»: «فالعلم كيان استراتيجي، وحيوي للدعوة الإسلامية، وهو بمثابة الروح السارية في بنيان الصحوة، وماء حياتها ودوائها، وبقدر ما تبلغ الصحوة من العلم شأوًا بقدر ما تنال من الإعزاز شأنًا، ومعنى كون العلم كيانًا استراتيجيًا: أنه صار ثابتًا لا يقبل التغيير، أو المُساوَمة، وأنه يجب أن يُوضَعَ في أول سُلَّمِ الأولويَّات.

كما أن اشتراطه وصفًا لازمًا في حَمَلَةِ هذه الدعوة: يجب أن يكون صارمًا لا يقبل التنازل، والتنازع، فالدعوة لا يمكن أن تبدأ خُطُواتها بالجهل، ولا يمكن أن تتسارع في الخطوِ بأقدام الجهلاء، ولن تستطيع أن تُقِيم الدين صرحًا شامخًا، وهي من عُدَّة العلم خاوية على عروشها.

وقد أثبت التاريخ بالتجرِبة بعد أن ثبت ذلك بنصِّ الوحي المعصوم أنه ما من أثر يَخْلُد، أو جَهْد يبقى، أو تركة تدوم إلا العلم النافع الذي يستفيد به صاحبُه ويفيده الناس.

فيجب - والحال كما ذكرنا - أن تتواصى هِمَمُ الدُّعاة على تبنِّي ميثاق غليظ في إحياء هذه القِيمَة في قلوب أفراد المجتمع، ومن باب أولى في نفوس من ينتمون إلى هذه الصحوة المباركة وتحريك ماء الكسل الآسن الذي أنتن بطول الخمول والمكث، وحَفْزِ الطاقات الهادرة التي تنصرف في أودية الدنيا إلى احتضان العلم وتبنِّيه، وإنزاله المنزلَة اللائقة به.

وأول خطوة يجب أن تخطُوها الصحوة المباركة في هذا الدَّرْب: أن يتواصى الأفراد فيما بينهم على ضرورة تدارك العمر في تحصيل العلم، وزيادة الهِمَّة في التنافس إليه، وإشاعة هذه الروح بين كل المنتمين إلى الصحوة المباركة، وأن

يتحرك العلماء والدعاة في النداء إلى ثورة في مجال العلم تنفضُ به غبار الجهل العالق عبر مئات السنين، تبعث روح السلف الصالح في أجسادنا؛ لتنتبه من رَقدتها، وتَسْتَيْقِظَ من نومتها.

وبعد ذلك **يجب أن تُوضَعَ المناهج التفصيلية في تربية الناشئة على العلم**، وحبِّه، وطلبه، والشَّغف به؛ **فإن ذلك** هو الأساس المكين في إيجاد أمة تُعَظِّمُ العلم، وتحبه، وتقوم به، كما يجب أن يعمل المسئولون في الحركات الإسلامية على توفير كل الإمكانيَّات المتاحة؛ لتسهيل عملية طلب العلم لشباب الصحوة، وتشجيعهم، وتبنِّي العبْقَرِيَّاتِ الفذَّة منهم، ولإصلاح المناهج التربوية بما لا يتعارض مع هذه المقاصد المذكورة.

إن مساجد الدعوة وبيوتات الدعاة يجب أن تكون صروحًا للعلم، ومنارات لطلبته، ويجب أن يتعاون الدعاة في إيجاد المرجِعِيَّاتِ العلمية لكل العلوم، بحيث يَسْهُل على طلبة العلم أن يختاروا العلوم التي تميل نفوسهم إليها، إننا لا نطمع أن يكون المجتمع كله علماء، ولكننا نتمنى أن يكون المجتمع بأكمله من طلَّاب العلم الذين يدعون العقل؛ لِيَحْيا من رقدته، فلا يستسلم للظلم والجَوْرِ أو يرضى بالهزيمة، والهوان، وطالب العلم الذي بإمكانه أن ينفع دعوته ودينه، الذي يسلك جادَّة العلم بِجِدٍّ، وينأى بنفسه عن أماني الحالمين وخَطْوِ الكُسَالى الخاملين » اهـ مختصرًا.

يقول الدكتور محمد يسري:«**والعلم المقصود في مَجالِ الدعوة إلى الله على ضربين:**

-الأول: ما لا يسع الداعية جهله: وهو بعد أن يتعلم كل داعية ما يصح به تديُّنه، وما لا يسعه أن يجهله في العقائد، والعبادات، والمعاملات، والإلمام العام بِهَدْيِ النبي ﷺ في الدعوة، ومنهجه في الإصلاح، وسنن الله تعالى في

التغيير، والاستخلاف من جهة، ومن جهة أخرى الإلمام بقضايا الدعوة أهدافًا، وموضوعًا، وأسلوبًا، سواء في ذلك ما هو فرض عين على كل مكلَّفٍ مخاطب بالدعوة، أو ما كان يختص به بعض الدعاة دون بعض.

- **الثاني: فرض كفاية**: ويتعلق بالدعاة المتخصصين في مختلف علوم الشريعة الذين يُطَوِّلُون الباع في التخصصات المتنوعة، بحيث يتحقق في مجموعهم، أو في بعض أفرادهم وصف الاجتهاد الذي يُهَيِّئُ للنظر في نوازل الوقت...» اهـ مختصرًا.

ثانيًا: التربية والتزكية:

الدعوة الربانية لن تتحقق أهدافها إلا بسلوك طريق التربية والتزكية، تربية أفرادها، وتزكيتهم بالعلم النافع، والعمل الصالح؛ لكي يقوموا بدورهم في تربية الخَلْقِ، وتزكيتهم بما تَرَبَّوا عليه، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢].

يقول الدكتور أحمد فريد: «فإن من أهم ما تُبْذَل فيه الحَيَواتِ، وتُقْضَى فيه الأوقات، وتَهْتَمُّ به الدعوات الجانب التربوي في الدعوة، فبه يتجدَّدُ نشاطها، وتتفتح به زهراتها، وتطيب ثمراتها، فبالتربية تصِحُّ العقائد، وتُعَمَّقُ المفاهيم الصحيحة، وتُغْرَسُ الأخلاق النبيلة، ويَنْشَأُ الصغار على ما دَرَجَ عليه الكبار.

قال بعض السلف: لا يزال الناس بخير ما بَقِيَ الأول حتى يتعلم الآخِر.

وهل قامت دولة الإسلام وارتفع دين الملك العلام إلا بتربية الصحابة الكرام على يد المربِّي الأول الذي تشرَّفت البشرية برؤيته واستضاءت المعمورة ببركة دعوته؛ فقد كان أكبرُ هَمِّ النبي ﷺ تربية الصحابة الكرام بمكة بدار الأرقم بن أبي الأرقم بالقيام، والصيام، وتلاوة القرآن، روى مسلم عن

عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «فَرَضَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ على نبيِّه ﷺ قيامَ الليل، فقام النبيُّ ﷺ وقام الصحابة معه حَوْلًا كاملًا، واحتجزَ الله عَزَّ وَجَلَّ خاتِمَةَ السورة اثني عشر شهرًا، ثم نزل بعد ذلك التخفيف»[1].

وقصدَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فرْضَ قيام الليل بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ١-٤]، وقصدت بالتخفيف الآيةَ الأخيرة من السورة، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [المزمل: ٢٠]» اهـ.

التربية سبيل التمكين:

يقول الدكتور محمد يسري: «لم تَرَ الأمَّة الإسلامية بحالة من الضعف كهذه الحالة اليوم حين استبدلت شريعتها، واستوردت منهاجها، وسقطت في التَّبعية لأعدائها، والقيام بواجب التربية والتزكية للنفوس عامة هو في الحقيقة تَهْيِئَةٌ للأمة للمطالبة بتحقيق وتطبيق شرع الله في الأرض، وما أحسن مقولة من قال: «أقيموا دولة الإسلام في نفوسكم تُقَمْ على أرضكم»، هذا من كلام الأستاذ حسن الهضيبي رَحِمَهُ اللَّهُ ونقلها عنه علامة الشام الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في سياق حديثه عن التصفية والتربية.

وإن العناية بالتربية لطائفة مخصوصة من الأمة يُهَيِّئُ لها فئات فذَّة قادرة على البذل والعطاء، وتحقيق الآمال والمرابطة على الثغور العلمية والعملية حماية للدين من كيد الكائدين، وعبث العابثين، وصفوة القول: إنَّ الواجب التربوي هو طريق الخَلاص وأُسُّ[2] التمكين» اهـ مختصرًا.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٧٤٦).

(٢) أُسُّ: أساس.

الخلل التربوي هو الداء:

«كثيرًا ما يَرِد الفشل في تحقيق الأهداف الدعوية إلى أسباب داخلية، وعمدة هذه الأسباب عند التحقيق هو الخلل التربوي، فتارةً يكون الخلل بسبب ضعف التربية، وتارة عدم تدرُّج التربية، وقفز الأغرار فوق أكتاف الثقات، وتارة بسبب عدم تكامل التربية فتتضخَّم قضايا وأمور على حساب أمور أخرى لا تقل أهمية، وتارة أخرى بسبب عدم التوازن بين التربية وأصول ومُنْطَلقات أخرى في الدعوة إلى الله وهكذا، ومن أجل ذلك كله نقول لن تتمكن دعوة من تحقيق أهدافها إلا إذا أَوْلَتْ التربية الاهتمامَ الأكبرَ.

فالتربية الجادَّة المتكاملة المنضبطة هي الدِّعامة الكبرى لتحقيق الأهداف سواء أكانت أهدافًا علمية أم عملية » اهـ.

ثالثًا: الإعذار إلى الله، وإقامة الحجة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر:

فالدعوة الربانية تأخذ على عاتقها بيان الحق للخلْقِ، وإرشادهم إليه بكل مُسْتَطَاع ومشروع رحمة بالخلق، وإعذارًا إلى الله ﷻ.

ـ **فمن أصول الدعوة الربانية:** أنَّ أهلها يدعون إلى الله ﷻ على بصيرة منه سبحانه، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فهم يتعبدون بدعوة الخلق إلى الله ﷻ، وبيان الشرع لهم، يَصْدَعون بالحق لا يضرُّهم من خذلهم أو خالفهم، فهم يدعون إلى الله ﷻ، ويصدعون بكل قضايا الدين لا يداهِنُون بقضية، وإن خالفهم الناس، وإنْ قلَّ أتباعهم؛ لأنَّهم يعلمون أن عليهم البيان والله ﷻ يهدي من يشاء، قال تعالى: ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا

ٱلْبَلَٰغُ ﴾ [الشورى: ٤٨].

«فيجب أن يترسَّخ في أذهان أفراد الصحوة المباركة خاصَّة، وكل المسلمين عامة أن خدمة الدين ركن من أركانه، وضرورة من ضروريَّاته، وأساس من أسُسِه، ولقد كان هذا المعنى مستقرًا عند السلف الصالح استقرار المُعْتَقَدِ في القلب، ولم يحتاجوا أن يستدلوا له أو أن يقرِّرُوه بشتى وجوه الاستدلال، بل كان يكفي أن يُسْلِمَ الواحد منهم، أو يستقر الإسلام في قلبه؛ ليعتبر نفسه بعد ذلك منذورة لهذا الدين، ويجندها في خدمته، ويصرف مجهوداتها في نصرته والذود عن حَوْزَته.

إن هذا الدين إذا تأمَّله المتأمِّل علم أنه صِيغَ؛ ليكون المُتَمَسِّك به داعية إليه دلَّالًا عليه، ومع مزيد تأمل يرى المرء أن من أراد أن يكون مسلمًا دون تَبِعَات ومسئوليات تجاه إسلامه فإنه رام ضِربًا من التديُّن شبيهًا بتديُّنِ الرهبان في الكهوف والصوامع والبيع، وقد تقرَّرَ أنه لا رهبانيَّة في الإسلام.

إن من أوائل الأوامر الربانية التي نزلت في القرآن الأمر بالنذارة، وتبليغ الوحي للخليقة، يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ [المدثر: ١-٢]، ثم توالى بعد ذلك ما يمكن أن نُسَمِّيه فقه الدعوة، حيث تَضَمَّن التنزيل أوامر عُنِيَتْ بالشأن الدعوي، مثل قوله تعالى: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤]، وقال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]، وهي آيات ترسم صورة المسلم الداعية الذي يتبع منهج نبيه ﷺ، بل إنَّ النبي ﷺ كان من أوائل اهتماماته صِيَاغة الشخصية الدعوية التي تحمل همَّ الدين وتبذل له، وكان أول من دعاه النبي ﷺ للإسلام هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه فلم يكن ذلك الصديق عالةً على الدعوة، وعِبْئًا عليها، بل تحرك من أول يوم ينشر هذا الدين حتى دخل بجهوده

الدعوية في أول الأمر ستة من سادات قريش الشبان، إضافة إلى سِعايته في فِكاك العبيد الذين أسلموا من أسر الرِّقِّ، وإنَّ تحرك صحابة النبي ﷺ بعد وفاته في أقطار الأرض لدليل على أن الشخصية التي صاغها النبي ﷺ ورباهم عليها هي الشخصية المتحركة للدين التي لا تعرف السكون ولا الكُمُون»[1].

رابعًا: التعاون على البر والتقوى:

إن واجبات الدين وأَعْباء الدعوة وهموم الأمة المُلْقاة على عاتق الصحوة لتنوء[2] بحملها العُصْبة أولي القوة، ولا أقول العصبة من الأفراد، ولكن أقول العصبة من الأمم؛ **لذلك ينبغي على العاملين في الصحوة أفرادًا أو جماعات أن تجتمع جهودهم، وأن يقوموا بكلِّ صُوَرِ التعاون المُتاحة للقيام بفروض الكفايات المستطاعة**، والعمل على تحصيل أسباب القدرة اللازمة للصور غير المستطاعة حتى يتمكَّنوا من القيام بها عند القدرة عليها والنهوض بهذه الأمة من كَبْوَتها، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]، فبالتعاون تتضافر الجهود، وتتكامل، وبدونه تظل الجهود مُشَتَّتة متفرِّقة ضعيفة الأثر، وهذا الأمر لا يخفى على عاقل.

وكذلك: لا يخفى أن الواجبات المُلْقاة على عاتق الدُّعاة كبيرة، وهموم الأمة كثيرة، وأعباء الدعوة ضخمة لا يستطيعون وهم فرادى القيام بها؛ لذلك لابد من التعاون قدر المستطاع للنهوض بهذه الواجبات، لكن بالضوابط الشرعية فلا إفراط ولا تفريط.

وكذلك: ليس هناك عمل دعوي يُراد له أن يتم على الوجه المطلوب إلا ويحتاج إلى تعاون أكثر من فرد؛ لإنجازه في الوقت المناسب، وإظهاره بالصورة اللائقة.

---

(١) بتصرف من «٣٠ طريقة لخدمة الدين».

(٢) يقال: ناء به الحمل: أثقله ونهض به بتكلف ومشقة.

ولذلك نقول: إن أيَّ تعاون مثمر مُسْتطاعٍ يدخل في حَيِّز القدرة الشرعية، ويؤدِّي إلى تنشيط واقع الدعوة الإسلامية، ويُسْهِم في إعزاز الدين ونصرته والتمكين للشرع المُطهر، ويؤدي إلى النِّكاية في الأعداء بالضوابط الشرعية المعتبرة عند العلماء المعتبرين وبما لا يترتب على هذا التعاون مفسدة راجحة تمنع من الإقدام عليه، كل تعاون تحققت فيه هذه الشروط فلا ينبغي أبدًا أن نحجم عنه أو أن نقصِّر فيه.

الدعوة إلى الله تعالى في الواقع العملي:

علمنا فيما سبق حقيقة الدعوة إلى الله عز وجل وسماتها، وأصولها، وأهدافها، والخطوط العريضة لكيفية تحقيق الدعوة لأهدافها، وهنا سنتناول بإذن الله عز وجل كيفية التطبيق العملي لذلك على أرض الواقع.

مراتب الناس في استحقاقهم للدلالة على الحق والدعوة إليه:

اعلم - رحمك الله - أن الناس في استحقاقهم للدلالة على الخير وتعليمهم إياه مراتب:

- فأولُ من يتعيَّن عليك بذل ما استطعت من جَهْد لإقامته على الحق: نفسُك، ثم زوجك وولدك، ثم أهلك وعشيرتك، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، وقال ﷺ: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»(١).

وقال ﷺ: «**كَفَى بِالمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ**»(٢)، وتضييع دينهم أشدُّ

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٨٩٣)، ومسلم (١٨٢٩) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وأخرجه البخاري في مواضع أخرى.

(٢) صحيح: أخرجه أبي داود (١٦٩٢)، وأحمد في المسند (٢/ ١٦٠)، وابن حبان في صحيحه

خطرًا من تضييع قوتهم، وقال الله ﷻ ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٤-٥٥].

- ويلي هؤلاء في استحقاقهم للدلالة على الخير: **الجيران**؛ جيران المسكن والعمل، والأصدقاء، ومن لك معهم نوع معاملة، ففي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا: «**وَمَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ**»(١).

- ثم **عامة الخلق**، فعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: «بايعتُ رسولَ الله ﷺ على إقامةِ الصلاةِ، وإيتاءِ الزكاةِ، والنُّصحِ لكل مُسْلِمٍ»(٢).

أخي الكريم: كثير من إخواننا لا يَفْطِن إلى هذا الأمر؛ فينشغل عن دلالة أهله وعشيرته بغيرهم، بل عن نفسه بغيرها، وهذا خلل لابد مَن تداركه؛ لتكون دعوة الداعي إلى الله ﷻ مُثْمِرةً وفي مَسَارِها الصحيح، وهذا الترتيب إنما هو عند التعارض يُقَدَّمُ الأهمُّ فالمهم، أما إذا لم يكن هناك تعارض فالواجب عليه أن يدُلَّ الجميع على الخير، ويحضَّهم عليه، ويبيِّنَ لهم سبيله، ويعينَهم على امتثاله ما استطاع إلى ذلك سبيلًا.

دعوة الزوجة وتربيتها:

عبدَ الله! الزوجة نصفك الثاني، وشريك حياتك، وحاضِنَةُ أولادك، وخير متاع الدنيا إن صلحت «**الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِهَا المَرْأَةُ الصَّالِحَةُ**»(٣)، فليكن همُّك الأكبر أن يكون لك زوجة صالحة، فإذا أردت أن تخطِب فاظفر بذات الدين، وليكن مَبْنى علاقتك بها من أول لحظة على شرع الله ﷻ لا تحيد عنه

(٤٢٤٠)، وصححه الألباني في [«الإرواء» (٤/ ١٦٧)].

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٠١٤)، مسلم (٢٦٢٥) عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا، وأخرجه أيضًا من حديث عائشة رضي الله عنها في مواضع أخرى.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٥٧)، ومسلم (٥٦).

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (١٤٦٧) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعًا.

قيدَ أنملة.

واعلم أن زوجتك أسيرة عندك فاستوص بها خيرًا كما وصَّاك النبي ﷺ فقال: «أَلَا وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّمَا هُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُمْ»(١)، عوان يعني: أسيرات.

أخي الكريم: إذا كان عقد الزواج قد أَسَرَ لك جسد امرأتك، فلا تصوم تطوعًا إلا بإذنك، ولا تخالفك في مالك ولا ولدك، ولا تَمْتَنِعُ منك إذا دَعَوْتَها إلى فراشك، إذا كان العقد قد أسر لك جسدها لكنه لم يأسر لك قلبها الذي لابد منه؛ ليسهل عليك قِيَادُها إلى طاعة ربها، وإلى سبيل نجاتك ونجاتها، وسعادتك وسعادتها، وأنت تعلم أن دِلالتها على الخير من أحق حقوقها، كما في الحديث: «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُم مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»(٢).

فكيف تأسر قلبها؟ أو ما هي العوامل المؤثرة في دعوة الزوجة، ودلالتها على الخير ؟

هناك ثلاثة عوامل مؤثرة في دعوة المرأة، ودلالتها على الخير:

- العامل الأول: التزامك الشخصي.

- العامل الثاني: ما تقدِّمه إليها من إحسانٍ حثَّك عليه الشرع وأمرك به.

- العامل الثالث: طريقة دعوتها إلى الله، ودلالتها على الخير.

أولًا: صدق التزام الزوج وأثره في دعوة زوجته:

أخي الكريم: إن كثيرًا منا دعوته لزوجته - إن فعل - مقتصرة على الأمر والنهي: افعلي ولا تفعلي، قولي.. لا تقولي، ثم إذا راقبته وجدته يخالف ذلك، لا يلتزم هو به، والإنسان منا قد يتكلَّف الالتزام بالشرع أمام إخوانه؛

(١) حسن: أخرجه الترمذي (١١٦٣) عن عمرو بن الأحوص رضي الله عنه، وحسنه الألباني في [«صحيح الجامع» (٧٨٨٠)].

(٢) صحيح: سبق تخريجه.

لأنهم لا يعاشرونه ولا يخالطونه فترات طويلة، أما الزوجة فإنها مطَّلِعة عليه في غالب أحواله خاصة أوقات فتوره واسترخائه، ومعلوم أن الالتزام إذا كان متكلَّفًا مصطنعًا ولم يكن صادقًا حقيقيًا فسريعًا ما ينكشف أمره، وتُفْتَضَحُ سريرته لكل من يخالطه أدنى مخالطة؛ فكيف بزوجته التي تطلع عليه في ليله ونهاره، وفي جميع أحواله، وقُلْ مثل ذلك في أولاده، وسيأتي الكلام عليهم بإذن الله ﷻ.

المقصود: أنه لن يفلح في قيادة زوجته إلى مرضاة ربها حتى يُفْلِح هو في قيادة نفسه أولًا، فأهم وأنجح وسيلة من وسائل دعوة الزوجة هي وسيلة الملاحظة، فإن الأخلاق والطبائع تنتقل بالمسارقة، والملاحظة أكثر بكثير مما تنتقل بالأمر والنهي؛ ولذلك ورد في الحديث: «**الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ**» [(١)]، شاء أم أبى سينتقل إليه قدر كبير من دين صاحبه وخلقه.

فإذا نَظَرَتْ الزوجة إلى أحوال زوجها فوجدته مُعَظِّمًا لحرمات الله ﷻ مُتَّبِعًا هَدْيَ رسول الله ﷺ في كل أحواله، في حِلِّه وتَرْحَاله، في مرضه وصحته، في قوله وفعله، في سروره وحزنه، في شدته ورخائه، في بيعه وشرائه، في خصومته وقضائه، ووجدته سعيدًا بذلك مُسَلِّمًا له مُنْقَادًا بلا ضجر ولا تأخر، ووجدته يتألم أشدَّ الألم إذا فاته وِرْدُه من الطاعات، أو زلت قدمه في هفوة أو مخالفة، وعلمت من متابعة أحواله أن سعادته وفرحته إنما تكون بطاعة الله وامتثال أمره.

ثمَّ وَجَدَتْ أثر ذلك في حياته، من السعادة والخير، والبركة والراحة، والسكينة والرحمة التي جعلها الله ﷻ لأوليائه من المتقين يصدق عليه قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

---

(١) حسن: أخرجه أبو داود (٤٨٣٣)، وأخرجه الترمذي (٢٣٧٨) من طريق أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا، وحسنه الألباني، انظر[«المشكاة» (٥٠١٩)].

أخي الكريم: لو أن امرأة عاقلة وجدت من زوجها ذلك ما الذي ينتظر منها ؟ بلا شك أنها سَتُسَارع إلى التأسِّي به فيما يفعل؛ لتشعر بالسعادة، والاطمئنان، وراحة البال كما يشعر هو، فضلًا عن أنه - وهذا حاله - سيكون موفقًا في دعوتها مباركًا إذا سأل الله أعطاه ومما يسأل ربه أن يهدي له زوجه وولده ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٤].

ثانيًا: الإحسان إلى الزوجة وأثره في دعوتها:

أخي الكريم: إن الإحسان إلى الزوجة يشمل الواجب وغير الواجب، فإن الزوجة لها حقوق على الزوج واجبة من النفقة عليها، وإعفافها، والعدل، والإقساط معها، وغير ذلك من الحقوق.

وهناك من صور الإحسان غير الواجب التي حضَّ عليها الشرع الحنيف، وحثَّ الأزواج على تحقيقها، فهذه الصور من الإحسان الواجب منه والمستحب يتوجه بها الزوج إلى زوجته؛ لتعرف أثر هذا الدين الحنيف عليها وحرصه على إسعادها وراحة بالها؛ لتعلم أن هذا الدين جاء بهذه التشريعات التي هي سبب السعادة التي تحياها، دين عظيم وكل ما فيه من أحكام وتشريعات عظيمة ينبغي الالتزام بها، لتتِمَّ سعادة الدارين، قال النبي ﷺ: «**أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ**»(١).

وهذا رسول الله ﷺ سيد الأولين والآخرين ضرب أروع المثل في ذلك؛ فها هو ﷺ يقف على باب عائشة رضي الله عنها؛ لتنظر من خلفه إلى الحبشة، وهم يلعبون في المسجد فما ملَّ حتى ملَّت(٢)، وها هو ﷺ يُسَابِقُ عائشة رضي الله عنها؛ فتَسْبِقُه، ثم يسابقها فيسبقها(٣)، وها هو ﷺ يجلس إلى عائشة رضي الله عنها يستمع إليها، فتحدِّث

---

(١) صحيح: سبق تخريجه.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٤٥٤)، وأخرجه مسلم (٨٩٢).

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٥٧٨)، وصححه الألباني، انظر [«صحيح أبو داود» (٢٢٤٨)].

بهذا الحديث الطويل - حديث أم زرع - لا يقطع عليها حديثها، وبعد انتهائها يقول لها: «كُنْتُ لَكِ كَأَبِي زَرْعٍ لِأُمِّ زَرْعٍ»[١]، بل كان ﷺ - كما تقول عائشة رضي الله عنها - كان يكون في مهنة أهله فإذا سمع الأذان خرج إلى الصلاة[٢]، بل كان من رفقه ﷺ أنه ما ضرب نساءه قط، وما قال لشيء فعلنه: لم فعلتنه؟ ولا لشيء تركنه: لم تركتنه؟ طالما أنه ليس فيه مخالفة للشرع.

فالزوج **المُوَفَّقُ** هو: الذي يتأسى بحبيبه ﷺ في حسن العشرة الزوجية، فإذا ناداها ناداها بأحب الأسماء إليها، وبأحب الألفاظ إليها، ولا يمر يوم إلا ويحسن إليها بنوع إحسان، فمرة هدية، ومرة كلمة طيبة، ومرة يصطحبها في زيارة أحد الأقارب يصل رحمها ويحضُّها عليه، إذا فرحت فرح لفرحها، وإذا تألَّمت تألم لألمها، لا يأمرها بما يَشُقُّ عليها من الأعمال، يرضى منها بالقليل، ويُثِيبُ، ويتجاوز عن الخطإ طالما أنها لم ترتكب إثمًا.

أخي الكريم: إذا رأت الزوجة من زوجها ذلك، فماذا يُنْتَظَر منها ؟ بلا شك سوف يَعْظُمُ عندها هذا الدين الذي من تشريعاته هذه الأخلاق التي تملأ حياتها بهجة وسعادة وسرورًا، وسوف تجتهد في تطبيقِ جميع أحكامه؛ لتكتمل لها سعادة الدارين.

ثالثًا: طريقة دعوة الزوجة للالتزام بالحق والتدرج في سُلَّم العبودية:

إذا قدمت بين يديْ هذه المهمة ما سبق من مقدمات سهل عليك قيادة امرأتك إلى مرضاة ربها وإلى نجاتك ونجاتها وسعادتك وسعادتها في الدارين، لكن ماذا تريد منها.

العاقل يريد من امرأته أن تكون خير متاع الدنيا« المرأة الصالحة »، يريد أن يصنع منها أمة لله عز وجل، عابدة تحسن التعبد لربها، ذات عقيدة سليمة يعرف قلبها

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥١٨٩)، وأخرجه مسلم (٢٤٤٨).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٦٧٦)، (٥٣٦٣)، (٦٠٣٩).

طريق محبة الله ﷻ والخوف منه، والرجاء، وحسن الظن به، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والصبر على قضائه، والشكر على نِعَمِه، والانقياد لأوامره، العاقل يريد زوجة ذات عبادة صحيحة، لها أورادها من الطاعات التي تحبها، وتحافظ عليها، تعرف ما يَلْزَمُها من أحكام المعاملات التي تتعامل بها، وتلتزم بشرع الله في جميع معاملاتها وأحوالها تَتَعَبَّدُ بذلك، تبتغي مرضاة الله ﷻ، تتجنَّب الحرام، تخشى عقاب الله ﷻ، ذات خلق وسلوك حسن، تتأدب بالآداب الشرعية التي حثَّها عليها الشرع، لها نصيب من كتاب الله تحفظه، تحيي به ليلها وتقيم به صلاتها وتعلِّمُه صغار أولادها، فهذا الذي تحرص على إيجاده في زوجتك وهذا الذي تقيها به النار: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾[التحريم: ٦].

أخي الكريم: إذا حدَّدْتَ الهدف فلابد أن يكون حاضرًا في ذهنك تفاصيله، ما هي العقيدة الصحيحة بصورة مختصرة سهلة ميسرة: نبذة مختصرة عن الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

نبذة مختصرة عن أعمال القلوب وما هي عوامل زيادتها، وعلامات الزيادة والنقصان؛ لتتحسَّسَ دائمًا قلبها، وكذلك معرفة نبذة مختصرة عن آفات القلوب.

وكذلك: معرفة شروط الصلاة، وأركانها، وواجباتها، وسننها، وسائر العبادات بأسهل أسلوب وأقل عبارة، مع دليل مختصر لكل حكم إذا أمكن.

وكذلك: معرفة أحكام المعاملات التي تحتاج إليها بأسلوب مُيَسَّرٍ، وكذلك نبذة مختصرة موجزة عن فضائل وأحكام كل خُلُقٍ حَسَنٍ من أخلاق الإسلام وعن إثم وأثر كل خلق ذمه الإسلام.

وكذلـك: نبذة مختصرة عن سـيرة الرسـولﷺ، وما يجـب علينا تجاهه، وكذلك نبذة مختصرة عن الآداب التي ينبغي أن يتأدب بها المسْلم.

فـإذا جمعت هـذه المادة فاعلـم أن المطلوب أن تتعلـم الزوجة تفاصيلها وتعمـل بها في حياتهـا اليومية، لكن كيف يكون ذلك ؟ هنـاك عدة طرق لتعليم الزوجة ما يلزمها وحثها على التزام ما تعلمت.

طرق تعليم الزوجة ما يلزمها من أمور دينها:

الطريقة الأولى:

طريقة التعليم بالمواقف وجلسات الدردشة، وهي طريقة تربوية مهمة جدًّا، وتكـون باغتنام المواقف المناسـبة، فيعلِّمُها الحكم الشـرعي بهـذا الموقف، وما يتعلق به من أحكام، فمثلًا: إذا صلى معها فَسَـهَا في صلاته، وسـجد للسهو فَيَذكُر لها بعد الصلاة سـجود السـهو، وأحكامه، وموضعه، وأن نسيان الركن لا يجبره سـجود السهو بخلاف الواجب، فيعلِّمُها أركان الصلاة، وواجباتها، وصفتهـا، ولا يلـزم أن يذكر لها كل ذلك في وقت واحد، وإنما يَعِدُها بالإكمال في وقـت آخـر، وهكذا وإذا جـاء أول رمضان جلـس إليها وناقشـها في أحكام الصيام وآدابه، وكذلك إذا جاء الاعتكاف، وكذلك إذا كانت ليلة العيد ذكر لها أحكام العيد بسـهولة ويسـر في نقاط محدودة واضحة، وهذا حسب المواقف التي تَحْدُث، ويمكنه أن يفتعل هو المواقف التي تناسـب الحُكْم الذي يريد أن يعلِّمَهـا إيـاه، المهم أن يرتب في ذهنه ما يلزم أن يعلِّمَها إياه من علوم، وكل يوم يعلِّمُهـا جديدًا حتى يُتِمَّ هذا البرنامج، ويلاحظ أثر كل معلومة على سـلوكها، ويساعدها على امتثالها، ويشجعها، ويُثِيبُها بهدية أو غير ذلك، ويُظْهِرُ لها سعادته وسروره إذا هي امتثلت.

ـ وهناك تنبيهات لا بدَّ من مراعاتها عند استعمال هذه الطريقة:

١- **أن تكون بصورة تلقائية**، حسب المواقف والأحوال فيما يبدو لها، وإن كانت الحقيقة أنك قد رتبت ذلك في ذهنك يومًا بعد يوم؛ لتتم لها هذه المعاني كلها.

٢- **أن تبدأ بالأهم فالمهم**، خاصة إذا كان هناك خلل فتبدأ به.

٣- **ألَّا تطيل عليها في المجلس الواحد**، بل تلقي على سمعها المختصر المفيد، وإن كان الموضوع طويلًا فأكمله في مجلس آخر، وحبذا لو دَعَّمْتَ كلامك بقصة شيقة أو طُرْفَة أو غير ذلك.

٤- **ألَّا تكثر عليها من هذه المجالس حتى لا تَمَلَّ**، ولا يطغى هذا النوع من السَّمَرِ على غيره فَتَمَلَّه، بل تتخوَّلُها[1] بذلك كما كان النبي ﷺ يَتَخَوَّل أصحابه بالمواعظ.

الطريقة الثانية:

أن تقرأ معها كتابًا مختصرًا في كل علم من هذه العلوم، وهو المنهج المُبَيَّن في المرحلة الأولى من طلب العلم.

الطريقة الثالثة:

أن تقرأ أنت هذه الكتب، وتعلق على كل فقرة بتعليق مناسب، أو سؤال، وإن كان هناك قول آخر ترجِّحُه أو دليل تُضِيفُه، ثم تَحُثُّها على قراءة الكتاب وإجابة الأسئلة، وتشجِّعُها بهدية إذا هي فعلت.

الطريقة الرابعة:

إذا كان هناك كتاب من هذه الكتب مشروحًا في وسيلة مسموعة كالكمبيوتر أو الكاسيت، فَتَحُثُّها على سماع الشرح، وكتابة التعليقات على هوامش الكتاب، ثم تناقشها بعد ذلك فيه.

---

(١) يعني أن تكون الموعظة بين حين وآخر، فتتخير لها الوقت المناسب بلا إملال ولا تقصير.

الطريقة الخامسة:

أن تسمع أنت هذه الشروح وتكتب التعليقات، وتكتب سؤال على كل فقرة، وتحضُّها على الإجابة على هذه الأسئلة وتناقشها بعد ذلك.

طرق حث الزوجة على العمل بما تعلم:

أخي الكريم.. إن ما سبق هو الجانب العلمي النظري، **أما الجانب العملي فتنظر إليه بنظرين:**

النظر الأول: النظر إلى الفرائض والتزامها بها:

الفرائض هي فعل الواجبات، وترك المحرمات، فيكون همُّك أن تفعل زوجتك كل ما يجب عليها، وأن تترك كل ما يحرم عليها، لكن المُوَفَّقَ من حصل منها على هذا، وهي راغبة محبة ليس قسرًا ولا جبرًا ولا بالتعنيف، فينبغي أن تبذل في سبيل هذا ما استطعت، وهذا يحتاج منك إلى مجهود كبير، وإلى تفنُّنٍ في الحيل والأساليب حتى لا تضطرَّ إلى القسوة عليها من أجل ذلك، فإنك تريدها عابدة راغبة محبة تخاف الله، وترجوه، وتراقب الله ﷿ في السر والعلن، لا تريدها مكرهة على الطاعة، ولا مرائية، ترضيك فقط أو تفعل ما يجنبها عقابك فقط.

- **ولنضرب مثالًا للواجبات بالصلاة:** إذا وجدت منها تقصيرًا في حقها وتأخيرًا لها عن وقتها، فإذا أردت أن تعينها على أدائها في أول وقتها مع المحافظة على نوافلها يمكنك وأنت خارج إلى الصلاة في المسجد أن تخبرها أنك لن تتأخر بعد الصلاة لتحضر فتصلي معها جماعة لتنال هي أجر الجماعة، فتقول لها: توضئي وصلي السنة القبلية حتى أحضر، وبالفعل تحضر ولا تتأخر فتصلي معها الصلاة، وتقول لها: أريد أن أتحدث معك في أمر بعد أذكار ختام الصلاة وبعد السنة؛ لتحُضَّها على فعل ذلك بأسلوب غير مباشر فإذا فعلت

حدثتهـا فيما تريـد، وهكذا كل صلاة، فـإذا كنت في بعض الصلوات مشـغولًا خارج المنزل فاتصل بها بعد الصلاة مباشـرة، وحدثها في أي أمر ثم سـلها عن الصلاة هل أدتها في أول وقتها أم لا؟ ثم أخبرها أنك سـتتصل بعد قليل بعد أن تكون قد صلت؛ لتحدِّثَها في أمر وهكذا.

وبعد فترة ستصبح المحافظة على الصلاة في أول وقتها بنوافلها، وأذكارها شيئًا هامًا عندها يصعُب عليها أن تتركه، أو تُقَصِّرَ فيه، وهكذا كل واجب تحاول أن تجعلها تلتزمه بدون أوامر كثيرة منك أو تعنيف أو غير ذلك.

ـ مثـال لما تنهاها عنه من المحرمات؛ الغيبة: ذلك الداء الخطير الذي أكثر ما يُبْتَلَى به النساء، وسببه قرينات السوء، وحبُّ الاستطلاع عند النساء، ووجود الفراغ الذي يشـغَلْنَه بالقِيـل والقال، فيمكنك إذا وجدت زوجتـك قد ابْتُلِيَتْ بهذا الداء أن تُجَالِسَـها أطول وقت ممكن، وتشغل وقتها بشيءٍ نافع تحبه هي؛ لتشـغلها عن قرينات السـوء، وتقلِّل وقت فراغها، وإنْ تطلَّب هذا منك بعض الوقت والجهد، فأين يبذل الوقت والجهد إن لم يبذل لمن هي شريكة حياتك، وحاضنة أولادك، ونعيم حياتك أو شؤمها؟ ثم إن الوقت المطلوب لن يطول، وإنما هي فترة حتى تنسـى هذه الشـهوة ـ شـهوة الغيبة ـ ثم تقرأ معها شـيئًا عن الغيبة وآثارها، وحبذا لو سمعت معها شريطًا يعالج هذا المرض وستجد خيرًا بإذن الله ﷻ، وهكذا مع سائر المخالفات.

النظر الثاني: النظر إلى النوافل وحثها عليها وتحبيبها إليها:

اعلـم ـ أخـي الكريـم ـ أن النوافل لها فضـل عظيم وقد سـبق الكلام على فضائلها، لكنه لا يأثم ولا يعنف من تركها، لابد من فهم هذه المسألة، فإذا كان الشـرع لم يلزم المكلف بها ولـم يُحَتِّمْها عليه، فكذلك أنـت في تربية زوجتك لا تحتمهـا عليها، ولا تعنفها على تركها، وإنما تحضُّهـا عليها، وتحببها إليها،

وتذكر لها فضائلها، وآثارها، وتكون أنت قدوة لها في امتثالها، فإذا وجدت منك ذلك، ووجدت منك ما قدمنا من الحرص على أورادك من النوافل وسعادتك بها، وألمك إذا ما فاتك شيء من وردك؛ فهذا أكبر محرك لها إلى فعلها واتخاذ أوراد مناسبة منها. وكذلك يمكنك أن تقرأ معها كتابًا، أو تستمع معها إلى شريط يعالج نافلة معينة كقيام الليل، أو صيام النوافل، وتعينها علي الامتثال، وهكذا حتى تضع قدمها على سُلَّم العبودية، فتتخذ لنفسها أورادًا تحافظ عليها، بل وتزيدها بين الحين والحين.

واعلم أن تذكيرها بحقيقة الدنيا والآخرة، وتذكيرها دائمًا بالغاية التي من أجلها خلقنا، وهي عبادة الله وحده، وأنه ينبغي أن نجعل لحظاتنا وحركاتنا وسكناتنا عبادة لله ذلك يجعلها تنشط إلى الطاعة وتَنْفِرُ من المعصية، وكذلك من أعظم ما يحضُّ على الطاعة، والانطلاق في مجال العبودية: مطالعة سير السلف، وما كان من عباداتهم وأحوالهم، وكذلك شغلها بالدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتعليم صديقاتها؛ يجعلها تتقدم في جانب العبودية، وتستقيم عليها.

ثم اعلم - أخي الكريم - أنه إن لم يصلح الله لك زوجك ما صَلَحَت، فأكثر من الدعاء أن يجعلها الله لك قرة عين في الدنيا والآخرة ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[الفرقان: ٧٤].

تربية الأولاد ودلالتهم على الحق:

أولادنا فلذات أكبادنا، ونور أبصارنا، وبهجة حياتنا، فهم سعادة قلوبنا في صغرهم، وقوة ساعدنا إذا شبوا، وجبران كسرنا إذا هرمنا، ورفعة درجتنا في الآخرة إذا نحن وُفِّقْنَا في تربيتهم، وهم أول رعيتنا التي نسأل عنها كما في الحديث: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي بَيْتِهِ،**

وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»(١) .

وأول ما تسأل عنه فيما يَخُصُّ الرعية هو هل عملت على وقايتهم من عذاب النار أم لا؟ وقد قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦]، وفي الحديث: «**كَفَى بِالمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ**»(٢) ، فإن كان هذا في الطعام والشراب الذي يقوم به الجسد، والذي هو من أمور الدنيا، فكيف بغذاء الروح الذي من ضيعه فقد ضيع الدنيا والآخرة وخسر الدنيا والآخرة ؟!

قضية خطيرة وأمر محزن:

هناك أمر محزن لابد من البحث عن أسبابه وعلاجه ألا وهو: أن كثيرًا من أبناء المتسنِّنينَ يَجْنَحُ إلى ترك الالتزام، بل وفي بعض الأحيان يسبق أهل الفسق في فسقهم وأهل المجون في مجونهم، فلا يترك شيئًا مما نُهِيَ عنه إلا اقترفه، إنها قضية خطيرة تؤثر على حياة الأب ودعوته !!

فما الأسباب، وما العلاج؟

هناك حقيقة هامة يمكن أن تتفهمها: إذا تخيَّلت أن الولد قاضٍ، يجمع أوراق القضايا وحَيْثِيَّاتها ودعاواها وبياناتها، من أول معرفته بالحياة من صغره حتى سِنِّ المراهقة، السن الذي يتحرر فيه من كل مؤثر، ويستقل بالحكم على الأشياء بناءً على المُعْطَيات التي جمعها قبل ذلك، فيحاكم القضايا التي عرضت عليه ويحكم عليها حكمًا يقوم هو بتنفيذه كلما استطاع.

أخي الكريم... هناك طرفان متناقضان يعرض كل منهما على الصغير

---

(١) صحيح: سبق تخريجه.

(٢) حسن: أخرجه أبو داود (١٦٩٢) من طريق عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما مرفوعًا، وحسنه الألباني، انظر [«صحيح سنن أبي داود» (١٤٨٤)].

الغرير [١] قضيته: طرف هو المجتمع، وطرف هو والد الطفل وأسرته.

ـ **فالمجتمع**: يدعوه إلى ما يوافق هواه من اللهو واللعب، ويدعوه إلى التحرر من القيود والالتزامات، يدعوه ـ إذا شبَّ ـ إلى الأفلام والمسلسلات والملاهي، والصديقات، يدعوه إلى التدخين والمخدرات، يُزَيِّنُ له ذلك ويُرَغِّبه فيه بكل حيلة ووسيلة، ثم إن هذا الولد الغرير يرى بعقله القاصر، وإدراكه القليل، وقلة خبرته، يرى أن أهل هذا المسلك سعداء بما هم فيه، فلا قيود ولا تعقيدات، يفعلون ما يريدون، وما يحبون، ولا يرى منهم إلا ظاهرهم، وهم بالمقاييس المغلوطة أنهم سعداء يدعونه؛ ليسعد معهم، ويَهْنَأ بالحياة، وكل يوم يرى عندهم جديدًا من الملاهي والملاعب وغيرها.

ـ **والطرف الآخر هو بيته**: يدعوه إلى شيء آخر وبطريقة أخرى، فأكثرنا ـ إلا من رحم الله ـ دعوته لأبنائه مقتصرة على «افعل! ولا تفعل! لم فعلت كذا؟ لِمَ لم تفعل كذا؟» توبيخ، وإيذاء، وإحراج بين أصدقائه.

ثم ينظر إلى واقع حياة أبيه: فيجد أباه وكأن معاني الدين وتعاليمه قيود عليه فقط، تكليف مُجَرَّدٌ لا يُحِسُّ بسعادة والده بها، وإنما يمتثلها والده تَكَلُّفًا لا حبًا ولا رغبة فيها، وكذلك أمه؛ بل أشد، يطلع منهما على مخالفات كثيرة، فكثيرًا ما يسمع منهما الغيبة والنميمة والكذب، وكثيرًا ما يتخلف والده عن صلاة الفجر، وكثيرًا ما تؤخر أمه الصلاة عن وقتها، وكثيرًا ما يجد الخلاف بين والديه لأتفه الأسباب، أكبر همهما أعباء الحياة والحديث عنها، فيرى الولد أن الدين مجرد قيود يتقيد بها، وممنوعات يمتنع منها، تكليفات يكلف بها لا يُحِسُّ فيها بسعادة كما يرى أقرانه يسعدون بحياتهم وبما شاءوا، وكيف شاءوا أما هو فلا أفلام، ولا مسلسلات، ولا قصص، ولا مجلات، لا تستعمل

(١) الغرير: قليل الخبرة في الحياة.

التليفون، لا.. لا.. لا...

هذا الذي يسمعه من والده إذا تطرَّق الكلام إلى شيء من هذه الأمور، مع أن أصدقاءه يفعلون كل هذا بغير نكير، فلماذا كل هذا التشدُّد؟ هذا ما يدور في ذهنه.. لماذا كل هذا التشدد ؟

وذلك كما قدمنا؛ لأنه بإدراكه القاصر لا يرى مَغَبَّةَ[1] هذا التحلل والتسيب الذي يعيش فيه المجتمع، ثم إنه لا يحس باقتناع والديه وسعادتهما بقضيتهما أصلًا، بل على العكس قد يُحِسُّ من أمه أنها تعاني مثلما يعاني هو، ولو تُركت وشأنها لكان لها شأن آخر، وقد يكون والده كذلك لولا الملامة أو حذار مَسَبَّةٍ، والناس فيما ذكرنا درجات.

المهم أن الولد يجمع أوراق القضيتين منذ صغره حتى سِنِّ المراهقة، وكل يوم يضيف معلومة جديدة، وورقة جديدة حتى إذا جاء وقت إصدار الأحكام كانت قضية والديه هي الخاسرة، وقضية المجتمع هي التي تستحق القبول، فقد رأى فيها السعادة والانطلاق بخلاف القضية الأخرى، فإنها قيود ثقال لا يرى لها أثرًا عاجلًا إلا سوء معاملة أبيه هذا، وقد يكون في الأب كل ما ذكرنا من الخلل أو بعضه، فقد يكون الأب ـ مثلًا ـ مهملًا في تربية الأولاد، يتركهم يفعلون ما أرادوا بغير نكير؛ لانشغاله عنهم؛ فلا يُبَيِّنُ لهم بقوله ولا بفعله السعادة الحقيقية التي لا تنال إلا بالتزام الشرع، فلا يجدون من جانب البيت إلا السلبية، وفي الجانب الآخر تكون دعوة المجتمع لهم على أَشُدِّها فتكون قضية المجتمع هي القضية الوحيدة فتكون هي الجديرة بالقبول والتصويب عنده، فيتخذ الولد أخطر قرار في حياته ألا وهو أنه سوف يجاري المجتمع، ويأخذ منه كل ما فيه، وأما تنفيذ القرار فعلى حسب الظروف والأحوال إما أنه

---

(١) مغبة: عاقبة.

ينفذ علانية ولا يبالي بلوم والديه، وإما أن ينفذه سـرًا خوفًا منهما، نسأل الله أن يهدي أبناءنا لأحسن السبل لا يهدي لأحسنها إلا هو سبحانه.

العوامل المؤثرة في تربية الأولاد ودلالتهم على الحق:

هناك ثلاثة أمور أو عوامل لابد من الانتباه لها وإتقانها؛ ليسهل تربية الأولاد ودلالتهم على الحق، وهي:

١- صـدق التزام الأب والأم بالشـرع، وظهور أثر ذلـك عليهم وظهور أثر قناعتهم بقضيتهم وسعادتهم بها.

٢- الإحسان إلى الولد وأثره في دلالته على الحق والخير ودعوته إليه.

٣- عملية تربية الولد ودلالته على الحق والخير.

أولًا: صدق التزام الأب والأم وظهور سـعادتهما بقضيتهما وأثر ذلك في تربية الابن:

أخي الكريم... لو أن الولد نظر إلى أبويه فوجد أن شـغلهما الشاغل طاعة الله ﷻ يأتمران بأمر الشـرع وينتهيان بنهيه، لهم أَوْرَادهما من الطاعات، يسـعيان لتحصيلهـا وإتمامها، يتألم أحدهمـا إذا فاته وِرْدُه منها، يسـمعهما يتحدثان عن الغاية التي من أجلها خلقا وهي عبادة الله وحده، وأن السعادة الحقيقية إنما هي في موافقة هذه الغاية، ويراهما هادئين مطمئنين راضيين في السَّرَّاء يشكران، وفي الضراء يصبران، غايتهما مرضاة ربهما، لا تفتُرُ ألسنتهما عن ذكرِه، تشهد أقوالهما وأعمالهمـا وجميع أحوالهما بحبه، ويرى أثر ذلك من السـعادة التي تغمرهما، والسـكينة التـي تتنـزل عليهما، والطمأنينـة التي تَتَحَـوَّل بها حياتهمـا إلى جنة ونعيم، بخلاف غيرهما ممن ليس على شاكلتهما.

أخي الكريم... ما الذي ينتظر من ولدٍ ناشيءٍ شعر بهذا من أبويه ؟ بلا شك سوف يحاول أن يشاركهم سعادتهم فيفعل ما يفعلون ويلتزم ما يلتزمون.

ثانيًا: الإحسان إلى الولد وأثره في دلالته على الخير:

أخي الكريم... إن ديننا الحنيف هو دين الرفق والرحمة، والمودة والتلطُّف والإحسان، ومَنْ أولى بذلك كله من الولد خاصة في سنين عمره الأولى، وقد ضرب رسول الله ﷺ في ذلك أروعَ المثل، فها هو ﷺ يؤمُّ الناس وهو يحمل أُمامةَ بنت زينب، إذا سجد وضعها، وإذا قام حملها [(١)]، بل يسجد يومًا، فيُطِيلُ السجود، ثم يخبر أن الحسن ارتحله [(٢)] وهو يصلي، فكَرِه أن يُعْجِلَه ويقطع عليه لعبه [(٣)].

ويذكِّر أبا عمير بالنُّغَير الذي كان يلعب به ولم يجده معه، فيقول: «**يَا أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النُّغَيرُ** [(٤)]؟» [(٥)]، بل ويناديه بكُنية محبَّبة إليه: «**يَا أَبَا عُمَيْرٍ**» ويسلم على الصبيان في الطريق ﷺ.

أخي الحبيب.. أما لَكَ في رسولِ الله ﷺ أسوة حسنة، فإن قلب ولدك الغَضَّ الطريَّ يمكنك أن تأسِرَه بأقل إحسان، وتعلقه بك بأدنى مجهود، فمرة هدية، ومرة تصطحبه معك في زيارة لبعض إخوانك، ومرة تمازحه، ومرة تداعبه، ولا تحقرن ضمة تضمُّه بها إلى صدرك، ولا قبلة تطبعها على جبينه، ولا تحقرن كلمة طيبة تشجِّعُه بها، ولا ممازحة صادقة تداعب بها مشاعره، ولتظهر اهتمامك به وحبك له؛ فإن ذلك يأسِرُ لك قلبه، فتقوده إلى مرضاة ربك وسعادة الدارين.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥١٦) (٥٩٩٦)، ومسلم (٥٤٣).
(٢) ارتحله: ركب على ظهره.
(٣) حسن: أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ٤٩٣)، وأخرجه النسائي في الكبرى (١/ ٢٤٣) (٧٢٧)، وغيرهما، انظر [«صفة صلاة النبي ﷺ» للألباني، ص (١٤٨)].
(٤) النغير: طائر صغير.
(٥) صحيح: أخرجه البخاري (٦١٢٩)، (٦٢٠٣)، وأخرجه مسلم (٢١٥٠).

ثالثًا: طريقة تربية الولد ودلالته على الحق:

إذا قدمت بين هذه المهمة ما ذكرنا من ملاحظة الطفل لقناعتك بقضيتك وسعادتك بها، ومن الإحسان إليه، حتى إذا تعلَّق قلبُه بك، وامتلأ بمحبتك، فسيدفَعُه ذلك إلى التشبُّه بك، وفعل ما تحب وتجنب ما تكره، والمسارعة إلى الامتثال لأمرك، وهذه هي البداية التي منها تنطلق في دعوته ودلالته على الحق والخير.

الفترة الأولى من عمر الطفل:

اعلم أخي الكريم...

١ - **أن أول ما ينبغي أن تهتمَّ بطفلك فيه حفظ كتاب الله** ﷻ على يد معلم في كُتَّاب أو غيره، وتختار له أقرب المعلمين إلى ما ذكرنا من صفات وأخلاق وعبوديات إن وُجِدَ، وينبغي أن تحرِّض وتشجع ولدك إذا زاد شيئًا من الحفظ، وليكن في نهاية كل سورة أو كل جزء تهديه هديَّة أو غيرها، وكذلك ينبغي أن تراجع معه ما حفظ في البيت؛ فتكون أنت وأمه أو أحدكما متقنًا للأجزاء الأخيرة على الأقلِّ حفظًا وتفسيرًا، وذلك في غاية الأهمية؛ لأنه إذا رجع من الكُتَّاب فوجد أمه تدندن بالآيات التي كان يتلقاها في الكتاب سَيُحِسُّ مع هذا التوافق بين الكُتَّاب والبيت بأهمية القرآن وعظمته؛ فإن الجميع مشغول به حتى إن أمه تتغنَّى به، فسوف يدندن معها فيُتْقِنُ ما حفظ، وسيكون لهذه الآيات في قلبه طعم وشأن آخر، ثم إنه سيسأل عن بعض معاني الكلمات، فإن وجد جوابًا زاد عنده هذا الإحساس وهذا الشعور، وحفر في قلبه معنى هذه الآيات خاصة إذا دَلَفت[1] الأم أو الأب منها إلى الحديث عن عظمة الله وقدرته، واطِّلاعه على خلقه وأنه يراهم ويراقبهم، ولا يخفى عليه شيء، وهو سبحانه يحب

---

(١) يقال: دلف دلوفًا: أي مشى رويدًا وقارب الخطى.

المطيعين ويجزيهم جزاءً حسنًا في الدنيا والآخرة، ويَكْرَه العُصاة ويعاقبهم في الدنيا والآخرة.

وهذه المعاني من أهم ما ينبغي أن يُحْفَرَ في ذهن الطفل في بداية حياته وما تكرَّر تقرَّر، كلما كررت على سمعه المعنى بين الحين والآخر تقرر في قلبه، وزاد يقينه به، والطفل في هذه السن يكون تأثُّره خوفًا ورجاءً بالمحسوس الملموس أكثر منه تأثرًا واستشعارًا بالغيب، فلابد من إيقاظ حاسة التأثر بالثواب والعقاب الغيبي عنده، وذلك بتكرار ذكر أخبار الجنة ونعيمها وحب الله ﷻ وأسمائه وصفاته وما إلى ذلك من المعاني التي يفهمها.

٢- ويُعلَّم الطفل ما يناسبه من آداب: كآداب الطعام، وآداب المجالس، وآداب الحديث، وآداب النوم، وآداب تلاوة القرآن والذكر، والأدب مع الكبير والمعلم والوالدين بصورة سهلة ميسرة ومبسطة بما يتناسب مع فهمه وإدراكه.

٣- قال في «مختصر منهاج القاصدين»: «ويُمنع من الأخلاق السيئة، ويُمنع من أن يَفْتَخِرَ على أقرانه بشيء مما يملكه أبوه أو بمطعمه أو بملبسه، ويُعوَّد التواضع والإكرام لمن يعاشره، ويُمنع من فُحْش الكلام، ويُقَبَّحُ له ذلك، ويُعلَّم أيضًا أن يَنهى من فَعل هذا ويأمره بحسن القول، ويُمنع من الكذب ويقبح له ذلك» اهـ.

٤- ويتخيَّر له ما يناسب سِنَّه من الأحاديث النبوية التي تتعلق بالعقائد والآداب والأخلاق، بحيث تكون من الأحاديث القصيرة السهلة الحفظ كحديث: «**يَا غُلَامُ! إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظْ اللهَ يَحْفَظْكَ...**»[1] الحديث، وحديث: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ...**»[2]، وحديث: «**يَا غُلَامُ! سَمِّ**

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وصححه الألباني، انظر [«صحيح الجامع» (٧٩٥٧)].
(٢) صحيح: رواه البخاري (١٣)، ورواه مسلم (٦٧).

اللهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ»[١]، وغيرها من الأحاديث التي تتناول ما ذكرنا، ويشجِّع الطفل على حفظها، ويبيِّن له معناها بأسلوب يفهمه.

٥- **ويحفظ الطفل أسماء الله الحسنى**، ويُعلم المعاني السهلة لها، والآثار التي يسهل عليه فهمُها لأسماء الله وصفاته، خاصة مع المواقف التي تظهر فيها هذه الآثار؛ ليتعلَّم الطفل مطالعة آثار أسماء الله عز وجل وصفاته في نفسه وفي الأحداث من حوله[٢].

٦- **ويعرَّف الطفل بنبيه** ﷺ: اسمه، واسم والده، واسم والدته، وعمه، وجده، وطرفًا من سيرته ﷺ في صغره، وقصة الفيل، والهجرة، والغزوات بطريقة مبسطة سهلة.

٧- **ولا أشد تنبيهًا وأقوى تأثيرًا في الطفل من سرد القصص الإسلامية على مسامعه**، ومن هذه القصص بالإضافة إلى السيرة النبوية: قصة نوح؛ والطوفان، وقصة يونس؛ في بطن الحوت، وقصة إبراهيم؛ وتكسير الأصنام وإلقائه في النار، وقصة موسى؛ ونجاته من فرعون وإغراق فرعون وجنوده، ومختصر قصة يوسف، وقصص الصالحين: كقصة عمر مع المرأة وأولادها الجياع، وبائعة اللبن، وقصة الولد الصادق، وقصص في ذم الكذب والأخلاق الذميمة. وكذلك القصص التي تحضُّ على الأخلاق الحميدة، تُلخص هذه القصص وتُبسط في تعليقات ووقفات خفيفة تزرع في قلبه معاني الإيمان، وأصول العقيدة، ومكارم الأخلاق، ومحاسن الآداب، وتُغنيه عن غيرها من القصص الخرافية والمخالفة للعقيدة الإسلامية والأخلاق الكريمة.

٨- **يصطحبه والده إلى المسجد**، ويذكره بآداب المسجد، ويصطحبه في

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٣٧٦)، ورواه مسلم (٢٠٢٢) مرفوعًا من طريق عمرو بن أبي سلمة.

(٢) حتى يُعود ترجمة الأحداث من حوله ترجمة إيمانية لا ترجمة فيزيائية طبيعية كما يترجمها العلمانيون.

زيـارة إخوانه وأصدقائه وأقاربـه، ويذكره بآداب الزيـارة وتوقير الكبير وكيف يتعامل مع أقرانه التعامل الحسن، وكيف يكون منه حسن الخلق معهم ويتابعه ويلاحظه هل امتثل ذلك وعمل به أم لا ؟

٩- **يُكثر المربِّي من مجالسـة الطفل**، والاستماع إليه، ومداعبته، واللعب معه، حتى ينشرح قلب الولد له فيبيِّن له ما يدور بداخله، وهذا يُسهِّل على الولد الصدق مع مربيه، وعدم الحرج منه؛ فَيَسْهُل توجيهه وتربيته. ويدلُّ لذلك قصة يوسف مع أبيه ونصيحة أبيه له، قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[1] [يوسف:٤-٥]، فهذا الحوار الذي دار بين يوسـف وأبيه -عليهما السـلام- يدلُّ على أن هناك حـوارات كثيرة من هذا الباب بينهما جعلت هـذا الصبيَّ لا يمتنع من أن يقص هذه الرؤيا على والده.

١٠- **قـال في «مختصـر منهـاج القاصدين»**: «ومتى ظهر مـن الصبي خلقٌ جميـلٌ وفعلٌ محمـود فينبغي أن يُكْـرَم عليه، ويجازَى بما يُفْـرِح، ويمدح بين أظهـر الناس، فإن خالف ذلك في بعض الأحوال تغوفل عنه ولا يكاشـف، فإن عاد عوتب سـرًّا، وخوِّف من اطِّـلاع الناس عليه، ولا يكثـر عليه العتاب؛ لأن ذلك يهون عليه سماع الملامة، وليكن حافظًا هيبة الكلام معه» اهـ.

فإذا بلغ سن سبع سنين:

١- **فإنـه يُعَلَّم الطهارة والصلاة**، ويُؤْمَر بها لمـا في الحديث: «**مُرُوا أَبْنَاءَكُمْ بِالصَّـلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَـبْعِ سِـنِينَ، وَاضْرِبُوهُـمْ عَلَيْهَا لِعَشْـرٍ، وَفَرِّقُـوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ**»[2].

---

(١) في الأصل فوائد تربوية هامة فلتراجع.

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٩٥)، وصححه الألباني، انظر [«صحيح أبي داود» (٤٦٦)].

٢- وكذلك: **يُتَوَسَّع له في بيان فضائل الأخلاق**، ويعَلَّم صلة الأرحام، وبر الوالدين، والإحسان إلى الجار، والصدقة على الفقير، ويُقَبَّح له الأخلاق المذمومة لاسيما ما يُرى عليه آثاره من هذه الأخلاق.

٣- **وكذلك**: يُشجَّع على ختم القرآن الكريم ومراجعته.

٤- ويوَجَّه إلى حفظ «**الأربعين النووية**»، ثم «**عمدة الأحكام**»، ثم «**سلم الوصول**» ثم «**تحفة الأطفال**»، و«**المقدمة الجزرية**»، وهكذا.

٥- **ويعرَّف بأسماء الأنبياء**، ونبذة مختصرة عن سِيَرِهم، والآثار الإيمانية التي يفهمها ويستطيع استيعابها من كل قصة.

٦- **وكذلك: يُقَصُّ عليه من قَصَص الصحابة والسلف الصالح**، التي تُنَمِّي عنده الأخلاق الفاضلة والسلوك المستقيم.

٧- **ويُعلَّم تعظيم كلام الله** ﷻ **وكلام رسوله** ﷺ وأنه ينبغي أن يكون ممن يتعلم العلم ويعمل به.

فإذا قرأ حديث: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**»[1]، فيُعلَّم طريقة امتثال هذا الحديث، ويَتَعَلَّم مراقبة لسانه وعدَّ كلماته، ومُحَاسَبة نفسه عليها، وهكذا حتى يتقرر عنده هذه الحقيقة التي غابت عن واقع حياتنا، وهي أن الله ﷻ إنما أنزل كتابه ليُتْلَى ويُتَدَبَّر ويُفْهَمَ ويُعْمَل بما فيه، وكذلك إنما كانت السنة من أجل أن تُفْهَم وتُمْتَثَل، فيجمع بين العلم والعمل، وهذا على قدر ما يدركه، المهم أن يُعَظِّم عنده هذا الأمر، ويكون واضحًا في ذهنه ظاهرًا أثره على تصرفاته وأفعاله.

فإذا بلغ عشر سنين:

١- يحثُّه والده على مُراجعة القرآن أكثر وأكثر.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

٢- **ويَدْرُس كتابًا مختصرًا في العقيدة، ككتاب«الطفل المسلم»**.

٣- **ويدرُس كتابًا مختصرًا في التجويد، ككتاب«علم التلاوة»** مع حفظ متن«**تحفة الأطفال**» و«**الجزرية**».

٤- **ويدرُس كتابًا في فقه العبادات، ككتاب«شرح أركان الإسلام والإيمان»**.

٥- وحبذا لو حفظ أحاديث«**عمدة الأحكام**» إن لم يكن حفظه قبل ذلك.

٦- **وتُدَرَّسَ له السيرة من كتاب مختصر، كسلسلة«غزوات الرسول ﷺ»** لمحمد على قطب، أو كتاب«**نور اليقين**»، المهم في هذه الفترة أن يتعرَّف على العقيدة بصورة مختصرة، وكذلك على العبادات، وعلى سيرة نبيه ﷺ وما يجب عليه تجاه القرآن والسنة (١).

٧- **ويتعرف كذلك على حقيقة بعض أعمال القلوب**: كالإخلاص، والخوف، والرجاء، والتوكل، والمحبة، والصبر، والشكر، ونبذة مختصرة عن بعض آفات القلوب وأمراضها.

٨- **ويَتَعرَّف على ما يستقيم به خُلُقُه ومعاملاته مع الخَلْقِ**، ويُعَلَّم حسن الخُلُق من الحِلْم والرفق والتواضع، وغير ذلك من الأخلاق الحسنة.

٩- **وكذلك يُعَوَّد صلة الأرحام**، والإحسان إلى الجار، والسلوك الحسن والآداب العامة، ويكون ذلك بالقدوة والتلقين والقراءة من مظان ذلك، وكذلك بسماع الأشرطة التي تعالج هذه الأمور كلما وُجِد (٢).

---

(١) يمكن أن يحصل المادة المطلوبة في جميع ذلك من موسوعة«**البداية لمن سلك طريق الهداية**»، أو«**براعم الإسلام**»، أو«**ابن الإسلام**».

(٢) هذا بالنسبة لعامة الأولاد، ومثل هذا بإذن الله تعالى فيه خير كثير ونفع عظيم لنفسه وللناس، ونحن في بحثنا هذا نتناول ما ينبغي أن يكون عليه كل والد مع ولده، أما من وجد في ولده نوع نبوغ في طلب العلم وكانت الظروف مواتية فإنه يمكن أن يزيد له على ما ذكرنا بحفظ المتون في الفقه والعقيدة والتجويد والمصطلح والنحو، وكذلك متون حديث كـ«**اللؤلؤ والمرجان**» أو«**بلوغ المرام**» =

١٠- المهمة الكبرى في هذه المرحلة: تعويد الولد الامتثال لكلام الله وكلام الرسول ﷺ بحب وإقبال وسعادة، وهذا ليس أمرًا هينًا وإنما يحتاج - كما قدمنا - إلى مجهود عظيم، وصبر شديد، ووقتٍ، وجهدٍ، وحلمٍ، ورفقٍ، وتلطُّفٍ، وأكرر هذا؛ لأن كثيرًا من الناس غالبًا ما يكتفي بالتذكير مرة أو مرتين، ثم يضرب ويعنف؛ لأنه قد نَفِدَ صبره، فيتسبب في فتنة ولده وهو لا يدري.

١١- واعلم أن للأقران دورًا عظيمًا في تفعيل وتعطيل أمر التربية؛ لذلك كان على الوالد مراعاة معرفة أصحاب ولده، بل وتوجيههم في ذات الجهة التي يسير فيها مع ابنه في التربية، وقد يلجأ إلى أمر ولده بتغيير أصحابه إذا رأى منهم ما يكره، وهذا ينبغي أن يكون آخر العلاج. **فهناك عدة سُبل، منها - وهو أعظمها**: اعتبار هؤلاء كأولاده، ومن ثَمَّ يعمد إلى مجالستهم ومصاحبتهم، ومحاولة إزالة الهيبة من صدورهم تجاهه، وإن استطاع أن يُعِدَّ لهم برامج تربوية قصيرة ومثيرة كاصطحابهم في رحلة، أو عقد مسابقة لهم، أو عمل احتفال لهم في مناسبات مختلفة، فإن هذا يولد عندهم نوع من الاحترام لشخصية الأب، فإذا ما دعوا الولد إلى فعل ما هو خطأ فقال لهم: إن أبي ينهاني عنه، لم يقابلوه بالسخرية التي هي سلاح المغرضين الأول في دعوة غيرهم للانحراف، بل يحترمون قوله، وبالمثل إذا بادرهم هو بدعوتهم إلى الخير، وقال لهم: هكذا علمني أبي، كان لقوله في نفوسهم أثرٌ عظيمٌ.

١٢- ومما له أعظم الأثر في استقامة الولد على الخير: تعويده على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما فعل لقمان؛ حين علَّم ولده وحثَّه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما أخبر بذلك القرآن الكريم: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ

= وغير ذلك ليبدأ السلم التعليمي مبكرًا، ويمكن أن يبدأ حفظ ذلك قبل هذه السن لكن بعد حفظ القرآن وإتقانه أو مع حفظ القرآن، لكن بشرط ألَّا يشغله عن حفظ القرآن واستظهاره جيدًا.

ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان: ١٧].

فهذا له أثر عظيم في نفس الولد، والطفل في هذه المرحلة يستحي أن يعيِّره أقرانه بأنه كاذب يأمرهم ولا يفعل، فإذا ما تعلَّم أن يأمرهم كان هو أوَّل من يَمْتَثِلُ للأمر ويفعل ما به يأمر، وإذا نهى كان أول من يلتزم النهي، ويترك ما عنه يَنْهَى.

١٣ - هناك أمر هام جدًّا ينبغي أن يُراعيه كلُّ مربٍّ ألا وهو: أن المربي الناجح هو الذي يملأ على ولده حياته - جِدَّها ولعبها - بما يتناسب مع مرحلته السِّنِّية وميوله الشخصية، فيجعل له وقتًا للعب، بل ويقترح له ألعابًا وأمورًا مسلية، ويجعله يبتكر طرقًا للتسلية حبذا لو كانت هادفة يتعلم منها شيئًا.

المقصود: أنه كما يهتم بتعليم ولده ما ينفعه ويأمره به وينهاه عما يضرُّه، ينبغي أن يُشَاركه في لعبه، ويجعل له وقتًا مناسبًا للعب؛ لأن الولد لابد له من لعب وتسلية، فإن وفَّرت له هذه الفرصة فلن يحاول الحصول عليها بطرق يُخْفِيها عليك، ويُضْطَرَ إلى الكذب عليك فيشعر أنه يفعل فعلًا مخالفًا فيتعوَّد المخالفة، أما إذا أعددت له برامج تستغرق جميع أوقاته، وتستفرغ جميع طاقاته، وتُشْبِع جميع رغباته، فإن ذلك أقرب إلى أن يكون دائمًا صريحًا معك مطمئنًا إليك.

استعمال الثواب والعقاب في التربية:

أثناء تربية الأولاد لابد أن تحدث مخالفات من فعل أشياء لا ينبغي فعلها، وترك أشياء ينبغي فعلها؛ ولذلك يحتاج المربِّي إلى أسلوب الإثابة والعقوبة؛ ليُحَثَّ الولد على فعل ما ينبغي فعله، وترك ما ينبغي تركه، وقبل استعمال هذا الأسلوب لابد أن يُنْتَبَه إلى عدة أمور.

تنبيهات مهمة تتعلق بالإثابة والعقوبة:

١ - الطفل غالبًا لا يعلم قبح القبيح ولا حسن الحسن بنفسه، وإنما يحتاج

إلى تعليم، فيُحَسَّنُ له الحسن، وذلك ببيان أن الله يحبه، ويحب فاعله، ويرضى عنه، ويجعل له في الدنيا التوفيق، ونيل ما يحب، وفي الآخرة الجنة والنجاة من النار، وكذلك الناس يحبون من يفعل ذلك، ويُثْنُون عليه ولا يكرهونه، وكذلك يقبح له القبيح فيخبر بأن الله يكرهه، ويكره فاعله، ويعذبه في الدنيا والآخرة، والناس كذلك يكرهون من فعل ذلك القبيح، ويذمونه، وهكذا.

٢- **وقد ينسى الطفل ذلك مرات فلا تعجل عليه**، وكرر عليه بطريقة أو بأخرى تحسين الحسن، وتقبيح القبيح فإن ما تكرر تقرر.

٣- **اعلم أن إدراك الطفل للآجل غير المحسوس من الثواب والعقاب أقل بكثير من إدراكه للعاجل المحسوس منه** فإنه يخاف إذا خوف بالضرب - خاصة إذا ضرب مرة قبل ذلك - أكثر من خوفه من النار إذا خوف بها، وكذلك ينشط إذا وُعِدَ بلُعْبَة أو بغيرها أكثر من نشاطه إذا ذُكِرَ له أن ثواب هذا العمل الجنة ونعيمها؛ ولذلك لابد من الانتباه لهذا واستعمال قاعدة ما تكرر تقرر، فيكَرِّر أمامه ذكر الجنة وما بها من نعيم وما أعد الله فيها للمحسنين، وكذلك ذكر النار وما أعد الله فيها للعصاة المعرضين ومع التكرار ستتقرَّر هذه المعاني في ذهنه يومًا بعد يوم، وسيملأ الإيمان بها قلبه، فينبغي أن يهتم الوالدان بربط الأعمال حسنها وقبحها بذلك بدلًا من الترغيب والترهيب بالإثابة المحسوسة من الثناء والهدايا، والعقوبة الملموسة من التوبيخ والضرب.

٤- **اعلم أن عملية الإثابة والعقوبة في التربية** تحتاج إلى فقه، وصبر، وحلم ورفق، وتلطف ورحمة، وحزم ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥].

من صور الإثابة:

أ- التشجيع بالثناء عليه باللفظ المناسب لما فعل إن فعل فعلًا حسنًا.

ب- القبلة والمعانقة والبشاشة في وجهه.

جـ- هدية مناسبة غير مبالغ فيها، ومما يحب الولد، وينبغي أن تكون إلى الرمز أقرب منها إلى القيمة المادية والحجم؛ ليكون ارتباطه بالمعاني الشعورية أكثر منه تعلقًا بالمادة والقيمة المادية.

د- اصطحابه في زيارة يحب أن يكون فيها.

هـ- فسحة تعده بها وتوفي له.

ـ **وهناك ملاحظة هامة**: ينبغي أن يكون أساس مكافأة الولد أن يُثنى عليه بأنه فعل طاعة وقربة ومرضاة للرب، وأنه أعظم جائزة له أنه نال الثواب من الله؛ ولذلك لا يُعَوَّد الطفل على أن كل شيء حسن يفعله ينال به شيئًا ماديًا محسوسًا؛ فتتحول نيته في كل عمل إلى طلب الأجر الدنيوي.

من صور العقوبة:

١- الإعراض عنه إذا أخطأ.

٢- الحرمان من شيء يحبه.

٣- الزجر بكلمة مناسبة للخطأ.

٤- التخويف بشيء مما سبق.

٥- التخويف بالضرب.

٦- الضرب غير المبرح « ضرب التأديب لا ضرب التشفِّي ».

ـ **وهناك ملاحظة مهمة ينبغي مراعاتها**: وهي أنه لا ينبغي أن ينتقل من درجة من درجات العقوبة إلى أشدَّ منها إلا بعد الإياس من جدوى هذه الدرجة، وهذه المسألة ـ كما ذكرنا ـ تحتاج إلى صبر طويل ومصابرة؛ فالانتقال من مرحلة إلى مرحلة لا ينبغي أن يكون إلا بعد استفراغ الوسع في الحيل حتى لا تصل إلى الضرب إلا في أضيق الحدود؛ فإنه لو شرع الأب في الضرب فمع

التكرار يعتاد الطفل ذلك فلا يجد الأب عقوبة رادعة بعد أن فقدت هذه العقوبة تأثيرها وفاعليتها.

- **ولكي تقف على هذه الحقيقة تدبَّر هذا الحديث**: عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «**مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا لِعَشْرٍ**» (١)، فهذه ثلاث سنوات، في كل سنة ثلاثمائة وستون يومًا في كل يوم خمس صلوات، خمسة آلاف وأربعمائة صلاة يأمره عند كل صلاة بأدائها ولا يضربه إلا في سن العاشرة، فكم من الحيل والأساليب سيستخدمها من أجل أن يجعل ولده يصلي بدون ضرب هذه المدة الطويلة؛ لذلك نقول لا ينبغي التسرع في مسألة الضرب؛ فإن التسرُّع فيها مفسدة لعملية التربية الصحيحة.

إذا بلغ الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمره:

١ - **يهتم والده باستكمال فروض الأعيان له وتركيزها في ذهنه**، فيعلم ما لا تستقيم عقيدته إلا به، وما لا تستقيم عبادته ومعاملته إلا به، وما لا تستقيم أخلاقه وآدابه إلا به فيدرُس - مثلًا - كتاب «**منهاج المسلم**» للجزائري (٢).

٢ - **يُنْصَح بسماع الأشرطة التي تعالج قضايا الرقائق**، وأعمال القلوب، ومعاني الإيمان، ويُنْصَح بالمطالعة في الكتب المناسبة التي تعالج ذلك ككتاب «**تزكية النفوس**»، أو «**سلسلة أعمال القلوب**» للشيخ المنجد، أو «**أعمال القلوب في سؤال وجواب**».

---

(١) صحيح: سبق تخريجه.

(٢) وحبذا لو حفظ متونًا في ذلك إن لم يكن قد بدأ بالحفظ قبل ذلك، فيحفظ في العقيدة: «**الطحاوية**»، أو متن «**سلم الوصول**»، أو «**الواسطية**». وفي الفقه: متن «**العمدة**» لابن قدامة في الفقه الحنبلي، أو متن «**أبي شجاع**» في الفقه الشافعي، في الحديث: متن «**الأربعين النووية**»، ثم «**عمدة الأحكام**»، ثم «**اللؤلؤ والمرجان**»، وكذلك متن «**تحفة الأطفال**» و«**الجزرية**» في التجويد، وكذلك متن «**البيقونية**» في الحديث، ومتن «**الأجرومية**» في النحو وغير ذلك من متون.

٣- **ينصح كذلك بالقراءة في السيرة النبوية من كتاب مختصر**، وليكن «**هذا الحبيب**» للشيخ الجزائري، أو «**نور اليقين**» أو «**السيرة في سؤال وجواب**».

٤- **ينصح بقراءة تراجم الصحابة والسلف** من كتاب «**صور من حياة الصحابة**»، و «**صور من حياة التابعين**»، وكتاب «**من أعلام السلف**» تكون هذه الكتب موجودة عنده في مكتبته، يحببه والداه في القراءة فيها والاستغناء بما فيها من مادة قصصية عن القصص الأخرى التي هي مليئة بالخرافات والمخالفات، ويجتهد والده في تحبيب مثل هذه القراءة إليه وشغله بها؛ ليُشْبِع رغبته ونَهَمَه فلا يلجأ إلى غيرها.

٥- **يهتم الوالدان بتعزيز العلاقة بينهما وبين الولد** بكثرة مجالسته والاستماع إلى مشاكله وأحواله، وحديثه عن نفسه، ومشاركته مشاعره وأفكاره مع التلطف في النصح، وتعديل التصور الخاطئ - إن وجد - بتلطف شديد، وحوار مُقْنِع دون تعنيف وزجر قَدْرَ المستطاع.

٦- **محاولة معرفة جميع أخباره وأحواله دون أن يشعر**؛ ليسهل تدارك أي خلل من أوله، ومحاولة اتخاذ صحبة طيبة تشغله عن الصحبة السيئة، ومحاولة مصادقة أصدقائه ودعوتهم إلى البيت والتعامل معهم والقرب منهم.

٧- **يُعَوَّد الولد أن ينصح زملاءه وأصدقاءه**، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر بالحكمة والموعظة الحسنة، فيدعوهم بالكلمة الطيبة وبالهدية وبالكتاب والشريط ويتابع الأب معه ذلك ويشاركه في اختيار الكتاب أو الشريط وطريقة الدعوة.

إذا بلغ الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمره:

إذا بلغ الولد سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمره ينبغي أن نهتم في تربيته بما يأتي:

١- التأكيد على الأمور السبعة السابقة.

٢- التوسع في طلب العلم: فيدرُس المرحلة الأولى من طلب العلم التي سبق بيانها في مراحل طلب العلم.

وهناك عدّة طرق لتعليمه ما يلزمه من العلم الشرعي[1]:

الطريقة الأولى:

أن يجلس الوالد مع ولده ويقرأ معه هذه الكتب كلمة كلمة، ويعلق له على ما يحتاج إلى تعليق، ويستخرج معه الفوائد العلمية والعملية من كل فقرة، ويتَّفق معه على الامتثال لكل ما تعلَّم، والتطبيق العملي بما يعلم مع عمل اختبار في نهاية كل باب.

الطريقة الثانية:

أن يكون هناك شروح مُسَجَّلة لبعض هذه الكتب، فينصَحُه بسماعها وكتابة الشرح على هامش الكتاب، ثم يقوم الأب بعمل سؤال على كل فقرة، ويُطْلَب من الولد الإجابة على هذه الأسئلة كل باب على حِدَةٍ، ويختبره كل عدة أبواب، وحبذا إهدائه هدية مناسبة إذا اجتاز الاختبار بنجاح.

الطريقة الثالثة:

أن يقرأ الوالد الكتاب وَحْدَه، أو يستمع إلى شرحه ويكتب التعليقات وسؤال على كل فقرة، ثم يطلب من الولد الإجابة على الأسئلة في كشكول خاص، ويناقشه في نهاية كل باب ويختبره.

الطريقة الرابعة:

---

(١) الأصل في التربية والتعليم أن يكون ذلك على يد مربٍّ متخصص في هذا الباب، فإذا وجدت مثل هذا فلتحرص على تسليم ولدك له ولا تتأخر في ذلك، أما إذا لم تجد مثل هذا المربي فهذه طرق بديلة نتبعها حتى يأذن الله ﷻ بإيجاد من يقوم بهذا الدور الخطير (دور التربية والتعليم بإنشاء الجيل المنشود).

أن يطلب من الولد أن يقرأ الكتاب بابًا بابًا، ويضع عنوانًا لكل فقرة أو سؤال عليها، ثم يناقشه المربِّي في كل باب منها، ويركز في المناقشة على المسائل المهمة ثم يختبره.

- تنبيه: ينبغي أن يُعلم أن الأصل هو التعلم بالتلقِّي سواء كان ذلك على شيخ، أو على الوالد.

وليس كل العلوم تصلح فيها كل هذه الطرق، وتؤدي الغرض المطلوب منها كاملًا، وإنما هذا من باب ما لا يدرك كله لا يترك جله، ومن باب: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

فيمكن للمربِّي أن يستعمل لكل مادة ما يناسبها من الطرق أو أقرب طريقة مناسبة إن لم يستطع سلوك الطريقة الأمثل.

دعوة ذوي الرحم والجيران وعامة الخلق:

إن المسلم الصادق يجب أن يعيش مع الناس جميعهم بالإسلام وللإسلام، المسلم الصادق ينبغي أن يحرِص على إيجاد مجتمع يترجم أحكام الشريعة ترجمة عملية في عقيدته، وعبادته، وفي جميع معاملاته، في بيعه وشرائه، وفي أخذه وعطائه، في حربه وسِلْمه، في خصوماته وقضائه، في جميع أحواله ونظمه اقتصادية كانت أو اجتماعية أو سياسية، مجتمع يُنتَصر فيه للمظلوم ويُكْفَل فيه اليتيم، ويُرْعَى فيه الأرمل، يأخذ الفقير فيه حظَّه من الصدقات والعناية.

مجتمع خالٍ من الربا والخمر، والتبرج والاختلاط، والفساد بجميع أنواعه. مجتمع ولاؤه لله ولرسوله وللمؤمنين، يناصِر المسلمين في كل مكان على وجه الأرض، مجتمع تعلوه أحكام الشريعة وترفرف عليه رايتها.

المسلم الصادق هو الذي يجعل حياته كلها وقفًا لإيجاد هذا المجتمع، وإذا كان هذا المجتمع قد غُيِّبَت معالمه شيئًا فشيئًا، فإن إعادتها تكون كذلك

شيئًا فشيئًا، قال النبي ﷺ: **«تُنْقَضُ عُرَى الإِسْلَامِ عُرْوَةً عُرْوَةً، فَأَوَّلُها نَقْضًا الحُكْمُ، وَآخِرُهَا نَقْضًا الصَّلَاةُ»** (١).

فإعادة هذه العُرَى التي نُقِضَت إنما تكون بالمقدور المستطاع ولو كان قليلًا، فإذا كان الإنسان لا يقدر إلا على أن يوجِدَ من نفسه شخصية تترجم معاني الدين ترجمة عملية فعل، وإن استطاع أن يُكَوِّن أسرة بهذا المعنى فعل، وإذا استطاع أن يُوجِدَ من عشيرته وجيرانه ذلك فعل، حتى يكتمل البنيان بإذن الله ﷻ، وحتى يتحقق لنا موعود الله سبحانه وتعالى ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥].

العوامل المؤثرة على دعوة ذوي الرحم وعامة الخلق:

هناك ثلاثة عوامل لابد لمن أراد النجاح في دعوة ذوي الأرحام وعامة الخلق أن يهتم بها:

العامل الأول: عامل الملاحظة لحالك وحال أسرتك:

هل أَوْجَدْتَ صورة مُصَغَّرة للمجتمع الذي تريده أم لا ؟ فإذا نظروا في حالك فوجدوك مستقيمًا على شرع الله ﷻ، وكلما ازداد أحدهم منك قربًا اكتشف معاني جديدة من معاني عبوديتك لربك؛ إذا راقبك حين النداء لا يجدك إلا متوجهًا إلى المسجد أو في المسجد تنتظر الصلاة، إذا حدَّثك لم يسمع منك غيبة أو نميمة، ولو حَرَصَ على أن يُسمعك شيئًا من ذلك مَنَعْتَه، لا يعلم عنك إلا صدق الحديث، والوفاء بالوعد، وأداء الأمانة، وغضَّ البصر، والنصيحة لكل مُسلم، لا يسمع منك كلمة نابية ولا صوتًا منكرًا، تعلوك السكينة والوقار؛

(١) صحيح: أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٢٥١) عن أبي أمامة الباهلي مرفوعًا، وصححه الألباني، انظر [«صحيح الجامع» (٥٠٧٥)].

لا كثير الضحك، ولا كثير الكلام بغير فائدة، ولا مسرفًا، ولا مُقتِّرًا، إذا أراد أن يتعرف على الآداب المشروعة إذا استرق إليك النظر في أي وقت لم يظفر منك بمخالفة؛ لشدة حرصك ومراقبتك لربك، إذا نظر إليك في حال شدتك أو رخائك، في حال صحتك أو مرضك، في حال قوتك أو ضعفك، في حال سعادتك أو حزنك لا يستطيع إلا أن يقول ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٣٦]، فيلقي الله ﷻ في قلبه حبك، وفي الحديث: «**إِنَّ اللَّه تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي أَهْلَ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّه يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ**»[1]، وما يُنتظر من رجل وضِعَ له القبول في الأرض؟! بلا شك نجاح عظيم وتوفيق في الدعوة إلى الله ﷻ.

وكذلك إذا نظر المجتمع إلى أسرتك لم يروا إلا السعادة الغامرة والسرور والطمأنينة التي هي من بركة الالتزام بشرع الله ﷻ، فلا يُسمع للزوجة شكوى، بل هي في غاية السعادة بحياتها هذه، ثم إنها صار سلوكها قدوة تستحق أن يتأسى بها النساء، أما الأولاد فهم كما قدمنا من التربية على الطاعة والأخلاق الحسنة، فالبيت بيت طاعة وراحة وسعادة، ومعلوم أن كل بيت له مشاكله، وكلما بعد البيت عن معاني الشرع كلما ازدادت مشاكله، فينظر هؤلاء إلى بيتك الهادئ المطمئن نظرة إعجاب، والقلوب إنما تحب الأكمل، فيكون هذا من عوامل تعلُّقِ قلوبهم بهذه الصورة التي يتمنى الرجال والنساء أن تكون بيوتهم مثلها، فإذا بحثوا عن سبب ما أنت فيه علموا أن سببه الالتزام بدين الله ﷻ، بلا شك سيدفعهم ذلك إلى التأسي بك.

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٧٤٨٥)، ومسلم (٢٦٣٧) من طريق أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

العامل الثاني: عامل الإحسان إلى الخلق وأثره في دعوتهم إلى الحق:

أخي الكريم.. إذا علمت أن الإيمان وعبادة الله ﷻ لا يقتصر على الصلاة والزكاة والصيام والحج؛ بل إن ديننا دينٌ شامل كامل، فكما أن من الإيمان الصلاة والزكاة والصيام والحج فمِنْـهُ كذلك: بر الوالدين، وصلة الأرحام، وحسن الخُلُق مع الخَلْق، قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤]، وفي الحديث: «**أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا**»(١).

فإذا علِمْتَ ذلك، وحَقَّقْتَ العبودية بمعناها الشامل والتي لا تكون إلا بتقوى الله ﷻ وحسن الخلق، فلم يرَ الوالدان منك إلا غاية البر بهما، والإحسان إليهما، والصبر على خدمتهما والتودد إليهما بكل مستطاع، وكذلك ذوي رحمك، فماذا ينتظر منهم وهم لا يجدون منك إلا الوصال مع قطعهم، والصبر، والرفق، والحلم مع غلظة بعضهم؟ ما ينتظر ممن يعاملك من ذوو رحمك وغيرهم، وأحدهم لا ينظر إليك من جهة من الجهات، ولا في وقت من الأوقات، ولا في حالة من الحالات إلا ويقول: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، يراك مُعَظِّمًا لحرمات المسلمين مشفقًا عليهم، يرى أنه يُهِمُّك ستر عوراتهم، وقضاء حوائجهم، والشفاعة لهم في قضائها، والإصلاح بينهم، يلاحظ ملاطفتك يتيمهم، وضعيفهم، وصغارهم، والمسكين والمنكسر منهم، وتشفق عليه وتتعاطف معه، والجار لا يناله منك إلا الإحسان إليه بل والصبر على أذاه، والكبير لا يناله منك إلا التوقير والاحترام، ومعرفة فضله.

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٦٨٢)، والترمذي (١١٦٢)، وصححه الألباني، انظر [«صحيح الجامع» (١٢٣٠)].

حسن الخلق سجيتك، والتواضع والحلم والأناة والرفق من جميل أخلاقك، العفـو والصفح واحتمال الأذى من أظهر صفاتـك، والإعراض عن الجاهلين مـن أهم مِيزَاتك، إذا لَقِيَك أحد من المسـلمين ولـو كان صغيرًا فبطيب الكلام والسـلام تُحَيِّيه، وبالمصافحة والبشاشـة وطلاقة الوجه تسـتقبله، تفرح لفرحه وتهنئه وتبشـره، تحزن لحزنه وتعزيه وتصبره، وتعوده إذا مرض، وتشـاركه في مصابه وتتألم لألمه.

إذا نزل أحدهم ضيفًا عليك وجد من الإكرام غايته ومن آداب الاسـتضافة مثلًا يحتذى به، إذا عاملك أحدهم في بيع أو شـراء أو إجارة وجدك سـمحًا إذا بعت سـمحًا إذا اشتريت سمحًا إذا اقتضيت، تنظره موسرًا تفضلًا وكرمًا، تعفو عنه معسرًا صدقة وإحسانًا.

إذا عاملك وجد مراعاة الأحاسـيس والمشـاعر، فلا تتناجـى مع ثان دون ثالـث إلا بإذنـه، ولا احتقار ولا افتخار ولا نصيحـة في الملإ، إذا تفكَّر في أمرِك أَيْقَن من خلال جملة أحوالك بسـلامة القلب لجميع المسلمين، تحب لهم ما تحب لنفسـك، لا حسد، ولا تقاطع، ولا تدابر، ولا إساءة ظن، ولا غيبة ولا نميمـة، رحيم إذا عاقبت حتـى بالبهائم، تَكْظِمُ الغيظ وتعفو عن المسـيء، إذا حضـرك في طعام، أو سـفرٍ، أو في مجلس تُعلِّم المسنون مـن الآداب في ذلك، فـلا ينظر إليك في حال من الأحوال أحد إلا قال: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، إذا لحظـك في حال شـدتك أو رخائك، أو صحتك أو مرضك، لم يسـتطعْ إلا أن يقول: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وذلك لأنه لا يرى في ذلك إلا الترجمة العملية لكتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ.

عبدَ الله ! ما الذي ينتظر من شخصٍ رأى منك هذه الصفات والأخلاق ؟ بلا شـك سـيُلْقَى في قلبه حبُّك، وهذا أصل كل خير، حينها لن يسمع فيك

المقولات والاتهامات، حينها لن يسمع قول من يقول: متشـدِّد! فأي تشدد في هذه السماحة وهذا الخلق؟ ولن يسمع من يقول: متزمِّت! فأي تزمُّت في هذه الشيم وهذه الأوصاف! ولن يسـمع من يقول: رجْعِيٌّ متخلف! فأين الرقي إن لـم يكن هذا هو قِمَّتُه! بلا شـك سـيدفعه ذلـك إلى أن يتمنـى أن يكون مثلك، سيقول في نفسه: ما الذي جعله بهذه السماحة وهذا القبول عند الخلق حتى إنه لا يختلف على دَمَاثَة خُلُقِه[1] وجميل صفاته اثنان؟ سـيجد الجواب واضحًا: إنـه الديـن الذي يأتي بكل جميل، ويقـود إلى كل كمال، ثم مـا الذي ينتظر منه بعـد ذلك؟ بلا شـك لا يُنْتَظَرُ منه إلا الاجتهاد في التشـبُّه بـك، والحرص على صحبتك، وسماع نصيحتك ودلالتك له على الحق.

العامل الثالث: القيام بدعوة ذوي الرحم وعامة الخلق إلى الخير والحق:

اعلم أن الدعوة إلى الله ﷻ لها صور كثيرة جدًّا، ويمكن تقسيمها إلى قسمين:

١ - الدعوة العامة. **٢ - التربية الخاصة.**

أولًا: الدعوة العامة:

وهـي القيام بالبيـان العام للشـريعة، وأحكامها، والنصيحـة العامة لعموم النـاس، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ببيان صور المعروف والحضّ عليه، وصور المنكر والزجر عنه.

وهـذا النوع مـن الدعوة هام جدًّا؛ فإنـه لا يزال الناس بخيـر ما دام صوت الدعـاة عاليًا مسـموعًا فيهم، ومـا داموا مُقْبِليـن على دعاتهـم ملتَفِّين حولهم، يصدرون عن فتاواهم وتوجيهاتهم.

ومن صور الدعوة العامة:

الخطبـة، والـدرس، والمحاضرة، وهي من أهم صور الدعـوة العامة التي

---

(١) دماثة الخلق: حسنه ولينه.

ينبغي للدعاة أن يحرصوا عليها ويفعلوا دورها في توجيه المجتمعات.

«ستظل الخطبة والدرس في المسجد يحتلان الموقع الرائد في سلسلة أساليب الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، وسيستمِرُّ تعظيم الناس لهاتين الشعيرتين باعتبارهما مظهرًا تقليديًّا نشأت الأمة جمعاء على التأثر به والتجاوب معه، وما من مجتمع مسلم إلا وينظر إلى هذين الأمرين - الخطبة والدرس - نظرة تختلف عن نظرته لمظاهر الدعوة الأخرى، فأصبحت الخطبة والدرس لذلك أيسر الوسائل، وأكثرها تأثيرًا على شرائح المجتمع المختلفة؛ لذلك ينبغي أن تُسْتَغَلَّ الخطب والدروس أكبر استغلال في الدعوة إلى الله ، فالخطبة ينبغي أن تدور حول أساسيات الدين، وليس المعنى أن تُرَكَّز على أساسيات الدين لا تتزحزح عنها، فقد يحتاج الدعاة إلى التركيز على بعض القضايا المُلِحَّةِ التي ليست من ضروريات الدين، لكنها ذات خطر وشأن في الحالة الراهنة، وكذلك لابد أن تكون الموضوعات المطروحة مناسبة لمستوى الحضور ومناسبة للزمان والمكان، فلا يليق أن يخطب بين الناس في دقائق علم السلوك حال كون جمهور المستمعين ممن لا يصلُّون إلا الجمعة، أو يحدِّثهم عن اللحية والنقاب بينما المسجد الذي يخطب فيه فيه العلمانيون الذين يرون حاكمية الشرع من أصلها محل نظر، وكذا موضوعات المحاضرات يجب أن تلبِّي حاجات المجتمع، وخاصة شبابه الذين هم أكثر رُوَّادِ المساجد هذه الأيام بحمد الله تعالى، فينبغي أن يبحث الداعية عن الموضوعات التي تُهِمُّ الناس ويعدها إعدادًا جيدًا، ويعرضها عرضًا حسنًا»[1].

- منابر الدعوة العامة ليست منحصرة في الخطبة والدرس:

لكن مع أن الخُطبة والدرس لهما هذه المنزلة بين صور الدعوة العامة،

---

(١) باختصار من كتاب «٣٠ طريقة لخدمة الدين» أ/ رضا صمدي، ص (٢١٣)..

إلا أنها لا تَفِي وحدها بمقصود الدعوة العامة؛ وذلك لأنه لا يقوم بها إلا أناس قليلون؛ لأنها تحتاج إلى مهارات خاصة لا تتسنَّى لكثير من العاملين بالدعوة، وكذلك قد يوجد مانع من قيام القادرين عليها بواجبهم؛ ولذلك ينبغي ألَّا يكون نظر الدعاة قاصرًا على الخطبة والدرس حتى لا تتوقف الدعوة إلى الله ﷻ بتوقف الخطبة أو الدرس، وإنما لابد أن يعلم أن آفاق الدعوة إلى الله ﷻ أرحب ومجالاتها أوسع، وهناك منابر دعوية ومجالات رَحْبة لها أثر خطير في توجيه المجتمعات كالمنتديات والنقابات، والمعاهد، والجامعات، والمؤسسات الاجتماعية والخيرية، ودور النشر والمكتبات، والمجالس البلدية، والنقابات العمَّالية، والمؤسسات الإعلامية وغيرها.

يقول الأستاذ فتحي يكن: «قد يظن البعض أن الدعوة لا تتعدَّى خطبة الجمعة، ودروس المسجد، ومحاضرة المنتدى، وما يَتَّصِلُ بذلك من قريب أو بعيد مما أدى ويؤدِّي إلى تغييب الدعوة عن واقع الحياة ومرافقها ومنابرها المختلفة، وجَعْلِها حَبِيسَةَ مساحة ضيقة من الأماكن والمناسبات، إن الدعوة كمنهج رباني لصناعة الحياة يجب أن تأخذ دورها الكامل والفاعل في كل مرافق الحياة؛ لتحقق صياغتها وفق النسيج الإسلامي المُمَيَّز والفريد، فالدعوة ليست دورًا مصطنعًا، أو وظيفة جانبية، أو مهمة مؤقتة هامشية، أو إطلالة مَوْسِمِيَّة، وإنما هي حالة حضور فاعل في كل زمان ومكان، وكل مقام ومقال، وموقع ومجال، وبذلك تتكاثر المنابر الدعوية حتى تغطي مساحة الحياة كلها، فالمساجد والمنتديات والنقابات والمعاهد والجماعات والمؤسسات الاجتماعية والخيرية ودور النشر والمكتبات وبرامج السياحة والمخيمات ومراكز التطبيب النفسي والعُضْوِي والمؤسسات المصرفية الإسلامية والمجالس البلدية والنيابية والنقابات العمالية والمهنية ووزارات

الأوقاف وإدارات الشئون الدينية ودور الفتوى ونوادي الفروسية والرياضة والمؤسسات، الإعلامية إلى ما لا يحصى له عد يعتبر من المواقع التي يمكن أن تسخر كمنابر دعوية هادفة » اهـ مختصرًا.

استغلال الصِّلات الاجتماعية والمناسبات في الدعوة «الدعوة بالمواقف»:

اعلم أخي الحبيب .. أن ما بينك وبين الناس من علاقات وصلات على أقسام: فمنها الواجب والمستحب؛ كصلة الأرحام، وعيادة المريض، وحضور الجنائز وغيرها. ومنها ما هو مباح؛ كالزيارة العادية، وجلسات السمر والصحبة، والصداقة. ومنها ما هو ممنوع؛ كحضور الحفلات التي فيها محرَّمات وغيرها؛ فالأخير امْتَنِعْ عنه، لكن بتلطُّف في الرَّدِّ، وإنكارٍ للمنكر بأجمل أسلوب، وأحسن عبارة.

وأما العلاقات والصلات المباحة والمستحبة والواجبة فأَكْثِرْ منها، وأَكِّدْ عليها واحرْص على زيادتها وتقويتِها، وليكنْ لك نصيب من الأَوْراد الثابتة منها، وليَكُنْ لجميع الجيران والزملاء والأصدقاء وذوي الرحم نصيب مما ذكرنا من العلاقات المشروعة والإحسان، وليكن مرتبًا في ذهنك أنك تريد أن تبُثَّ فيهم من خلال هذه العلاقات معاني الدين خاصة فروض الأعيان منها وهو ما لا تستقيم العقيدة إلا به، ولا تستقيم المعاملة إلا به، ولا تستقيم الآداب والأخلاق والسلوك إلا به.

ترتب في ذهنك هذه المسائل، لكنك تتحَيَّنُ الفرص والمواقف، وتتخوَّلُهم بالتذكير بهذه المعاني؛ فمثلًا وأنت في جِلْسَة سمَرٍ وجاء ذكر الصُّوَرِ فهذه فرصة تذكِّرهم بها بأن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلب أو صورة، ويُمْكِنُك أن تتفرَّع من هذا الكلام إلى الكلام عن الإيمان بالملائكة وآثاره، وأنه ركن من أركان الإيمان الستة، وحبذا لو دلَلْتَهم على كتاب يعالج هذه القضية، أو شريط

يَسْهُل لهم الحصول عليه، وهكذا تتحيَّن الفُرَصَ والمواقف تَبُثُّ فيها المعاني الإيمانية، أو تفتعل أنت المواقف بتلطف وحكمة ورفق.

وتعرض المسألة بأخصر أسلوب، وأسهل عبارة يومًا بعد يوم، ولك همٌّ وهدف وهو إبلاغ هؤلاء الخلق ما يلزمهم من أمور دينهم (١).

وأثناء عيادة المريض تتحدث مثلًا عن أهمية الصلاة وفضلها، وعن الرخص الشرعية للمريض، متى يجوز الأخذ بها، وعن يُسْرِ الدين وسماحة الشرع في ذلك، وإذا حدثت بين يديك خصومة بين اثنين ذكرتهم بما جاء في الشرع من أحكامها.

وإذا كنتَ إمامًا أو خطيبًا تناولت في الخطبة ما يناسب المقام من هذه المعاني؛ فتذكر الناس بالمعاني العامة والأمور الهامَّة التي تقابلهم، وتجعل تذكرة يسيرة بعد الصلاة (صلاة الفجر مثلًا أو العشاء) تَعْرِض فيها ما لا يسع المسلم جهله تباعًا في نقاط محددة بالدليل بأسهل أسلوب وأخصر عبارة؛ فمثلًا تتكلم في يوم في ثلاث نقاط: شروط الوضوء، وفروضه، وسننه، ثم تذكر ذلك بعيدًا عن الخلافيات مع الأدلة، وفي يوم آخر تتحدث عن عبادة المحبة وعن فضلها وعلاماتها وعوامل زيادتها، وهكذا لا تترك فرصة إلا وعلَّمْتهم فيها شيئًا من أمور دينهم مع الاجتهاد والدعاء أن يفتح الله لك قلوبهم. ويومًا بعد يوم تعلِّمُهم شيئًا فشيئًا ومع الاستمرار والمصابرة سيعود إلى الأذهان مرة أخرى وبصورة واضحة هذا المعنى الغائب المفتقد، وهو أنه ما من حركة ولا سكنة ولا قول ولا عمل إلا وللدين فيه حكم عَلِمَه من علمه، وجَهِلَه من جهله، سيَتَّضِح للناس جليًّا أن مقتضى الإسلام هو الاستسلام لله ﷻ بكل شيء،

(١) لن يسهل عليك ذلك ولن تستطيع أن تحسنه إلا إذا كانت هذه المعلومات في ذهنك بصورة واضحة ويسهل عليك أن تستدعي منها ما شئت في أي وقت شئت، وذلك يحتاج إلى إتقان المرحلة الأولى على الأقل من طلب العلم وترتيب العلوم في الذهن ومراجعتها بين الحين والآخر.

وسيفهمون معنى العبادة، وأنها تشمل جميع حياتهم؛ في شدتهم ورخائهم، في فرحهم وحزنهم، في أقوالهم وأفعالهم، في بيعهم وشرائهم، في خصوماتهم وشركاتهم، في جميع أحوالهم يجب أن يبحثوا عن شرع الله ويوافقوه؛ ليكونوا عبادًا لله بحق، سَيُحِسُّون ذلك من كثرة المواقف التي حدَّثْتَهم فيها عن شرع الله، فمرة في مسألة شركة علموا أن فيها أحكامًا للشرع تضبِطُها، ومرة في مسألة بيع زروع أو ثمار علموا أن فيها أحكامًا للشرع، ومرة حدثتهم عن حرمة بيع ما ليس عندك.

وهكذا حتى أحسُّوا بحاجتهم الماسَّة إلى التعرف على ما يجهلونه من أمور دينهم؛ ليحقِّقُوا العبادة بمعناها الصحيح، فإذا حدث ذلك فإنهم سيبادرونك هم بالسؤال عن كل ما يُهِمُّهُم، وسيعلم الكثير منهم أنه لا ينبغي له أن يتحرَّك حركة حتى يسأل عن حكمها، وهذه أول خُطُوات الفلاح والنجاح بإذن الله ﷻ، ستكون المبادرة بعد ذلك منهم، فهذا يسأل عن كتاب يتعلَّم منه عقيدته، وآخر يسأل عن شريط يعالج قضية معينة، وآخر يدعوك لتزوره لمسألة هامة تحتاج إلى مجلس طويل.. وهكذا، ثم إنك وأنت في طريقك هذا ستجد منهم من تشعر فيه بالنجابة والاهتمام والحرص، فهذا تُولِيهِ من اهتمامك أكثر من غيره على قدر حاجته.

المسلم الحق هو الذي يُبيِّنُ يسر الدين وشمول أحكامه في كل وقت وحين:

أخي الحبيب... يقول النبي ﷺ: «**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ**» [1]، فهذا الدين العظيم جميع أحكامه مبناها على التيسير، فليس اليسر في بعض الأحكام دون بعض، بل كل حكم من أحكامه على حِدَةٍ قد شُرِعَ من هذا الباب -باب التيسير- ومجموع أحكامه في الجملة يُسْرٌ، كذلك فهو يُسْرٌ جملة وتفصيلًا، وهو كذلك

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٩) من طريق أبي هريرة ﷺ مرفوعًا.

يُسْرٌ في بيان الأحكام وتفصيلها، وسهولة تعلمها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

وهو كذلك يسر في سهولة العمل بأحكامه وامتثالها، وكذلك أحكامه يسر فيما تؤدي إليه إذا امتثلها الناس، فهو يسر يقود إلى اليسر، فهو يقودُ إلى تيسير حركة الناس في دنياهم وضَبْطِها على أجمل أسلوب وأطيب نظام، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

فالمؤمن هو الذي يتعلم ما استطاع من أمور دينه كما بينا ويعمل به في خاصة نفسه كما ذكرنا، فيُوجِدُ من نفسه مثلًا يُحْتَذَى به يُتَرْجِم هذا الدين ومعانيه العظيمة إلى واقع عملي؛ ليَرى الناس هذه الصورة الجميلة لديننا وأحكامه في أرض الواقع، ويعلموا من خلال سلوك هذا الشخص وسيرته عظمة الدين ويسره في العبادة والمعاملة، وفي البيع والشراء، وفي الأخذ والعطاء، وفي الخصومات والإخاء، وفي الشدة والرخاء، وفي السراء والضراء، وفي جميع مناحي الحياة، وأنه يقود إلى ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾.

ثم هو يُبَيِّنُ للناس ذلك بقوله مع فعله، يبيِّن للناس جميع أحكام الدين فلا يترك فرصة إلا بين فيها حكمًا من أحكامه، وكيف أنه يُسْرٌ، وإن ظن الناس أن فيه مَشَقَّة أو يحتاج إلى بعض الجهد لامتثاله، يبين لهم أن الدين معنى شامل عام، فهو: اسم جامع لكل ما يُحِبُّهُ الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

وكل ذلك يُسْرٌ في جملته وتفاصيله، فالمسلم الحق هو الذي يبيِّن هذه الحقيقة، ويُوَضِّحها لا يترك فرصة، ولا وقتًا، ولا حالًا إلا بيَّنَ شيئًا من ذلك بعمله وبقوله، فليس بيان يسر الدين وجمال أحكامه وشمولها منحصر في

الموعظة خطبة كانت أو درسًا أو نحو ذلك، لا؛ بل ينبغي للمسلم أن لا يترك فرصة إلا اغتنمها بأجمل أسلوب، وألطف عبارة، وله في رسول الله ﷺ أسوة حسنة فإن معظم معاني الدين وأحكامه التي علمها النبي ﷺ لأصحابه لم تكن في خطبة ولا درس، فالمسلم الحق هو الذي يتأسَّى بحبيبه ﷺ في ذلك، فيُبَيِّن للناس تفاصيل هذا الدين ويسر أحكامه في كل وقت وحين، فهذا هو المسلم الذي ينبغي أن تُوجِدَه من نفسك أخي الكريم.

المسلم الذي يُعَلِّمُ الناس كل أحكام الدين لكن ببساطة ويسر، ودون تعقيدات، فديننا ليس طلاسم يعجز العقل عن فهمها، ولا تراجم يصعب على الإنسان البسيط إدراك المراد منها، لا، ليس الأمر كذلك، بل ديننا دين يسر في تعلم أحكامه، يسر في طريقة امتثالها؛ يسر فيما يؤدي إليه امتثالها ولذلك ينبغي عليك ـ أخي الحبيب ـ أن تُوجِدَ من نفسك هذا المسلم الذي يترجم للناس حقيقة هذا الشرع الحنيف في كل وقت وحين.

يقول صاحب كتاب« ٣٠ طريقة لخدمة الدين» واصفًا هذا المسلم الذي ينبغي أن تحرص على إيجاده من نفسك، ومن غيرك:«إنه المسلم الذي يتحرَّك بدينه في كل صَوْبٍ، المتقن لدعوته في كل ثوب، إن كان في بيته فنعم العائل والمربِّي، وإن نزل إلى الشارع وخالط الناس وَسِعَهم بدعوته، مقدِّمًا بين ذلك سماحة خُلُقِه، وإحسانه بكل صورة ووسيلة، مُظْهِرًا حسن تعاليم هذا الدين، وجمال أحكامه بالعمل قبل القول، وإن ركب وسيلة مواصلات فما أندى، وما أجمل مجالسته! فتتناثر بركات دعوته على من حوله من الرَّكْبِ، وإذا دخل هيئة أو مصلحة أو متجرًا لم يخرج إلا وقد أَسَرَ القلوب، وأثَّر فيها، وأضاف إليهم شيئًا من أمور دينهم لم يكونوا يعلمون حكمه، وأصلح من شأنهم شيئًا كانوا لجهلهم بحكم الشرع فيه يخالفونه.

إنه المسلم المبارك ذو القلب العامر، والعقل المثابر، والعزم المغامر، التقي النقي الخفي الأبيُّ، ذو النفع المتعدي والخير العام، إذا حل بقوم شَمِلَهم بعطفه وجميل إحسانه، وأخذ بعقولهم وقلوبهم جميل قوله وحسن بيانه، بمجرد أن يروه أو يعاملوه أدنى معاملة يشعرون بقلبٍ مليء بالشفقة عليهم والحب لهم يحب لهم الخير، ويُعِينُهم عليه، يعفو ويصفح، ويتجاوز ويغفر، ويحب لهم سعادة الدارين؛ لذلك فهو يُحَدِّثُهم ويَعِظُهم ويُبَيِّن لهم المعروف وصوره ويُقَبِّحُ لهم المنكر بجميع صوره، ويعرف كيف يَنْفُذُ إلى قلوبهم، فيقبلون منه ذلك بقلوب مِلْؤُها الحب؛ لمعرفتهم الغاية من ذلك وهو أنه يحبهم؛ ولذلك يحب لهم ما يحب لنفسه.

إنه المسلم صاحب اللسان العَذْبِ الذي إن قال أسمع وإذا حاور أقنع، عَذْبٌ قوله، وجميل بيانه، ينحدر إلى القلوب فيذهب بكل سدٍّ منيع من شبهات أهل الشُبَهِ، واعتراضات المعترضين؛ وذلك لسعة علمه واطلاعه.

إنه المخلص في كل عمل مما ذكرنا من الأعمال يمحص النية قبل العمل، ولا يترك العمل لدينه بزعم العجز أو خوف الرياء.

لا يبخل على دينه بأي مجهود أو طاقة فأصل عمره وقَفَهُ لله ﷻ.

هِنْدَامُه محترم، مُنَظَّمُ الخطوات، متعال عن السفاسف(١)، لا يسْتَنْكف(٢) عن فعل الخير ولو استهجنه الناس.

سيل إحسانه إلى الخلق يُغْدِق عليهم، فيذهب بكل شُبْهَة يسمعونها عنه، أو يوسوس لهم الشيطان بها، فلا يكون منهم إلا حُبه والالتفاف حوله.

هو يتحرَّك بدينه ولدينه في كل مكان، سواء كان مدرسًا أو طالبًا، مهندسًا أو طبيبًا، عالمًا أو متعلمًا، سائقًا أو راكبًا، حالًا أو مرتحلًا، آمرًا أو مأمورًا،

(١) السفاسف: الأمور التافهة.
(٢) لا يستنكف: لا يستكبر.

رئيسًا أو مرؤوسًا، فقيرًا أو غنيًا، صحيحًا كان أو سقيمًا، مبصرًا كان أو أعمى، سليم الأعضاء أو معوقًا، في الشارع أو في البيت، في الجامعة أو في المدرسة، في الدكان أو في الحافلة، أو في الشارع أو في مصلحة حكومية، بلسانه ويده ونفسه وماله، بكله يتحرَّك للدين، لسان حاله ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣]، شعاره ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[يوسف: ١٠٨].

متحرِّك في كل الجهات مشارك في كل المجالات، يترقَّب الفرص، لا يترك فرصة إلا اغتنمها لبيان جمال هذا الدين وحقيقة أحكامه، مستعد لمهمته الكبرى في كل وقت وحين، فحقيبَتُه مليئة بالحلوى والكُتَيِّبات والهدايا الجميلة، يصطحب معه في سَيْرِه أشرطة الوعظ والقرآن؛ لتكون بديلًا عن أشرطة الأغاني وغيرها، يعتمد على كل الإمكانيَّات المتاحة، ويستعمل الظروف لصالحه، لا يلعن الظلام لكن يشارك في إيقاد شمعة، إذا قَصَّرَتْ به وسيلة نزل إلى التي دونها، حتى لو لم يجد إلا لسانه أو الإشارة باليد لاستعملها متوكلًا على الله الهادي إلى الصراط المستقيم، إنه يتجاوب مع المشكلات التي تُهَدِّدُ مجتمعه المسلم، قد أَرَّقَه حال الإسلام والمسلمين فلا يألو جُهدًا في العمل على الخروج بأمته مما حل بها.

ليس مقصوده أن يكون الناس جميعًا علماء ودعاة، وإن كان يتمنى حصول ذلك، بل يتفانى في فعل كل مُسْتَطاع للتحرُّك بهم إلى الأمام في طريق العبودية؛ ليَكْثُرَ الخير ويقِلَّ الخبث» (١)؛

أخي الحبيب .. كن هذا المسلم، المسلم الذي يجمع بين العلم والعمل،

---

(١) «٣٠ طريقة لخدمة الدين» بتصرف.

والمهـارة في البيـان، فهـو قد تعلم مـا يلزمه من أمـور دينه من أحـكام العقيدة والعبـادة والأخلاق والآداب، وطالع سِـيَرَ السـابقين والصالحين وتاريخ هذه الأمة فاكتسـب الخبرات العلمية، وبالعمل الدءوب، والتناصح والتشـاور مع غيره اكتسب المهارات العملية حتى استطاع أن يستخدم كل لحظة من لحظاته في إظهار جمال تعاليم دينه، وشمول أحكامه لكل صغيرة وكبيرة في حياته وحياة الناس؛ ليُحْيِيَ في القلوب مرة أخرى هذا الإحساس وهذه العقيدة التي شُوِّهَتْ وشُوِّشَـتْ على كثير من الناس؛ وهي أن كل لحظة من لحظات المسـلم، وكل عمل من أعماله، وكل نفس من أنفاسـه، وكل قول من أقواله؛ في بيع أو شـراء، في أخذ أو عطاء، في حزن أو فرح، في صحة أو مرض، في شدة أو رخاء، في سلم أو حـرب، في خصومـة أو مودة، في زواج أو طلاق، في طعام أو شـراب، في كل صغيرة أو كبيرة من ذلك كله حكم لشرع الله من وافقه نال سعادة الدارين، ومن خالفه شقي في الدارين.

هـذا المعنى الهام غاب عن كثير من الناس إلا من رحم الله ﷻ، وما حدث لأمتنا من ذل وهوان وهزيمة وانكسـار إنما هو بسـبب غياب هذا المعنى حتى أصبـح الناس لجهلهم بحقيقة هـذا الدين، وأنه لم يترك لهم حركة إلا وشـرع لهـم فيها تشـريعًا وأمرهـم فيها بأمر أو نهى فيها عن شـيء، وأنـه يجب عليهم ألّا يتحركـوا حركة إلا بإذن من الشـرع فإن أذن فيها فعلـوا؛ وكانوا بذلك عبادًا لله، وإن لـم يأذن توقَّفوا وامتنعوا؛ وكانوا بذلك عبادًا لله، لجهلهم بهذه الحقيقة أصبـح معنى الديـن عندهم منحصرًا في بعض شـعائره فغيَّبُوه عن واقع حياتهم حتى أصبحوا لا يفرِّقون بين من يقودهم إلى عبادة ربِّهم وسعادة الدارين، وبين من يقودُهم إلى عبادة الدنيا وتعاسـة الدارين، وحتى أصبحوا لجهلهم بحقيقة هذا الدين وتفاصيل أحكامه يقولون عن التزامها أو بعضها تشدُّدًا أو تزمُّتًا وغير

ذلك من التُّهَمِ، بل ويناصِبُ بعضُهم الملتزم العداء لمجرد التزامه.

فالإنسان بطبيعته عدو ما يجهل، فإذا سلَكَ المسلم هذا السلوك الذي ذكرناه في بيان حقيقة هذا الدين ويسره وجمال أحكامه وشمولها لجميع مناحي الحياة، وبيَّن ذلك بقوله وفعله مع التلطف بالناس والصبر عليهم والمصابرة معهم وإزالة الحواجز بينه وبينهم، والإحسان بكل صورة إليهم، إذا فعل ذلك فستزول -بإذن الله- هذه الغشاوةُ شيئًا فشيئًا، وسيفتح الله ﷻ مرة أخرى قلوب العباد حتى يروا الأمور على حقيقتها، ويعودوا مرة أخرى إلى الالتزام بدين الله ﷻ في ظاهرهم وباطنهم وفي كل أحوالهم؛ فيكونوا جديرين بالتمكين الذي وعد الله ﷻ به المؤمنين ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ﴾ [النور: ٥٥].

ثانيًا: التربية والتعليم:

إنَّ ما تقدَّم هو من صور الدعوة العامة التي تُعنَى بالبيان العام، والبلاغ العام، والنصيحة العامة التي يتوجه بها أهل الدعوة إلى الله ﷻ إلى عموم الخلق، وأَخَصُّ من الدعوة العامة «التعليمُ الخاصُّ»، وأَخَصُّ من التعليم الخاص «التربيةُ».

والدعوة الناجحة هي التي لا تغفل شيئًا من هذه الصُّوَر الدعوية والتربوية، بل يبذل أبناؤها والقائمون عليها ما استطاعوا من جهد، ووقت، ومال في كل صورة من هذه الصور الدعوية والتربوية، ويقومون بها على أكمل وجه؛ ليَحْدُث التكامل الدعوي العلمي التربوي.

وقد تقدم الكلام على أهمية التعليم والتعلم عند الكلام على كيفية تحقيق الدعوة لأهدافها، **وهنا نذكر بعض الصور المُتاحة للتعليم والتعلم وكيفية**

الاستفادة منها.

- **فمن هذه الصور**: المعاهد العلمية، والمدارس الشرعية، بل ودور الحضانة والكتاتيب والحلقات العلمية، وهذه الصور قد تتاح في أماكن وأوقات دون غيرها، لكن لابد من القيام بالمستطاع منها والاجتهاد في إيجاد البدائل التي تؤدي الغرض المقصود من الصور المعجوز عنها.

ولكي تؤتي هذه الصور من التعليم ثمرتها المرجوّة منها فلا بدّ من التأكيد على ما يأتي:

١- الشمولية:

بحيث يعمل القائمون عليها على تعليم الأفراد كافة فروع العلم: من قرآن، وحديث، وعقيدة، وفقه، وأخلاق، وآداب، وسيرة، وتراجم، وتفسير، ولغة، وأصول، ومصطلح، وعلوم قرآن، ومن الشمول أن تتضمَّن هذه المناهج فقه النوازل والواقع، والقضايا الهامة المعاصرة.

٢- التدرُّج:

وذلك بتقسيم التعليم إلى مراحل، تبدأ بالمختصرات، ثم تتوسع شيئًا فشيئًا.

٣- المناسبة:

بحيث تُعَدُّ البرامج المناسبة لكل فئة من فئات المجتمع « الكُتَّاب - الابتدائي - الإعدادي - الثانوي - الجامعة - الخريجين - النساء »، مع تيسير طرق الوصول إلى هذه الفئات بما يناسبها من دروس في المساجد، أو حتى برامج مسجلة كمجموعات علمية عن طريق الكمبيوتر أو غيره أو عن طريق الفضائيات أو غيرها من وسائل الإعلام.

٤- الدروس المتخصصة:

مـن صور التعليم المُتاحة: الدروس المتخصِّصة في فن من الفنون، أو علم من العلوم، فهناك من أهل العلم من بَرَز في علم الأصول مثلًا، ويعقد الدروس والحلقات لتدريسه، وهناك من تخصَّص في علم التفسير، وهناك من تخصص في علـم الفقـه، والصحـوة المباركة في حاجـة إلى المتخصصيـن في كل فن من فنـون العلم، وفي كل فرع من فروعه، فإن من تخصَّص في علم وأتقنه تمكن من اسـتخراج دُرَرِه وخبايـاه؛ لتنتفع بها الصحوة، وتكون عامـلًا لازدهار الدعوة، وكذلـك فـإن التخصص في العلم يحفظه من الاندثـار أو التهميش، وأيضًا فإن المتخصصيـن في فن ما يسـتطيعون أن يدفعوا شـبهات أهل الشُّـبَهِ وتشـكيك المُبْطلين المتعلقة بالعلم الذي تخصصوا فيه.

إلا أن شـباب الصحوة لا بدَّ أن يراعوا الأولوِيَّـات في طلب العلم والتدرج فيـه، ولابـد أن يحضَّهـم أهل العلم على ذلـك، فلا يتخصص قبـل أن يُحَصِّلَ فـرض العيـن من العلوم الشـرعية الـذي به تصـح عقيدته وعبادتـه ومعاملاته وأخلاقه وسـلوكه، وكذلـك لابد أن يُحَصِّلَ من فروض الكفاية قدرًا يسـتطيع بـه أن يواجه الناس، ويدعوهم، ويجيب على استفسـاراتهم وتسـاؤلاتهم؛ لأن العامل في حقل الدعوة لابد أن يسأله الناس ويستفتونه، فإن أجاب السائل بغير علـم أضلـه، وإن تركه بغير فتوى ضيَّع فرصة دعوية، وقَصَّرَ في أمر بمعروف أو نهـي عن منكـر، ثم إن هذا الامتناع عـن الفتوى يؤدي إلى فقـدان الثقة في أهل السـنة، وأيضًا فإن هذا المسـتفتي إن لم يجد الجواب عند أهل السـنة سيسـأل أقرب من يفتيه ممن يتجرَّأ على الفتيا وما أكثرهم، وقد يفتيه بما يخالف شـرع الله ﷻ ومعلوم أن الدعوة إلى الله ﷻ فرض كفاية تتعين على القادر إن لم يَقُمْ بها غيره، فإن لـم يكن قادرًا الآن، لكنه يقدر على تحصيل أسباب القدرة وجب عليه تحصيلُ تلك الأسـباب، فيجب عليه أن يُحَصِّلَ من العلوم الشـرعية ما به

يستطيع أن يقوم بدوره في توجيه المجتمع إلى مرضاة الرب ﷻ.

لذلك نقول: إن التخصص العلمي مطلب دعوي هام، لكن قبل أن يتخصص ينبغي أن يُحَصِّلَ من العلوم الشرعية الأخرى ما به يدفع الجهل عن نفسه، وكذلك عن الناس من حوله إن لم يُوجَدْ في مَحِلَّتِه من يقوم بذلك، فإن وُجِدَ من يقوم بهذا الغرض الكفائي فإنه يمكن أن يتخصص في علم من العلوم، لكن بعد تحصيل ما تستقيم به عقيدته وعبادته وأخلاقه من العلوم العينية.

٥- تفعيل دور المسجد في التربية والتعليم:

إن المسجد له دور خطير في عملية التربية والتعليم، فالمسجد عماد المجتمع المسلم منذ عهد النبي ﷺ، ويشير إلى هذا المعنى ابتداء النبي ﷺ ببناء المسجد كأول مشروع عند هجرته إلى المدينة، وظل المسجد يحتَلُّ مكانته في كل العصور الإسلامية حتى في عصور الضعف والهزيمة كان المسجد هو ملتقى المسلمين، ومحل ندواتهم واجتماعاتهم ودروسهم، فيجب أن يفعل دوره مرة أخرى بكل وسيلة مستطاعة؛ ليتبوَّأ مكانته الدعوية، وتهوي الأفئدة إليه، ويلتف الناس حول أهله والقائمين عليه.

- ومن الأمور الهامة التي يمكن أن تُسْهِمَ إسهامًا كبيرًا في تفعيل دور المسجد:

١) إعداد المسجد ومرافقه إعدادًا جيدًا.

٢) دعوة الناس إلى المسجد، وترغيبهم فيه بكل الصور والأساليب المتاحة.

٣) إعداد برامج وأنشطة متنوعة تجذب انتباه رواده وتعلقهم به:

فمن ذلك: الخطب، والمحاضرات، والدروس المتنوعة في الموضوعات الهامة والقضايا المُلِحَّة.

ومن ذلك: الحلقات العلمية المناسبة لكل المستويات.

ومن ذلك: حلقات تحفيظ القرآن والكتاتيب.

ومن **ذلك**: المَبِيتَات والاعتكافات.

ومن **ذلك**: المسابقات.

ومن **ذلك**: الأنشـطة التي تنطلق من المسجد، كالرحلات، ورعاية الأيتام، حتى يُحِسَّ الجميع بحاجتهم إلى المسجد وارتباطهم به.

❊ ❊ ❊

فصل في بناء الرجال

اعلم أن الأمة في حاجة ماسَّة إلى نوعين من الدعوة: الدعوة العامة التي ذكرنا بعض صورها، والتي تُعنَى بنشر الخير وتكثيره قدر المستطاع عن طريق تعليم الناس معاني الإيمان والعبودية لله رب العالمين، ودعوتهم إليها، والنصيحة العامة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والانتشار بين الناس هنا وهناك لبيان شرائع الدين وأحكامه؛ ليكثر الخير ويظهر المعروف ويقل الخَبَثُ قدر الطاقة، وهذا مما يُستَدفع به العذاب العام والنِّقَمُ التي يهلك فيها الصالحون مع المفسدين، ففي الحديث: أَنهْلكُ وفينا الصالحون ؟ قال: «نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ»(١).

فالدعوة العامة لها دور كبير في تقليل الشر وتكثير الخير؛ لذلك ينبغي أن يُوليهَا المعنيُّون بالدعوة جانبًا كبيرًا من اهتماماتهم وأن يستوعبوا جميع المستطاع من صُوَرِها وأشكالها، فإن صُوَرَها وأشكالها ومجالاتها كثيرة جدًّا، وقل أن يعدم محب للخير والدعوة صورة من صورها أو شكلًا من أشكالها.

لكن مع أهمية الدعوة العامة وعظيم أثرها فإنها وحدها لا تكفي للوصول إلى الهدف المنشود من إعزاز الأمة، ورفع راية الدين واستمرارها عالية خفاقة جيلًا بعد جيل، فلا يكفي الدعاة والعاملين في هذه الصحوة المباركة أن ينشغلوا فقط بالدعوة العامة إلى الالتزام العام دون أن يبذلوا جهدًا ووقتًا مضاعفًا في بناء الرجال، وفي إيجاد أفراد لهم مواصفات خاصة تُمَكِّنُهم من حمل الراية بحقها مع الدعاة المعاصرين، والقيام بها حق القيام من بعدهم، وهذه هي:

التربية الخاصة والدعوة الخاصة: فلا بدَّ لكل داعية مُخْلِص أن يكون من

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٣٤٦، ٧٠٥٩)، ومسلم (٢٨٨٠) من حديث زينب بنت جحش رضي الله عنها.

أكبر اهتماماته الدعوية أن يُوجِدَ لهذه الأمة من يحمل الراية من بعده مثله أو أقدر منه على حملها؛ فإن الأمة مع وجود هذا الجيل المعاصر من الدعاة - نسأل الله أن يبارك فيهم وفي سعيهم، وينفع بهم - مع وجودهم واجتهادهم، مع ذلك فإن الأمة بها ما بها من الضعف والتأخر، وهذا يعني أنه لابد من إيجاد جيل أقوى وأقدر على حمل الراية، والجيل التالي بدوره يعمل على إيجاد جيل أقوى وأقدر حتى يتَسَنَّى لهذه الأمة أن تنهض من رقدتها، وأن تتبوَّأ مكانتها بين الأمم، نسأل الله عز وجل أن يعجل بهذا وأن يُقِرَّ أعيننا به، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥].

فلابد لكل داعية مخلص مُحِبٍّ لدينه ولإعزاز أمته أن يُفَتِّش فيمن حوله بكل ما أوتي من قوة وبصيرة عن هذا الفرد الذي يصلح لحمل الراية معه ومن بعده، فيقوم بتربيته وتنمية قدراته، ويعطيه كل ما عنده من علم وخبرة، ويستكمل فيه ما لم يستطع أن يُوجِدَه من نفسه، ويُهيِّئ له من الظروف ما لم ينله هو في بداية نشأته حتى يُوجِدَ للأمة رجلًا يحمل الراية عَقِبَه، ويأخذ الدين بقوة.

التعليم العام والتربية الخاصة: هناك فرق بين التعليم العام والتربية الخاصة:

ففي التعليم العام:

يُلقي المعلم على الأسماع ما لديه من علوم سواء كان المتعلم في حاجة إليها الآن أم لا، وسواء كانت تناسب مرحلته العلمية والسنية والذهنية أم لا، وكذلك لا يتابع متابعة جيدة مدى استيعاب المتعلمين لهذه المادة، وكذلك لا

يتابع متابعة جيدة هل امتثل ما تعلمه من أمور الدين وحولها إلى واقع عملي أم لا، وإنما يقوم المعلم بإلقاء ما يُحْسِنُه من علوم على المتعلمين بصورة عامة، ومن فَهِمَهَا وامتثل ما فيها فهذا باجتهاد من نفسه، ومن لم يفعل فلا شيء عليه من جهة شيخه.

أما التربية فهي:

١- تلقين المتربِّي ما يلزمه من علوم؛ ليعمل بها، ويتعوَّد امتثالها بتدرج وترقٍّ على حسب حاجته وحاله وقدراته وسنه.

٢- الاطمئنان على فهمه الصحيح لهذه العلوم.

٣- متابعة امتثال المتربي وعمله بما تعلمه.

٤- إعانة المتربي على الفهم والامتثال بتسهيل السبل الميسرة لذلك، وتذليل العقبات التي تحول بينه وبين الفهم والامتثال.

٥- محاسبة المتربي ومعاتبته أو معاقبته أو إثابته على حسب امتثاله واستمراره فيما يلزمه.

وفي الجملة: التربية هنا هي العمل على إيجاد شخصية على علم بما يلزم من أمور الدين، شخصية تترجم كل معاني الدين ترجمة عملية، وتحوِّله إلى واقع عملي يتحرك بين الناس، وتحسن أن تدعو الناس إليه، وتحمل الراية عالية خفاقة حتى تُسلِّمها لمن بعدها.

كيف تختار الشخصية المطلوبة؟

أثناء تحرك الداعية بدينه ولدينه بين الناس كما قدمنا، فإنه سيجد من بين من يلقاهم ويتعامل معهم ويدعوهم مَنْ إذا عَلِمَ حكمًا امتثله، وإذا عَلِمَ بابًا من أبواب الخير وَلَجَه [1]، فهو في تقدم ملحوظ يجتهد في التعرُّف على أمور دينه.

---

(١) ولجه: دخله.

فهـؤلاء يُولِيهِـم الداعية اهتمامًا خاصًا بكثرة مُجَالسـتهم ودعوتهم لزيارته وقيامـه هـو بزيارتهم، والحرص علـى أن يراهم في المسـجد في الصف الأول، ويحُثُّهم على حفظ القرآن، وقراءة الكتب السـهلة التي تحضُّ على الاسـتقامة وتحقيـق عبوديـة القلب والجـوارح، كالقـراءة في كتاب «ريـاض الصالحين»، وكتاب «إلـى الهـدى ائتنا» للشـيخ محمـد يعقـوب، وكتاب «تزكيـة النفوس» للشـيخ أحمد فريد، ورسـائل الشـيخ سـيد حسـين العفاني في أعمال القلوب، وكتاب «البحر الرائق» للشـيخ أحمد فريد، وكذلك سماع الأشرطة التي تعالج مثـل هذه القضايا، ثم يتابع أثر ذلك على أعمالهم وأحوالهم؛ **ليختار من بينهم هذه الشـخصية التي نبحث عنها والتي تتوفر فيهـا عدة صفات يحرص الداعي على التأكد من وجودها في تلك الشخصية.**

وهذه الصفات هي:

١- التجـرُّد: بحيث لا يظهر عليه بصورة واضحة علامات حب الظهور أو الرياء، وبلا شـك لا ينجو أحدٌ إلا من رحم الله من شـيء من ذلك، لكن الناس متفاوتون فيه، فلا ينبغي أن يكون هذا الشخص ممن ظهر عليه ذلك بوضوح.

٢- العبودية وتعظيم شـعائر الله وحرماته: بأن يكون ممن يجتهد في امتثال ما يعلَمُه من أمور الدين من فعل ما أُمر به واجتناب ما نهي عنه، وإن زلَّت قدمه فخالف مرة فإنه يشق عليه ذلك ويأسف ويتألم فلا يكون مستهينًا بأوامر الشرع ونواهيـه، بل يعظِّم شـعائر الله وحرماته، وهذا إنما يُعْلَـم بالمتابعة لفترة طويلة كافية للتعرّف على هذا الأمر عن قرب.

٣- حسـن الخُلُق واسـتقامة المعاملة مع الخَلْق: فلا يظهـر عليه من خلل واضح أو شـذوذ في شيء من ذلك، فلا تظهر عليه مثلًا حِدَّة الطباع التي تجعله يظلم ويُؤْذِي عند الغضب، وكذلك لا يشتهر عنه الكذب أو أكل حقوق الناس

أو عقوق الوالدين، وإن كان لا يخلو أحد من شيء من ذلك إلا من رحم الله، ولكن كما قلنا لا يكون بصورة فَجَّة بحيث يصعب علاجها، أو يحتاج علاجها لوقت وجهد كثير يشغل عن استكمال الجوانب الأخرى للشخصية المطلوبة.

٤- **الهمُّ**: وهو أن يكون ممن يحمل الهم إذا حُمِّلَهُ، فهناك أقوام عندهم لا مبالاة، لا تتحرَّك قلوبهم بالحركة المطلوبة إذا علموا مآسي الأمة، وظهور المنكر، وانطماس المعروف، بل همهم محصور في شهوة أو دنيا أو حتى شيء من معاني الدين، لكن هَمُّهم به ضعيف أو محدود، أما الشخص المطلوب فهو من إذا حُمِّلَ همًّا حَمَلَهُ فهو يحمل همَّ أسرته، وهم عشيرته، وهم أمته، وهم دينه ودعوته، يشغله ذلك ويُؤَرِّقه ويعمل قدر طاقته ما يلزمه تجاه هؤلاء جميعًا.

٥- **الهِمَّة**: فهناك من الناس من همته وعزيمته وَمَضَات تَتَّقِدُ تارة وتخبو تارة، فيقول: أنا أريد أن أتعلم، وأريد كذا وأريد كذا، ويبدأ بالفعل، لكنه لا يلبث أن يعود إلى فتوره وكسله مرة أخرى وهكذا.

٦- **الانتظام**: الحفاظ على المواعيد، وعدم خلف الوعد، وإن كان في ذلك مشقَّة.

٧- **الفهم**: فلا يكون ضعيف الفهم أو غبيًا، ولكن يكون على الأقل متوسط الفهم.

٨- **السمت**: بأن يكون ذا سمت متزن، وذا وقار وسكينة، ولا يكون ثرثارًا ولا كثير التهريج.

الأمور المطلوب تحقيقها في هذه الشخصية:

إذا وُجِدَتْ هذه الشخصية بالسِّمات التي قدَّمنا فاعلم أن المراد تربيتها

والاعتناء بها؛ لتحقيق أكبر قدر ممكن من هذه الجوانب الخمس:

١- العلم بالدين:

فينبغي أن يحرِص المربِّي على أن يُتِمَّ له ما لا يسعه جهله من العلوم، وهو ما لا تستقيم العقيدة إلا به، ولا تستقيم العبادة إلا به ولا تستقيم المعاملات إلا بـه، ولا تستقيم الأخلاق والآداب إلا بـه، وكذلك ينبغـي أن يُحَصِّلَ قدرًا كبيـرًا من فروض الكفايات من فروع العلوم المخدومة والعلوم الخادمة كعلم الأصول، والمصطلح، واللغة، والسـير، والتراجم والتاريـخ وغيرها، وقد بينا مراحل الطلب عند الكلام على تربية النفس بطلب العلم.

٢- العمل بالدين:

فيعمل على تربيته على أخذ الدين بقوة فيتم الفرائض فعلًا للواجبات وتركًا للمحرمات، ويُتْبِعُ الفرائض بالنوافل، والتدرج في سُلَّم العبودية كما بَيَّنَّا في باب تربية النفس، وكذلك يعمل على تقوية وتوثيق الرباط بين العلم والعمل.

٣- قوة وضوح الفكرة:

وتكون بأمرين:

أ- الفهـم الواضـح للقضايا الهامـة التي تُمَيِّزُ أهل السـنة، وأقـرب الناس إلـى الحق عن غيرهـم، كقضايا الإيمـان والكفر، والعذر بالجهل، والأسـماء والصفـات، والقضايا المتعلقة بتوحيد الربوبية وصور المخالفة فيها، والقضايا المتعلقة بتوحيد الألوهية وصور المخالفة فيها، والعقيدة في الصحابة، والإيمان بالقـدر والاتبـاع ومناهج الاسـتدلال وضوابـط الأمر بالمعـروف والنهي عن المنكـر، والجهاد، وضوابـط الخلاف، ومعرفة المناهـج الدعوية المطروحة، وما يوافَق عليه وما لا يوافَق، وما يسوغ فيه الخلاف وما لا يسوغ من ذلك كله، وضوابط التعاون على البر والتقوى.

ب- **الفهم الواضح لطبيعة الطريق**، وحال الأمة في الماضي والحاضر، ووضوح الهدف، ومعرفة الأعداء، وطبيعة عداوتهم ومُخَطَّطاتهم.

٤- **العمل للدين:**

ويلزم له عدّة أمور:

١- **معرفة فَرْضِيَّةِ العمل للدين على كل مسلم**، وأنه مسئولية الجميع.

٢- **معرفة صُوَر العمل للدين**، وأنه لا يقتصر على صورة بعينها، بل صوره كثيرة، ومجالاته واسعة فيقوم بالمستطاع، ويعمل على تحصيل القدرة اللازمة لغير المستطاع وهكذا.

٣- **معرفة الأولويات في العمل للدين**، فيبدأ بالأهمّ فالمُهم مع ضبط المصالح والمفاسد ومراعاة القدرة والعجز.

٥- **قوة روح التعاون:**

وذلك بغرس معاني الأخوة الإيمانية في قلب المتربِّي، وتعويده بذل حقوق الأخوة للمسلمين عامة وللعاملين في الدعوة إلى الله خاصة، وكذلك يبين له بالبيان النظري والعملي أنه لا تبلغ الدعوة أهدافها المنشودة، ولا يمكنها القيام بواجباتها المنوطة (١) بها إلا بالتعاون، قال تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ [المائدة: ٢]، وهناك أنواع من البر لا يقوم بها الأفراد المتفرقون وإنما يتمكنون من القيام بها إذا تعاونوا وائتلفوا.

الطريقة العملية لتربية الفرد؛ لتحقيق النضوج المطلوب فيما ذكرنا من جوانب:

إذا تم اختيار الشخص المطلوب؛ فإن تربيته ومتابعته لتنمية هذه الجوانب الخمسة« العلم بالدين - العمل بالدين - العمل للدين - وضوح الفكرة - قوة روح

---

(١) المنوطة: المتعلقة.

التعاون» تكون على مراحل:

المرحلة الأولى:

١- **الهدف الأكبر المطلوب تحقيقه في هذه المرحلة هو**: محاولة إيجاد الرباط الوثيق بين العلم والعمل، ومحاولة إيجاد نواة لهذه الشخصية التي تأخذ الدين علمًا وعملًا؛ لتحقق قول الله تعالى: ﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ ﴾ [البقرة: ٦٣].

فلا يتعلَّم شيئًا من الدين إلا صيَّره واقعًا عمليًا، ومن ثَمَّ فهذه المرحلة تبدأ بمدخل يتميز بسهولة المنهج العلمي الذي يتلقاه المتربي ويسره، وذلك يتمثل في: **قِلَّة مادته**، وسهولة استيعابه لها مع مراعاة شمولها لما لا يسع المسلم جهله من العقيدة والعبادة، والأخلاق، والآداب، والسلوك، وشيء من التفسير، ونبذة من سيرة النبي ﷺ، **وذلك** بصورة مختصرة سهلة، لكن العمل المترتب على ذلك كثير يحتاج إلى جهد ومتابعة وترويض، ثم يلي هذا المدخل المرحلة نفسها.

أولًا: المدخل إلى المرحلة الأولى:

وهو عبارة عن دراسة الكتب الآتية:

أ- «**الأربعون النووية**» للإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وشرحه للشيخ العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ب- «**شرح أركان الإيمان والإسلام**» للشيخ محمد جميل زينو.

ج- «**حياة محمد** ﷺ» لأبي عمار محمود المصري.

د- جزء عم حفظ وتفسير من «**أيسر التفاسير**» للجزائري، أو تفسير السعدي.

وهذا المستوى يناسب من هم دون السابعة عشرة من عمرهم والذين لم يسبق لهم دراسة شيء من العلوم الشرعية، أو من هو أكبر منهم سنًا لكنه قريب منهم حالًا وذهنًا، والمربِّي له في ذلك نظرة وتقدير لحال المتربِّي، فإذا

كان المتربي قد سبق له قراءات ومدارسات في العلوم الشرعية دخل مباشرة إلى المرحلة الأولى فيدرس فيها المنهج المقترح لها، وقد سبق بيانه في فصل تربية النفس بطلب العلم[(١)].

يُلَقَّن المتربي هذا المنهج البسيط، ويُعَوَّد ألا يقرأ جملة إلا استنبط منها الفائدة العلمية، وما هو العمل المترتب على هذه المعلومة التي تعلمها، فإذا قرأ ـ مثلًا ـ حديث: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ...**» الحديث، وقرأ شرحه علم أنه يستفاد من هذا الحديث نوعان من الفوائد: فوائد علمية، وفوائد عملية تترتب عليها.

أما الفوائد العلمية:

أ- إن صلاح الأعمال وفسادها مداره على النيات، فإذا صلحت النية صلح العمل إن كان موافقًا للسنة، وإذا فسدت النية فسد العمل، ولو كان موافقًا في ظاهره للسنة.

ب- العادات تصير عبادات يُؤْجَرُ عليها بالنيات الصالحات، إلى آخر الفوائد العلمية من هذا الباب.

أما الفوائد العملية:

فهي أن يقول لنفسه إذا كانت الأعمال بالنيات صلاحًا وفسادًا، وإذا كانت العادات تَنْقَلِبُ إلى عبادات بالنوايا الصالحة؛ فينبغي ألا أعمل عملًا إلا إذا راجعت نفسي فيه فإن كان على السنة وكان لله خالصًا أقدمت عليه، وإن كان غير ذلك أحجمت عنه.

وينبغي كذلك أن أجعل في كل عمل نية حتى تصيرَ حياتي كلها عبادة، ثم يشترط على نفسه أول كل يوم أن يُطَبِّقَ هذه الفائدة العملية، ويراقب نفسه

---

(١) انظر: (ص ١١٧-١٢٨).

ويتابعها ويجاهدها على الامتثال طِيلة النهار، ثم يحاسب نفسه آخر اليوم، فسيجد أنه قد عمل أعمالًا كثيرة من صلاة وذكر، وتلاوة قرآن، وأكل وشرب ونوم، وقيام وقعود، وضحك وغضب وصمت، وأخذ وعطاء، وعيادة مريض وصلة رحم، وطاعة والدين.. إلى غير ذلك من الأعمال، فيجعل على كل عمل أصلح فيه النية خمس درجات، وعلى كل عمل تركه بغير نية خصم درجة، وعلى كل عمل نوى فيه نية غير صالحة خصم خمس درجات ويجعل درجة النجاح من المجموع ٧٠٪ أو أكثر، وقد لا يحصل في الأيام الأولى على درجة النجاح لكن مع المجاهدة والصبر والدعاء سيبلغها بإذن الله ﷻ، فإذا بلغ درجة النجاح واستمر على ذلك ثلاثة أيام متتالية درس شرح الحديث الثاني أو الباب الثاني، وتكون المحاسبة الجديدة على كلا الحديثين، ويفعل ذلك مع كل جملة يقرأها من بقية الكتب، فيستخْرِجُ منها الفائدة العملية، ويحاسب نفسه عليها بنفس الطريقة حتى ينتهي من دراسة هذه المرحلة والعمل بها؛ ليكون حقًا تعلَّم الربط الصحيح بين العلم والعمل، ويتأسى بالصحابة في قولهم: «فتعلَّمْنا العلم والعمل جميعًا».

٢- **ومن أهداف هذه المرحلة أيضًا**: تنمية أعمال القلوب من الإخلاص، والحب، والخوف، والرجاء، والتوكل والتقوى، والتوبة، وتعظيم الحُرُمَات والشعائر إلى غير ذلك من الأعمال التي عليها مَدَار صلاح الدارين.

٣- **ومن الأهداف كذلك في هذه المرحلة**: مُحَاولة علاج ما يظهر من الشخصية من أمراض كالعُجْب، والكبر، والرياء، وحب الظهور، وغيرها.

٤- **محاولة إيجاد شخصية لها أَوْرَادها من العبوديات بشتى أنواعها**: من الصلاة، والصيام، والذكر، والتلاوة، والدعاء، وحُسْن الخُلُقِ، والإحسان إلى الخلق، وطلب العلم، والنصيحة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٥- محاولة إيجاد شخصية طَمُوحة، تحاول إعادة سِيَرِ الصالحين علمًا وعملًا ودعوة.

عقبات ومُعَوِّقات في طريق التقدم في عملية التربية:

سيجد المربي عقبات ومعوقات تُعَرْقِلُ عملية التربية، تتفاوت هذه المعوقات من شخصية إلى شخصية ومن بيئة إلى بيئة، **ومن أهم هذه المعوقات:**

١- ما يكون من جهة الأسرة: فكثير من الأسر تعارض أن يسلك أبناؤها طريق الالتزام، والعمل بالدين بالصورة الصحيحة فضلًا عن العمل للدين بسبب التشويش الحاصل من وسائل الإعلام وغيرها، وكذلك خوفًا على أبنائهم مما يجلبه عليهم الالتزام من صعوبات وكذلك لقلة علمهم بأمور الشرع، والإنسان عدو ما يجهل، وكذلك قد يكون من المبتدئ بعض الشدة في أمور لا ينبغي التشدُّد فيها فيحدث الصدود من جانب الأسرة الذي يدفعهم إلى وضع المعوقات أمام المتربي تحول بينه وبين مواصلة الطريق أو تعرقله كثيرًا.

٢- ومن المعوقات ما يكون من جهة المجتمع: فقلة العلم بالدين وانتشار الجهل بتعاليمه، ومصادمة الالتزام لكثير من العادات والتقاليد، وكذلك إظهار بعض الملتزمين التشدد في مواطن لا ينبغي فيها التشدد، كل ذلك مع كون الإنسان عدو ما يجهل يجعل كثيرًا من فئات المجتمع تُشَغِّبُ على المتربي وتَجُرُّه إلى معارك جانبية، وتضع العراقيل التي تحول بينه وبين التقدُّم في طريق التربية، وخصوصًا وإن في المجتمع من يعادي الالتزام أصلًا ويحاربه بكل ما أوتي من قوة.

٣- ومن المعوقات فِتَنُ الشهوات، وكثرة الداعي إليها، وصعوبة الصور

المباحة منها، فالتلفاز له دوره في ذلك، وكذلك دور السينما والمجلات والجرائد، والتبرج والاختلاط في دور التعليم، وأماكن العمل والأسواق، وكذلك ما يكون في بيوت الأصدقاء والأقارب من اختلاط وتبرج، كل هذه أمور لها دورها في تزيين الشهوات والدعوة إليها؛ فتشغل القلب، وتعلقه بها، وتَحُول بينه وبين الانطلاق في مجالات التربية.

٤- ومن المعوقات كذلك: كثرة الشُّبُهات التي تُشَوِّشُ على المتربي، وتثبطه عن مواصلة السير.

٥- ومن المعوقات كذلك: المعوقات الاقتصادية، فقلة الموارد وكثرة الاحتياجات المعيشية تجعل المتربي يقضي معظم وقته في تحصيل ما يحتاج إليه من مال لتَلْبِية حاجاته المَعِيشِيَّة ومن تلزمه نفقتهم، فيُشْغَلُ عن أخذ القسط الكافي من معاني التربية علمًا وعملًا.

كيف نتغلب على هذه المعوقات؟

يمكن مواجهة هذه المعوقات والتغلب عليها بالأمور الآتية:

١- حرص المربِّي أن يكون دائمًا قدوة بعمله وسلوكه للمتربِّي: قال صاحب «حملة الدعوة وحامليها»: «نعم إن على حامل الدعوة أن يُحَقِّقَ في نفسه ما يريد أن يحققه في الآخرين، فيتعهَّدُ نفسه بالرعاية، ويمتاز بالشفافية، ويتحرى الصدق في المواقف، والإخلاص في النية، ويُلَاحِق نفسه في كل ذلك.. إن على الدعاة أن يُشَكِّلُوا النموذج الحي للمشروع الذي يريدون تنفيذه.. فما لم يشكل حملة الدعوة القدوة والأسوة، وما لم يستمدوا نورهم من مشكاة النبوة وأخلاقهم من أخلاق النبوة، ويصبحوا كالصحابة نجومًا يُهْتَدَى بهم في ظلمات هذه الأيام فإن دعوتهم تبقى ناقصة وتحتاج إلى سدِّ هذا النقص؛ ليأخذوا قيادة الناس بالفكر والعقل، وليحققوا في أنفسهم ما يُمَكِّنهم فكريًا وسلوكيًا من هذه القيادة بأمانة

وإخلاص» اهـ.

فإذا حقق المربِّي في نفسه المشروع الذي يريد أن يقيمه في غيره سَهُلَ عليه تحقيقه في المتربَّي، وسَهُلَ على المتربَّي إذا رأى هذا النموذج واقعًا عمليًّا، ورأى آثاره الطيِّبة في واقع الحياة سهل عليه أن يسْلُكَ السبيل إليه، وأن يتحمَّل الصعاب من أجل تحقيقه وأن يفارق عادات قومه وتقاليدهم من أجله.

٢- **القرب الشديد من المتربي مع حسن معاشرته:** فالقرب الشديد من المتربي، وحسن معاشرته أقرب إلى التأثير فيه وتحبيب معاني الإيمان إليه، وتسهيل برامج التربية عليه.

ويكون ذلك بعدَّة أمور:

أ- **التواصل مع المتربي ومجالسته ومخالطته:** لكن ليس معنى القرب الشديد والمخالطة ذوبان شخصية المربِّي في شخصية المتربي، بل لابد من الوسطية، فلا يلغي شخصيته، وفي نفس الوقت يتواضع ولا يتكبر عليه، ويحافظ على هيبته واحترام المتربَّي له.

ب- **التلطف بالمتربي والرفق وتجنب الجفاء معه والغلظة عليه،** لكنه يَحْذر من التدليل في المعاملة؛ فإن الجفاء والتدليل كلاهما يؤثر سلبًا في عملية التربية.

ج- الثناء عليه إذا أحسن، لكن لا يفرط في المدح وتعظيم المتربي عند نفسه.

د- الحديث إلى المتربي ومسامرته «جلسات الدردشة»، لكن لا تكون كثيرة، وإنما هي من باب الإيناس حتى يُزِيلَ ما قد يكون عنده من حرج وتحفظ، لكن يتجنب الحديث معه بأمور لا يُحدث بها من هو في مستواه.

هـ- كثرة السماع من المتربي؛ ليُعْرِبَ عما في نفسه وما بداخله مع التوجيه

بلطف إذا احتاج الأمر.

و - **محاولة التعرف على مشاكله والسؤال عنها** - إذا احتاج المربي إلى السؤال - والمشاركة الفَعَّالة له في حلِّها، ولو حتى بالنصح أو المشاركة في التفكير في طريقة العلاج، فإنه إن عجز عن المشاركة بالفعل في علاج المشكلة فلا أقل من المشاركة بالتفكير في حلها وحمل همِّها.

ز- **المشاركة الوُجْدانية في الفرح والحزن**، والمسارعة إلى الحضور معه في مناسباته، وعيادته في مرضه، وتهنِئَتِهِ أو تعزيته فيما يَسْتَدْعي ذلك من مناسبات.

٣- **محاولة استيعاب أكبر قدر من وقت المتربي في جو إيماني**، مع محاولة إيجاد بدائل مشروعة لأمور التسلية، واستفراغ جميع طاقاته، وذلك بتهيئة جَوٍّ إيماني يعيش المتربي فيه معظم وقته حتى وقت الترفيه والتسلية؛ لأن النفس البشرية لها طاقات وقدرات وميول، فإذا استوعبتها في الحق وفي المشروع المباح من الأنشطة وشغلتها به وأحست هي بلذته انصرفت عن الباطل واللهو المحرم وأعرضت عنه.

وتهيئة الجو الإيماني تكون بأمور:

أ- **قرب المربي من المتربي**، وقد سبق قريبًا الكلام عليه.

ب- **محاولة إيجاد صحبة للمتربي** ممن هم على شاكلته يقضي معهم كثيرًا من وقته في برامج مفيدة تخدم برنامج التربية.

ج- **دعوة المتربي إلى حضور إفطارات** - خاصة يوم الاثنين والخميس - وكذلك الاعتكافات والمبيتات، والرحلات الترفيهية، وغيرها.

د- **اصطحابه في عيادة المرضى**، وزيارة المقابر، وحضور المناسبات التي لا تظهر فيها المخالفات الشرعية كأفراح إخوانه، والعقائق، والولائم، وكذلك الجنائز.

هـ- الاجتهاد في إيجاد مسـجد تكثر فيه صور العمل الدعوي، من الدروس العامة، والمسـابقات، وحِلَقِ القرآن الكريـم، وإفطارات الصائمين، والحرص على أن يكون له مشاركة فعَّالة قدر الإمكان في ذلك، بل إشراكه في الإعداد لها بما يتناسب مع مرحلته وسنه.

٤- محاولـة إيجاد العمل المناسـب لـه، أو دلالته على تعلـم المهنة التي تناسبه ومشاركته ولو بالفكرة في حل مشاكله المادية.

٥- توجيهه إلى التوافُق لا التَّصادُم مع الأسرة والمجتمع، ومراعاة الضوابط الشرعية للخلاف مع المخالفين؛ **وذلك لأن ما في المجتمع من أعمال وأحوال وعادات وتقاليد لا تخلو من ثلاثة أقسام:**

أ- أمور مشروعة.

ب- أمور مختلف في مشروعيتها خلافًا معتبرًا.

ج- أمور متفق على عدم مشروعيتها، أو الخلاف فيها غير معتبر.

- فلابـد أن يُعلَّـم المتربـي إظهار التوافق مع الأسـرة والمجتمـع في الأمور المشروعة، خاصة ما كان منها واجبًا أو مستحبًّا.

- وكذلـك إظهار المرونة فيما كان فيه الخلاف معتبرًا، فلا يكون منه النكير في شيء من ذلك بل يقتصر على النصيحة فقط.

- أمـا مـا كان متفقًـا على عـدم مشـروعيته أو كان الخلاف فيه غيـر معتبر، فإنـه يحاول في هذه المرحلة أن يتجنب إثارته ابتداءً، فإن فُرِضَ عليه شـيء منه فرضًا أنكره بالحكمة والموعظة الحسـنة مع مراعاة المصلحة والمفسدة، ومع مراعاة أن كثيرًا من الناس يجهل الحكم الشرعي لكثير من أمور الدين، فينبغي التلطـف بهم والإحسـان إليهم قدر المسـتطاع في الأمر والنهـي والنصح، ولا يدخل المتربي بنفسه في معارك هو لا يتحملها في هذه المرحلة قد تؤدي بسبب

قلة خبرته الدَّعْويَّة، وبسبب عدم اعتبار الناس لعلمه - خاصة وهو في البداية - قد تؤدي إلى عزلته ونفور الناس منه، واشتعال الخلاف بينه وبين المجتمع وانشغاله بمعارك جانبية لا يتحمَّل - مع ضعفه وعدم رسوخه - تَبِعَات ذلك الأمر، ولا يحسن التصرف في تلك المواقف؛ فيثقل ذلك على نفسه، وقد تستعصي عليه نفسه فيُعَاقُ عن مواصلة السير في طريق التربية، وحتى لو واصل فإن هذا الشقاق الذي حدث بينه وبين المجتمع يصعب تذويبه والتغلب عليه، ويَصُدُّ الناس عن قبول دعوته إذا أراد أن يدعوهم بعد ذلك.

المقصود هنا: أن نحاول دائمًا التقليل من دائرة الخلاف قدر المستطاع، وإبراز معاني الوفاق مع الأسرة والمجتمع، ومع من لهم توجهات دعوية أخرى، ولا يُفهم من هذا أنه يسكت على منكر إن كان هناك منكر أو يشارك فيه، بل لابد من إنكار المنكر، والمفارقة للموضع الذي يرتكب فيه، ولكن ذلك يكون بالحكمة والموعظة الحسنة، ومراعاة الضوابط الشرعية، والمصلحة والمفسدة، والقدرة والعجز، ومقتضى الحال، فالأب والأم مثلًا لا يتعدى الإنكار معهم النصح بألطف عبارة وأجمل أسلوب مع القيام بجميع حقوقهم، ومع غاية الإحسان إليهم حتى لو داوموا على المنكر، لا كما يفعل كثير من الشباب، فأول ترجمة للالتزام عند أحدهم أن يجهل على أبيه وأمه وأسرته، ويشتد عليهم في النكير ويجلب على نفسه معارك لا طاقة له بها تُعَطِّلُه عن مواصلة السير في طريق التربية.

المرحلة الثانية:

الأهداف المطلوب تحقيقها في تلك المرحلة هي:

١- التوسع الأفقي والرأسي في الدائرة العلمية، وذلك من خلال مدارسة

المنهج المقترح للمرحلة الثانية في تربية النفس بطلب العلم [١].

ويمكن المتابعة العلمية للمتربي بالطرق الآتية:

أ- **أن يقـرأ على المتربي الكتاب كله كلمة كلمـة**، ويعلِّق له على ما ينبغي التعليق عليه، ثم يعقد له اختبارًا كل فترة حتى ينتهي الكتاب، ثم يعقد له اختبارًا في نهاية الكتاب وهكذا.

ب- **أن يدُلَّه على شـرح مسـجَّل لهذا الكتاب**، فيطلب منه سـماعه وكتابة التعليقات عليه، ثم يعقد له امتحانًا في الكتاب وفي التعليقات.

ج- **أن يقـرأ هـو الكتـاب ويعلق عليه**، أو يسـتمع إلى شـرحه ويعلق عليه ويعطيه للمتربي يستذكره ويختبره فيه.

د- **أن يكتب على الهامش لكل فقرة من فقرات الكتاب سـؤالًا مناسـبًا**، ثم يطلـب مـن المتربي حل جميع الأسـئلة في كـراس خاص، ثم يعقـد له المربي اختبارًا في الكتاب بعد مناقشته فيه.

هـ- **أن ينصح المتربي أن يقرأ الكتاب** ويكتب سـؤالًا على هامش كل فقرة من الفقرات، ثم يجيب على هذه الأسئلة في كراس خاص، وما كان من مشكل يكتبـه على هيئة سـؤال ويعرضه على المربي ليجيب عليـه، ثم يعقد له امتحانًا في الكتاب.

٢- **ومن أهداف هذه المرحلة كذلك: توسـيع دائرة العمل بالدين**، وهو موازٍ ومـلازم لتوسـيع دائرة العلم بالديـن؛ لما قدمنا من أهمية هـذا الرباط الوثيق بين العلم والعمل، فكلما علم شيئًا من الدين آمن به بقلبه وعزم على امتثاله بجوارحه، وكلما جاءت مناسـبته امتثل، ويحاسـب نفسـه على ذلك كما قدمنا، وهو في هذه المرحلة سيكون بإذن الله ﷻ أعلى هِمَّةً، وأسرع امتثالًا وتعظيمًا للشرع.

---

(١) انظر (ص ١٢٥ -١٢٧).

٣- الصَّقْل الفكري بدراسة القضايا التي تُمَيِّزُ المنهج، وتوضحه في ذهن المتربي، وهي القضايا التي ذكرناها في المنهج العلمي لهذه المرحلة.

٤- تعويد المربي العمل للدين بما يناسب مرحلته وقدراته، من دعوة أصدقائه وأسرته، وعشيرته، وجيرانه، بالحكمة والموعظة الحسنة، متابعته في ذلك ومشاركته في حل ما قد يعترضه من مشاكل وصعوبات.

٥- تعويده التعاون مع غيره بالمشاركة في الإعداد لبعض الصُّور الدعوية، كإعداد مجلة أو إعداد إفطار أو التجهيز لرحلة أو غير ذلك.

المرحلة الثالثة:

الأهداف المطلوب تحقيقها في هذه المرحلة:

١- توسيع الدائرة العلمية والعملية والفكرية أكثر وأكثر؛ لتكوين الشخصية المؤثرة علميًا وعمليًا في المجتمع من حولها بجميع طوائفه، وذلك بمدارسة الكتب المقترحة في المرحلة الثالثة من مراحل التربية على طلب العلم [١].

٢- توسيع دائرة العطاء الدعوي، والمشاركة في الدعوة العامة على حسب المتاح مع الملاحظة الشديدة له حتى ينطلق بدون آفات أو مُعَوِّقَات، مع ملاحظة الجمع بين الرفق والحزم في التقويم.

٣- تنمية روح التعاون على كل مستطاع من أعمال يمكنه التعاون عليها مع غيره.

٤- توجيه المتربي إلى التخصص الذي يحسنه، ودلالته على وسائل تنمية هذا التخصص عنده، وتوجيهه إلى التلقي عمن لهم سبق في هذا الباب.

ملاحظات هامة على مراحل التربية:

١- ينبغي للمربي أن يتحرَّى التأني في نقل المتربي من مرحلة إلى مرحلة، فلا ينتقل من مرحلة إلى مرحلة، ولا من خطوة إلى أخرى حتى يستكمل

---

(١) انظر (ص ١٢٧- ١٢٨).

الأهداف المرجوة من الخطوة السابقة أولًا، ويطمئن على مواظبة المتربي على الجانب العملي المطلوب في هذه المرحلة فترة حتى يستقر حاله عليها ثم ينتقل وهكذا.

٢- **ينبغي للمربي أن يُعَوِّدَ المتربي على المشاركة بالفكرة**، كما يعوده على المشاركة بالعمل، ويتدرَّجُ به في ذلك، فلا انفصال بالفكرة، ولا تَبَعِيَّةَ عمياء مع مراعاة الضوابط الشرعية والقدرات الشخصية لكل فرد على حده.

٣- **هناك أوراد من القراءة** لابد من توجيه المتربي إليها من أول لحظه، **وهي**:

أ- **ورد القرآن**، ولا يقل عن جزء في اليوم.

ب- **ورد السُّنَّةِ**، فيقرأ أولًا «**رياض الصالحين**» حتى يأتي على آخره، ثم الصحيحين، ثم السنن الأربعة، ثم «**صحيح الجامع**»، ثم «**جمع الفوائد**»، ثم يستقر بعد ذلك على وِرْدِهِ من «**جمع الفوائد**» أو «**صحيح الجامع**» كلما ختمه أعاد قراءته، أو يجعل ورده من الكتب الستة كلما ختمها عاد إلى أولها.

ج- **القراءة في الإصدارات التربوية**، والرقائق، وسير السلف.

د- **متابعة أخبار المسلمين** عن طريق القراءة أو السماع لوسائل الإعلام أو المجلات التي تتحرَّى أو تقارب الحقيقة في إيرادها للأخبار.

٤- **كذلك يوجَّه المتربي أثناء المرحلة الثانية** إلى متابعة الإصدارات المسموعة والمقروءة التي تعالج القضايا الدعوية والمعاصرة، والتعرف على وجهات النظر الدعوية الموافقة والمخالفة، والاستفادة من كل ما يُمْكن الاستفادة منه، وإن كان هناك بعض المؤاخذات فلا بأس أن يُنَبِّه عليها المتربي مع مراعاة ضوابط الخلاف الشرعية، وسيأتي قريبًا ذكر بعض هذه الضوابط.

٥- **ينبغي توجيه المتربي إلى ما يناسب إمكانيَّاتِه** من التخصُّصات العلمية والعملية في أثناء المرحلة الثالثة أو بعدها، وربطه بمن يُحْسِنُ هذا التخصص

إن لـم يكن المربي هو صاحب هذا التخصـص، ويحرص المربي كذلك على تقديم كل عون مستطاع للمتربي، وتذليل العقبات قَدْرَ الطاقة حتى يبلغ المتربي أعلى الدرجات الممكنة من الإتقان في هذا التخصص، ولو كان هذا سيجعله يتفوق على مربيه فإن التجرد والإخلاص من المربي يقتضي ذلك، ومما يجعل المربي حريصًا على إيجاد شخصية أقدر منه على العطاء والقيام بأعباء الدعوة: علمُـه أنه مهما كان من عطاء بعد ذلك مـن المتربي في مجال العبودية والدعوة فإنـه في ميـزان المربي؛ لأنه هو الذي دل عليه وذلَّل سُـبُلَه، وسـاهم فيه، ومما يُعِينُه على ذلك أيضًا تَذَكُّرُه أن أمته المسـتضعفة المسـتباحة لن تخرج من هذا الضعف والهوان إلا بأمثال هذا المتربي ومن هم أفضل منه، ولا يكون ذلك إلا بإخلاص وتجرُّدِ المربين؛ ليُنْشِئُوا جيلًا قادرًا على حمل الراية بحقها.

٦- مـع أن الحاجـة مُلِحَّةٌ في هـذه المرحلة الدعوية إلى مـن حصل القدر العلمي الذي يمكنه من دعوة الناس وبيان معاني الدين لهم وانتشالهم من وحل الجهل والغفلة - ولا يقوم بذلك إلا من حصَّل أكبر قدر من العلوم الشرعية - مع ذلك فإن كثيرًا ممن استجاب لدعوة الدعاة ووقف نفسه لخدمة الدين لا يُحْسِنَ أن يتعلـم إلا القدر اللازم من العلوم العينية؛ لكنه يمكنه أن يخدم الإسـلام من خلال مجال آخر، أو مجالات أخرى هو يُحْسِنُها، فلا ينبغي تضييع هذه الطاقة أو تعطيلها، بل ينبغي للمربي أن يكتشـف مثل هذا الأمر مبكرًا خلال المرحلة الأولـى، ويوجهه إلـى المجال الذي يُحْسِـنُه، ويفتح له أبوابهُ قدر اسـتطاعته، ويُؤَصِّل له الضوابط الشرعية التي بها ينطلق في هذا المجال لخدمة الدين.

***

فصل في الحب في الله وحقوق الأخوة

أخـي الكريم: إن قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾ يُشْعِرُ بوجود رباط بين اثنين، يتفاعل كل واحد منهما مع الآخر بنوع تفاعل، وهذا التفاعل ناتج عن معنى عظيم يَجْدُرُ بنا هنا التنبيه عليه، وبيان حقيقته ألا وهو «**الأخوَّة في الدين**»، فالتواصي والتناصح إنما يَصْدُر من أخ لأخيه أو من محب إلى من يحبه في الله؛ ولذلك نقف هنا مع الأخوة في الدين وقفة.

اعلم أخي الحبيب: أن الأُخُوَّة في الدين هي أعلى مراتب الأخوة، وأعظمها، وأكبرها، فهي أعظم من أخوة النسب والحِلْف، فهي رباط لا يماثله رباط آخر، فالرباط بين الوالد وولده، وبين الأخ وأخيه من النسب، وبين الزوجة وزوجها إذا لم يتأكد برباط الدين كان واهيًا؛ ولذلك يقاتل الابن أباه والأخ أخاه من أجل الدِّين، كما حدث من أصحاب رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فأقوى الروابط رباط الأخوة في الدين، وقد امتنَّ الله عَزَّوَجَلَّ على المؤمنين بأن جعلهم أخوة متحابين، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

نعم، هذه نعمة عظيمة؛ فإن العرب كانت العداوة قد فرَّقت جَمْعَهُم وشَتَّتَتْ شَمْلَهم، فجاء هذا الدين فتحوَّلَتْ العداوة بالإيمان إلى محبة، والشحناء والبغضاء والحروب إلى أخوة وولاية ونصرة، فاتَّحَدُوا بعد فُرْقَةٍ، واجتمعوا بعد شتات، وقادوا الدنيا. فهذه الأخوة وهذه الألفة لا يمكن أن تَحْصُلُ إلا بالدين، وبفضل رب العالمين لا تحصل بالأموال، ولا بالاشتراك في مصالح الدنيا، وقال تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣]،

فإذا تشبعت أسرة أو مجتمع أو أمة بهذه الأخوة الإيمانية الصادقة فإنها تُحْدِثُ انقلابًا اجتماعيًّا عميق الأثر عظيم الخطر بعيد المدى في آثاره ونتائجه، كما أحدثت هذا الانقلاب الخطير في أحوال جزيرة العرب بعد بَعْثَةِ الحبيب ﷺ.

أنواع الأخوة:

اعلم أن الأخوة والحب ينطلقان من الدِّين، فالحب عليه، والبغض عليه، والاجتماع عليه، والتفرق عليه؛ ولذلك فالأخوة والحب درجات أو أنواع، فهناك الأخوة العامة لجميع المُوَحِّدِين، وهناك الأخوة الخاصة لِقوم لهم صفات خاصة.

أ- الأخوة العامة:

الأخوة العامة حق لكل من شهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله ﷺ، وكلما زاد من الله قربًا زِدْتَ له حبًا، فالأخوة العامة حق لكل مسلم، فمن مُقْتَضَيَاتها حب الخير لجميع المسلمين، وأن تُحِبَّ لهم ما تحب لنفسك.

ومن مُقْتَضَيَاتِها: أن تُحْسِنَ الظنَّ بهم، وتلتمس لهم الأعذار، وأن تُكافئ من أَحْسَنَ إليك منهم، وتعفوَ وتصفح عمَّن أساء، ومنها نصرة المظلوم، وتوقير الكبير، والعطف على الصغيرِ، والشفاعة في قضاء حوائجهم، وتفريج كرباتهم.

وفي الجملة أَنْ تُعَامِلَهم بمعاني حُسْنِ الخُلُقِ التي ذكرنا طرفًا منها في الباب الثاني.

لكن نذكر هنا بعض الأمور الهامة:

أولًا: حب الخير لجميع المسلمين واجب على كل مسلم، كما في الحديث: « **لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ** »(1)، وأعظم

---

(1) صحيح: أخرجه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤، ٤٥) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

الخيـر هو: الإيمـان والعمل بشـريعة الله ﷻ فينبغي أن تَحْـرِصَ على إيصال هذا الخير لأخيك بكل وسيلة؛ تُحَبِّبُـهُ في هذا الخير، تُوضِّحُ له حقيقته، وتزيل الغِشَـاوة عنـه، فكثير مـن الناس لا يمنعهم مـن العمل بديـن الله ولدين الله إلا الغِشَـاوة إذ لو أُزِيلَتْ لانطلقوا بهذا الدين، ولهذا الدين في كل حَدَبٍ وصَوْبٍ، فلعلـك تُوَفَّـقُ إذا عاملتهم مـن منطلق الحب الذي هو حـق لهم عليك، لعلك تُوَفَّقُ في إزالة هذه الغشاوة.

ثانيـًا: من حقوق الأخوة الإيمانية؛ نُصْـرَةُ المظلومين والتألم لألمهم، وكم من المسـلمين مظلوم يُسْـفَكُ دَمُـهُ، ويُنْتَهَكُ عِرْضُـهُ، وتُؤْخَذُ أَمْوَالُـهُ! فإذا لم تسـتطع نُصْرَتَه إلا بالدعاء له، والألم لألمه، والشَّـفَقَة عليه، والرِّقَّة لحاله ولم تفعل، فلن تَخْلُوَ من التقصير والإثم.

ثالثًـا: الإحسـان إلى الخَلْـقِ مع عدم انتظـار الجزاء منهم ينبغـي أن يكون من أَخَصِّ صِفاتك، فإن ذلك يعمل في قلوبهم عَمَلَ السِّـحْرِ، فالإنسـان أسـير الإحسـان خاصة إذا كان الإحسـان ممن لا يريد عليه جزاءً ولا شـكورًا، فهذه صفة الأنبياء والمرسلين والمتقين، قال تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[سبأ: ٤٧]، وقال ﷻ حاكيًا عن المؤمنين قولهم حين يطعمون الطعام على حبه مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾[الإنسان: ٩].

ب- الأخوة الخاصة:

ذكرنا أن أَحَـقَّ حقوقِ الأُخُوَّةِ الحب في الله، وأنه روح جميع الحقوق، منه تبدأ، وعليه مدارها، وبوجودِه تُوجَدُ وتستَمِرُّ، وبعدمه تَضْعُفُ وتنقطِعُ، والحب في الله يتناسـب طرديًا مع طاعة أخيـك لله وقربه منه وعمله لدينه وبدينه، فكلما كان إلـى الله أقـرب اسـتحق من الحـب في الله أكثر وأكثر، كان أحـقَّ بالحقوق

الأخوية الخاصة، ومَنْ يستحقُّ هذه الحقوق« حقوق الأخوة الإيمانية » إن لم يكن هؤلاء القوم الذين التزموا هَدْيَ رسول الله ﷺ، وعملوا الدين ربِّهم، وهداية الناس إليه؟! مَنْ إن لم يكن هؤلاء الغرباء الذين تركوا عاداتِ أقوامهم، وأحْيَوا سنة نبيهم ﷺ، فنالهم ما نالهم من الأذى الحسِّي والمعنوي وغيره ؟! مَنْ إن لم يكن الذين حملوا هَمَّ هذا الدين مهما كانت انتماءاتهم، سواء انتموا لشيخك أو لبلدتك أو لجماعتك أم لا ؟! من إن لم يكن الذين يرفعون لواء الدين هنا وهناك ؟! بلا شك هم أولى الناس بالحب في الله، وحقوق الأُخُوَّة الإيمانية الخاصة.

ومن هذه الحقوق ،بالإضافة إلى ما سبق من الحقوق العامة:

١- **التناصح في الله والتواصي بالحق،** وذلك يكون بالعمل على بيان الحقِّ بالطريقة المناسبة المنضبطة بالضوابط الشرعية.

٢- **تقليل دائرة الخلاف** بكل وسيلة مستطاعة.

٣- **التأدب بآداب الخلاف:** ولما كان غياب أدب الخلاف سببًا رئيسيًّا وعاملًا خطيرًا من عوامل إثارة الشحناء والبغضاء بين أفراد الصحوة، فيحسن هنا أن نقف وقفة مع الخلاف وأقسامه والواجب تجاه كل قسم.

اعلم أن الخلاف على قسمين:

أ- خلاف تنوع.

ب- خلاف تضاد.

القسم الأول من الخلاف: خلاف التنوع:

فخلاف التنوع لا مشاحة فيه أصلًا، ويجب استثماره؛ لإحداث التكامل بين المسلمين والعاملين لدين الله ﷻ، فهذا يجيد علمًا معينًا، والآخر يُجِيدُ علمًا آخر، وهذا يُجِيدُ عملًا معينًا، والآخر يجيد عملًا آخر، وهكذا.

والأمة في حاجة إلى جميع هؤلاء وأضعافهم وأضعاف أضعافهم، فالواجب على كل واحد من هؤلاء أن يعمل بما يجيد ويجتهد فيه ولا يَحْقِرُ من عمل الآخر، ولا يَقْدَحُ فيه طالما أنه لم يقترف إثمًا شرعيًا، فلا ينبغي أن يُحَذِّرَ منه، بل ينبغي أن يَدُلَّ الناسَ عليه؛ ليأخذوا منه ما ليس عندهم، أو يُعينوه على ما هو عليه من العمل لدين الله، وبهذا ينطلق الجميع إلى الأمام، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ فهذا نداء للمسلمين جميعًا أن يتعاونوا على البر والتقوى، ولا يتعاونوا على الإثم والعدوان.

والبِرُّ: اسم جامع لكل خير مما يَصْلُحُ به دين الناس ودنياهم. واعلم أن كل بر لا يمكن أن يَتِمَّ إلا بالتعاون وجب التعاون عليه بالضوابط الشرعية، فالمؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يَشُدُّ بعضه بعضًا، ومن ذلك: إعانته على البر والتقوى ومساعدته عليه وهذا من أحق حقوق الأخوة الإيمانية.

القسم الثاني من الخلاف: خلاف التضاد:

وهو على نوعين: خلاف معتبر، وخلاف غير معتبر.

فالخلاف المعتبر: هو ما لم يخالف نصًا من كتاب، أو سنة، أو إجماع، أو قياس جلي.

فهذا لا إنكار فيه ولا يؤثر في الوُدِّ والتعاون بين المسلمين، وإنما الواجب فيه النصيحة وإظهار الدليل الذي عندك بكل وُدٍّ وتلطف بأخيك.

وقد ذَكَرَتْ لنا كتب الفقه وغيرها أمثلة كثيرة لهذا الخلاف بين السلف، بل بين الصحابة أنفسهم، ولم يَعْتَبِرْ أحدهم الآخر فاعلًا لمنكر أو مبتدعًا بخلافه هذا طالما أنه لم يصادم نصًا من كتاب أو سنة أو إجماع أو قياس جلي.

ولذلك نقول: طالما أن أخاك داخل دائرة الخلاف المعتبر فلابد من تحمل خلافه، ونقول: «يَسَعُنَا ما وَسِعَ السَّلَفُ».

وأما الخلاف غير المعتبر: فهو ما كان قول قائله مخالفًا لنص من كتاب، أو سنة، أو إجماع، أو قياس.

فهذا لابد من الإنكار عليه، وعدم إعانته عليه ونهيه عن القول أو العمل به، لكن بالضوابط الشرعية العلمية، فلا يتعدى الإنكار هذا المنكر الذي وقع فيه أخوك متأوِّلًا؛ فلا يجوز الافتراء عليه أو التحذير منه في الجملة أو من كل ما يقوم به من عمل، بل يكون الإنكار فقط مقتصرًا على هذا القول الذي خالف فيه، بل وتُزَكِّيه وتحمده فيما وافق فيه، خاصة إذا كان ما خالف فيه مسألة أو مسألتين، ولم يكثر منه الخلاف غير المعتبر، فلابد من حفظ حقوقه، وصيانة عرضه مع إنكار ما خالف فيه، بل إن احتاج الأمر إلى هَجْرِهِ وكانت المصلحة في الهجر، فإن حقوقه الشرعية من الحب وما يترتب عليه قائمة لا تتخلَّف.

ولابد من تضييق دائرة الخلاف حسب الطاقة؛ حتى لا تتوجه الجهود إلى غير وِجْهَتِهَا الصحيحة، فإذا انضبط العاملون لدين الله ﷻ بضوابط الخلاف الشرعية، وحققوا كل مُسْتَطاع من التعاون على البر والتقوى، وبذل كل عامل للدين حقوق الأخوة لإخوانه من الحبِّ والنُّصرة، والذب عن العِرْضِ، والتماس الأعذار، والنصيحة، وإذا بذلوا جميعًا معاني الأخوة لجميع المسلمين من الحب في الله، والرحمة، والشفقة عليهم، وتحمل الأذى منهم، والصبر في دعوتهم، والإحسان إليهم؛ لكان ذلك أدعى إلى قبول الدعاة، واستجابتهم لنصحهم، والتفافهم حولهم، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، إذا كان هذا مع الكفار، فكيف إذا كانوا مسلمين قد أصابهم بعض الغِشَاوة التي سُرْعَانَ ما تَنْقَشِعُ لو وُجِدَ من يُحْسِنُ علاجها، وحينها سنجني جميعًا الثمرة الطيبة التي هي موعود الرب سبحانه وتعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ

فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾[النور: ٥٥].

* * *

الباب الرابع

أخي كن مع الصابرين

تفسير قول الله تعالى

﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾

أخي كن مع الصابرين

تفسير قول الله تعالى: ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾؛ أي: على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ والصبر عن معاصيه» اهـ.

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التواصي بالصبر على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وعن المعصية، وعلى أقدار الله المؤلمة» اهـ.

تقدَّم أن من صفات الناجين من الخُسْرِ: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق؛ ولكي يَحْصُلَ هذا كله لابد من: الصبر، الذي يعين بعضهم بعضًا عليه، ويوصي بعضهم بعضًا به، وهذا هو الشرط الرابع من شروط النجاة من الخسر، والصفة الرابعة من صفات الناجين المفلحين.

الصبر: هو حَبْسُ النَّفْسِ عن الجزع، والتسخط على الأقدار المؤلمة، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح على فعل الطاعة، وعن فعل المعصية.

أنواع الصبر: الصبر ثلاثة أنواع:

أولًا: الصبر على الطاعات:

فالعبد يحتاج لكي يأتي بالطاعة، ويستقيم عليها إلى: الصبر؛ لأن النفس بطبيعتها تميل إلى الكسل والراحة، والطاعةُ تحتاج إلى ترك ذلك.

قال في «مختصر منهاج القاصدين» في معرض حديثه عن الصبر على الطاعات: «ويحتاج العبد إلى الصبر عليها؛ لأن النفس بطبيعتها تَنْفِرُ من العبودية، ثم من العبادات ما يُكْرَهُ، بسبب الكسل كالصلاة، ومنها ما يُكْرَهُ بسبب البخل كالزكاة، ومنها ما يُكْرَهُ بسببها جميعًا كالحج والجهاد.

- **ويحتاج المريد إلى الصبر على طاعته في ثلاثة أحوال:**

١- **حال قبل العمل:** وهي تصحيح النية والإخلاص، والصبر عن الرياء.

٢- **وحال في نفس العبادة:** وهي ألا يغفل عن ذكر الله تعالى في أثناء العبادة، ولا يتكاسل عن تحقيق الآداب والسنن، فيلازم البعد عن دواعي الفتور إلى الفراغ من العمل.

٣- **وحال بعد الفراغ من العمل:** وهو الصبر عن إفشائه والتظاهر به لأجل الرياء والسمعة، وعن كل ما يبطل عمله فمن لم يصبر بعد الصدقة عن المن والأذى أبطلها» اهـ.

وممن ضرب أَرْوَعَ المثل في الصبر على الطاعة: الأنبياءُ والرسل، فمن قرأ سِيَرَهُمْ رأى ذلك واضحًا، خاصة في عبادتهم واجتهادهم فيها وفي دعوتهم لأقوامهم وتحملهم الأذى في ذلك.

وقد كان النبي ﷺ يقوم حتى تَتَفَطَّرُ قدماه، فقيل: تفعل ذلك وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر ؟! فقال: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**»[1] .

ثانيًا: الصبر عن المعصية:

ترك المعاصي يحتاج إلى الصبر؛ لأن النفس أمَّارة بالسوء متعلِّقة بالشهوات التي يُزَيِّنُها شياطين الإنس والجن، والإنسان من أجل أن يَكُفَّ نفسه عنها يحتاج إلى صبر، والصبر هنا يتفاوت من معصية إلى أخرى، ومن وقت إلى آخر، على حسب الداعي لها وحال المدعو.

وممن يُضْرَبُ به المثل في هذا: نبيُّ الله يوسف -عليه السلام- وقد دعته المرأة ذات المنصب والجمال، وغلَّقت الأبواب، وغاب الرقيب، وتهيَّأت له، وهددته إن لم يفعل لَيُسْجَنَنَّ، ومع هذه الدواعي كلها والتهديد لم يفعل، وصبر

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١١٣٠، ٤٨٣٦، ٦٤٧١)، ومسلم (٢٨١٩، ٢٨٢٠).

اختيارًا وإيثارًا لما عند الله عز وجل.

ثالثًا: الصبر على أقدار الله المؤلمة:

الدنيا دار ابتلاء، واختبار، ودار نكد وتعب، فلا تخلو عن بلاء، فمن صبر ورَضِيَ فله الرضا، ومن سخط فله السُّخْطُ.

عن أبي يحيى صهيب بن سنان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ**»(٢).

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ خَيْرًا عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوفَّى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(٣).

وقال النبي ﷺ: «**إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مِنْ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ**»(٤).

وعن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ اللهَ عز وجل قَالَ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتَيْهِ فَصَبَرَ، عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الْجَنَّةَ**»(٥)، يريد عينيه.

عن عطاء قال: قال لي ابن عباس رضي الله عنهما: ألا أُرِيكَ امرأةً من أهل الجنةِ؟ فقلتُ: بلى، قال: هذه المرأةُ السَّوداءُ؛ أتت النبي ﷺ فقالت: إني أُصْرَعُ وإني

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٩٩).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٥٦٤٥).

(٣) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٣٠٨)، وأحمد (٤/ ٨٧)، وصححه الألباني في [«صحيح الجامع» رقم (٣٠٨)].

(٤) حسن: أخرجه الترمذي (٢٣٩٦)، وابن ماجه (٤٠٣١)، وحسنه الألباني في [«صحيح الجامع» رقم (٢١١٠)].

(٥) صحيح: أخرجه البخاري (٥٦٥٣).

أَتَكَشَّفُ، فادع الله تعالى لي، قال: « **إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ؛ وَلَكِ الجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللَّه تَعَالَى أَنْ يُعَافِيَكِ** »، فقالتْ: أَصْبِرُ، فقالت: إني أتكشَّفُ، فادعُ اللهَ أَلَّا أنكشِفَ، فدعا الله لها(١).

العوامل المعينة على الصبر في المحن والنوازل:

اعلم أنَّ مما يعين على الصبر في المِحَنِ والنوازل أشياء:

١- **ملاحظة حسنِ الجزاء للصابرين**، وما وعدَهم الله ﷻ به في الدنيا والآخرة؛ فَهُمْ أهل مَحبَّتِهِ سبحانه، وأهل مَعِيَّتِه، ولهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ولهم الجزاء بأحسنَ ما كانوا يعملون، ولهم النصرة والمَدَدُ من الله، وهم أهل الانتفاع بالآيات ولا تُنَالُ الإمامة في الدين إلا بهذه العبادة مع اليقين، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤].

٢- **انتظار الفرج يُعِينُ على تحمُّل المَشَاقِّ والصبر**؛ لا سيما مع قوة الرجاء، وحسن الظن، والثقة بموعود الله ﷻ.

٣- **ومما يُعِينُ على الصبر كذلك: الصاحب والصديق**، الذي يُذكِّر بالصبر دائمًا، ويُذكِّر بهذه المعاني التي ذكرناها.

٤- **ومما يُعِينُ على الصبر كذلك: تهوين البَلِيَّةِ**، وذلك بتذكُّرِ ما سبق من العافية قبلها، وأنها لم تكن أعظم، وأنها لم تكن في الدين.

٥- **ومن أعظم ما يُعِينُ على الصبر: الدعاءُ والاستعانة بالله ﷻ**، فإنه إن لم يُصَبِّرْكَ الله ﷻ لن تصبر، قال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [النحل: ١٢٧].

مراتب الصبر:

- ومراتب الصبر على ثلاثة أنواع:

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٦٥٢)، ومسلم (٢٥٧٦).

أ- صبر لله ﷻ: وهو أن يكون الباعث على الصبر محبَّة الله، وإرادة وجهه، والتقرب إليه، لا لإظهار قوة النفس، ولا الاسْتِحْمَادِ إلى الخَلْقِ، ولا غير ذلك.

ب- وصبر بالله ﷻ: وهو الاستعانة به، ورؤية أنه هو المُصَبِّرُ، فلا يرى صاحبه لنفسه صبرًا ولا قوة عليه إلا بالله، مُتَحَقِّقًا« لا حول ولا قوة إلا بالله »، ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾.

ج- صبر مع الله ﷻ: وهو دوران العبد مع مراد الله الديني منه، ومع أحكامه الدينية؛ مُصَبِّرًا نفسه عليها، سائرًا بِسَيْرِهَا، مقيمًا بإقامتها؛ ولذلك قيل (الصبرُ هو الثبات على الكتابِ والسنةِ).

آداب الصبر:

من آداب الصبر:

١- استعماله عند أَوَّل صَدْمَةٍ.

٢- الاسترجاع عند المصيبة.

٣- سُكون الجوارح واللسان عما يُغْضِبُ الله سبحانه وتعالى.

٤- ألَّا يَظْهَرَ أثر المصيبة على المصاب.

تنبيه:

في الأصل جعلتُ ملحقًا ذكرتُ فيه أسئلة جامعة لما يلزم أن يكون حاضرًا في ذهن المربِّي من مسائل وقضايا، فإذا حصَّل المربِّي الإجابة عليها من مظانها يكون قد حصَّل المادة التي يربِّي نفسه وزوجته وأولاده والناس من حوله عليها.

وهي عبارة عن:

(١٥٠٠) سؤال في الفقه.

(٣٠٠) سؤال في أبواب الاعتقاد وأعمال القلوب.

(١٥٠) سؤال في الأخلاق والآداب.

(٣٠٠) سؤال في تفسير جزئي تبارك وعم يتساءلون.

(٣٠٠) سؤال في السيرة.

(١٥٠) سؤال في أصول الفقه.

(٢٠٠) سؤال في النحو والصرف.

(١٥٠) سؤال في علوم القرآن والتجويد.

(٢٠٠) سؤال في مصطلح الحديث.

* * *

الخاتمة

وبعـد: فقد تَمَّ بحمد الله وفضله وكرمه هذا الكتاب الذي أسـأل الله ﷻ أن يكون في ميزان كاتبه وقارئه ومن أعان على نشـره، وقد علمتَ ـ أخي الحبيبُ ـ حقيقة الخسر الذي أقسم الله ﷻ في هذه السورة ـ سورة العصر ـ أن عامة الناس إلا من رحم الله واقعون فيه، وأن الخسـر يشـمل الدور الثلاثة: دار الدنيا، ودار الـبرزخ، والدار الآخرة، وعلمتَ أن الناس جميعًا لهم نصيب منه إلا قومًا لهم شـروط خاصة: أوَّلُها تحقيق العبودية بالإيمان، والعمل الصالح، وذلك لقول الله ﷻ: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾.

وعلمـتَ كذلك بعـض التنبيهـات الهامة المُتَعَلِّقـة بقضيـة العبودية، وأنه ينبغـي أن تُوجِدَ من نفسـك هذه الشـخصية التي تتحقَّق فيهـا العبودية بمعناها الشـامل، ثـم علمت كيف تُوجِدُ من نفسـك هـذه الشـخصية في أرض الواقع، وأن ذلـك إنمـا يكون بامتثال أمر الله وأمر رسـوله ﷺ وبالعلـم النافع والعمل الصالح، وعلمتَ الطريقة العملية للوصول لهذه الشـخصية التي تُجَسِّدُ الدين واقعًـا عمليًّا، تَسْـتَخْرِجُ كنوز هذا الدين من بطون الكتـب، وتُصَيِّره منهجًا حيًّا متحرِّكًا بين الناس مُظهرًا سُمُوَّ هذا الدين وصلاحيته؛ لتحويل حياة الناس إلى جنة في الدنيا قبل أن يرتحلوا إلى جنة الآخرة.

ثم علمتَ كيف تتوجَّه هذه الشـخصية إلى الناس من حولها؛ لتدلهم على سـبيل سـعادتهم ونجاتهم في الدارين، وكيف تبهَرُهم بحُسْنِها وإحسانها إليهم، وكيف تُحَوِّلُ واقع حياتهم من فُرْقَة وشـتات وإعراض عن شـرع ربهم إلى أُلْفَةٍ وحـب وإقبال على منهج سـعادتهم ونصرتهـم وهو الحق الذي هـو دين ربهم يتواصون به، ويتعاملون به، ويتآلفون ويتآخون عليه، وأن هذا شرط من شروط

النجاة من الخسر.

قال تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ ﴾، ثم إن بلوغ هذه المراتب يحتاج إلى صبر ومصابرة وتواصٍ بالصبر، فلابد من معرفة حقيقة الصبر، وآدابه، وما يعين عليه، ذلك شرط من شروط النجاة من الخسر، قال ﷻ: ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾.

وقد استفرغتُ وسعي في بيان ذلك بأسهل عبارة وأوضح أسلوب ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، ولا يَخْلُو ذلك من تقصير وخَلَل، وهذا حال كل عمل بشري إلا من رحم ربي ﷻ؛ فإن كان من توفيق فمن الله وحده، وإن كان من خلل أو تقصير فمنِّي ومن الشيطان والله منه بريء.

أسأل الله ﷻ أن يتقبل منَّا صالح الأعمال، وأن يجعل ذلك خالصًا لوجهه الكريم، والحمد لله رب العالمين.

وصلِّ اللهم وسلم وبارك على عبدك محمد ﷺ.

وكتبه

محمد بن إبراهيم منصور

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة

* * *